كتاب الهلال



رحلة جرجي زيدان

إلى الآستانة عام ١٩٠٩

د. محمد حرب



سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٤٥ – رجب ١٤٢٥ هـ – سبتمبر ٢٠٠٤ م

No - 645- SE - 2004

darhilal@i

رحلة جرجى زيدان
إلى الآستانة عام ١٩٠٩م

د. محمد حرب

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

تقديم

كان چرچى زيدان من رواد التنوير العربي على النمط الغربي، مثله فى ذلك مثل الرواد العرب الذين نادوا بالتغيير فى نمط الحياة العربية والنظرة العربية للأمور، بعد أن علموا الغرب وتطوره والحاجة إلى التغيير على شاكلته.

ولما كان ذلك فى القرن الماضى، قرن علو النغمة الدينية وعلو معاداة الغرب لأنه كان مُستَعْمِر الكثير من دول العالم العربى، فكان يدعو المثقفين للأخذ عن أوربا، لكن تيار التنوير العربى على النمط الغربى، انتصر سياسياً وإعلامياً فلا خوف من الغرب - فى رأيهم - طالما إننا نتغير مع الاحتفاظ بعروبتنا وبثقافتنا العربية. ورأى جيل التنوير العربى على النمط الغربى أنه لا سبيل إلى رقى العرب إلا بتبنى الأساليب الغربية حتى الثقافية منها فلا يغير العرب - فى رأيهم - اقتباسهم من الثقافة الغربية، وظهر جيل من كبار الأسماء الذين نجحوا على المستويين الإدارى والثقافى فى إقناع الكثيرين من المثقفين والإداريين، بالأخذ عن الغرب.

وظهر جيل محمد حسين هيكل، وجيل طه حسين، وتعرض جيل رواد التنوير على النمط الغربى لكثير من الهجوم، خاصة مؤلفنا أو رحالتنا چرچى زيدان، الذين هاجموا چرچى زيدان،

هاجموه ثقافياً على ما ورد فى كتاباته من أخطاء في التاريخ أو ذكر الأحداث. وهو رجل حر فى التعبير عن فكره عن طريق الإعلام الذى امتلكه باقتدار، ولم يكن يبالى بخصومه، حتى وصل الأمر إلى غضب بنى لحمته وجلدته ودينه ووطنه الأول فى بلاد الشام، لمجرد أنه سافر إلى الآستانة، يعنى إلى القسطنطينية أو إستانبول، لإعلان تأييده لجمعية الاتحاد والترقى، لأن أفكارهم فى مجتمع الاتحاديين مدنية (علمانية) كأفكاره وأخذ هو بإعلاناتهم عن تمسكهم بالحرية والحياة النيابية، وقد قَسَّم چرچى زيدان رحلته هذه التى نشرها متفرقة في مجلته الرائدة الهلال، على حلقات، والتى قمت بإعادة تنظيمها بعد جمعها وعلّقت على ما رأيته ضرورياً مما ورد فى هذه الرحلة الهامة.

إن أول من لفت نظرى إلى هذه الرحلة هو **الأستاذ/ السيد الطنويى**، المدرس المساعد بالمعهد العالى للدراسات الأدبية بالإسكندرية الذى كان متفضلاً بحضور دروسى على طلاب الماچستير فى الدراسات التركية فى جامعة الإسكندرية عامى ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣م، وقد أفدت منه ويقول إنه أفاد منى، لكنه فى الأول وفى الأخير صديق مخلص مثقف محترم، وإليه أتقدم بالشكر الجزيل لجهوده فى هذا العمل.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من: **تلميذتى / فاطمة الطراونة** فى جهدها فى هذا الكتاب، وكذلك **للأستاذ/ محمود جيرة الله** على جهده فى مراجعة هذا العمل والاهتمام بترتيبه.

أما الذى لفت نظرى إلى أهمية رحلة چرچى زيدان إلى إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية، فكان حضورى المؤتمر الدولى للدراسات التركية الذى يعقده المجمع التاريخى التركى أكبر المجامع التاريخية فى العالم الإسلامى كله وهو برئاسة أخى وزميل دراستى **الدكتور/ يوسف هلاج أوغلو**. فى هذا المؤتمر الذى عقد عام ٢٠٠٢م كنت أرسلت إلى إدارة المؤتمر باشتراكى فيه بموضوع **(رحلة چرچى زيدان إلى إستانبول)** وطبعت إعلانات الدعاية للمؤتمر بذلك.

وحدث أنى سافرت إلى دولة الأردن الشقيق، لجامعة مؤتة، وهى جامعة عسكرية مدنية أسسها الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الشريف حسين، وكان الغرض من سفرى للشقيقة فى هذه الجامعة إقامة معهد عال (ماچستير ودكتوراه) باسم معهد دراسات تركيا وآسيا الوسطى، وفيه قسم علمى، كما فيه أيضًا مركز للدراسات الإستراتيچية. وقد وافق مجلس التعليم الأردنى على إقامة هذا المركز ببرنامجه المقدم.

ولأنى وجدت أن مفهوم العلاقات العربية العثمانية غير دقيق لدى بعض أحبائى الأردنيين فإنى اشتركت فى المؤتمر المذكور بموضوع آخر هو: **(علاقات الود والصداقة بين الأسرتين الهاشمية والعثمانية)** لإزالة الفكرة الخاطئة الشائعة عن قيام الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين.

ورغم أن الموضوع الأخير وهو الذى قدمته للمؤتمر لاقى استحسانًا من الباحثين الدوليين ورغم نجاح الباحث فى وضع أسس علمية جديدة فى العلاقات الودية العربية العثمانية، إلا أنى وجدت احتجاجًا ضدى من باحثين أتراك مختلفين فى ميادين اختصاصهم، ووجدت أن اسم چرچى زيدان كان كبيراً لدى المثقفين والباحثين الأتراك خاصة هذا الموضوع **(رحلة چرچى زيدان إلى الآستانة)** وكان الاحتجاج علىَّ لتغييرى موضوع اشتراكى فى المؤتمر، لذلك رأيت عقب عودتى إلى الأردن إعداد رحلة چرچى زيدان هذه للنشر، ولما علم كثير ممن أعرف من العلميين الأتراك، وأنا أعرف منهم الكثير معرفة حب ومودة، وجدت التهانى تنهال علىّ فقلت فى نفسى إذاً ماذا يكون تأثير نشر هذه الرحلة فى لغتها الأصلية العربية ووقع نشرها على المثقف العربى؟!

ورحلة چرچى زيدان مهمة، من حيث العلوم الاجتماعية والتاريخية والأثرية والسياسية والفكرية، على المستويين العربى والتركى.

ولأنى باحث فى الدراسات التركية فقد اهتممت بأمر إعداد هذه الرحلة فى لغتها العربية، وأفكر فى ترجمتها إلى اللغة التركية، وهى لغة يتحدث بها (٢٥٠) مليون نسمة فى العالم (عام ٢٠٠٢م)، غير أتراك أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية وأمريكا.

وهى دراسة موجهة إلى كل محب للغة العربية ولدراسة العلاقات العربية التركية ولدراسة الفكر العربى والتركى، والتاريخ والمجتمع فى أواخر العهد العثمانى.

والتوفيق من الله أولاً وآخراً.

د/ محمد حرب

مقدمـــــة

جرجي زيدان .. سيرة ثقافية(١)

جرجي حبيب زيدان، عربي من لبنان وأقام بمصر، مسيحي أرثوذكسي، من رواد حركة التنوير العربية، المعتمدة على اللحاق بالنهضة الأوربية، ولد في بيروت يوم ١٨٦١/١١/٢٤. جمع جرجي زيدان في شخصه عدة جبهات هدفت كلها إلى تحقيق اشتراكه في حركة التنوير، فهو صحفي وكاتب وروائي ورحالة ومفكر ومبدع.

تتلمذ في بداية حياته على يد القسيس المعلم إلياس الذي لم يكن يحسن القراءة في الإنجيل. لكنه كان يدير مدرسة أشبه بكتاتيب القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه المدرسة عبارة عن قبو واسع، وكانت طريقة القس إلياس تعتمد في تعليم جرجي وزملائه، على تسميع المزامير. كما كانت تعتمد على طرق العقاب الشائعة في نشئ ذلك العهد: الفلقة، وكانت عقاباً لمن يستوجب العقاب من التلاميذ.

هذه مدرسة جرجي زيدان الأولى، ومنها صار يقرأ المزامير جيداً، لكنه لم يكن يفهم ما يقرأه. وقد أثرت هذه المدرسة الدينية

(١) مصر العثمانية أو تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية، تأليف جرجي زيدان، تحقيق ودراسة وتعليق الدكتور محمد حرب، (ص ٥ : ١٥)، مركز بحوث آسيا، ٢٠٠١م.

الأولى على توجهات جرجي مستقبلاً حين تمكن من الميدان الثقافى العربى العام، فصار يكتب ما يفهمه القارئ العادى والمتوسط والمثقف. يبسط التاريخ واللغة والفن بشكل يقبله الآخرون، ويسرى فيهم فى هدوء، لفظًا ومعنًى وأسلوبًا، وكأنه يكتب لكى يفهم الجميع.

قام حبيب زيدان والد جرجي، بنقله بعد ذلك إلى مدرسة الشوام، وهى مدرسة مسيحية أيضًا، كان يديرها بعض الشوام المسيحيين المثقفين. وتعلم جرجي فى هذه المدرسة مبادئ الحساب والنحو.

انتقل جرجى بعد ذلك إلى مدرسة المعلم ظاهر، ودرس فيها جرجى سنتين، بلغ بعدهما أحد عشر عاماً.

أتم جرجى فى هاتين المدرستين: الشوام والمعلم ظاهر، ست سنوات من عام ١٨٦٦م إلى سنة ١٨٧٢م. ثم بدأ يعمل مع والده فى مطعمه. والتحق جرجى وهو يعمل مع والده فى هذا المطعم، بدراسة مسائية لتعلم اللغة الإنجليزية. وكان والده يخشى عليه من التعليم خوفًا - فى رأيه - من أن التعليم يمكن أن يجعل ابنه جرجى «متفرنجًا يأكل بالشوكة والسكين، وربما حدثته نفسه أن يلبس الزى الأوربى».

تمكن جرجى زيدان من تعلم اللغة الإنجليزية فى مدرسة

المعلم مسعود الطويل. وكان جرجى فى الخامسة عشر من عمره.
وتقول الكتب التى تتحدث عن سيرة جرجى أنه تمكن من اللغة الإنجليزية فى خمسة أشهر، استطاع بعدها أن يشتغل بوضع قاموس إنجليزى ـ عربى، بلغ فيه حتى حرف «E» من الحروف الهجائية الإنجليزية. وفى هذا دلالة على استعداده لغزارة الإنتاج التى عرف بها بعد أن مارس الكتابة، وإجابة قد تكون ردًا على المتسائلين عن تعدد جوانبه الثقافية التى عرفه بها عالم الثقافة فيما بعد.

فى عام ١٨٨١م، التحق جرجى زيدان بالمدرسة الكلية وهى المدرسة الأمريكية البروتستانتية. لكنه طُرد منها لاشتراكه فى مظاهرة طلابية. لكنه استفاد من المواد الدراسية فى هذه الكلية من العلوم الطبية فقد حصل على دبلوم الصيدلة.

سافر جرجى زيدان، بعد ذلك إلى القاهرة عام ١٨٨٣ ليلتحق بمدرسة طب القصر العينى لكنه اضطر لظروفه المادية الصعبة من ناحية، ولأن دراسة الطب بها كانت تحتاج إلى سنوات طويلة. واهتم جرجى بعد ذلك مباشرة بالأدب والتاريخ واللغة العربية، فالتحق عام ١٨٨٤م بجريدة «الزمان» القاهرية. وكان من أسباب تركه بيروت وسفره إلى مصر، حنقه على الأتراك وعلى الدولة

العثمانية.

وكان وصول جرجى إلى الإسكندرية عقب تدمير الإنجليز لمصر أى عقب الإحتلال البريطانى للقطر المصرى عام ١٨٨٢م.

وكان لهذا أثره الثقافى والفكرى فيه. لكن أثناء عمل جرجى فى جريدة الزمان، قرر الإنجليز إرسال حملة إلى السودان لإنقاذ كوردون باشا الإنجليزى من الحركة القومية السودانية وثورة المهدى وأتباعه الذين وصفهم جرجى زيدان بالعصاة والأعداء!!.

وكان رئيس هذه الحملة هو اللورد ولسلى، وكان تعدادها سبعة آلاف جندى أكثر قوادها من طبقة الأشراف والنبلاء الإنجليز. وقد اختير جرجى زيدان مرافقًا لهذه الحملة ضمن جهاز المخابرات البريطانية، وكان ذلك عام ١٨٨٤م.

ولما عادت الحملة البريطانية من السودان بعد عشرة أشهر من سفرها. عاد معها جرجى فكافأته سلطات الإحتلال الإنجليزى بمصر بمنحه الميدالية الإنجليزية وميداليتين أخريين.

عاد جرجى زيدان بعد ذلك إلى موطنه عام ١٨٨٥، ولم يستطع المؤرخون لجرجى زيدان معرفة أهداف جرجى من هذه الرحلة.

فى عام ١٨٨٥م اختير جرجى زيدان عضواً بالمجمع العلمى

الشرقي، ولم يكن قد مضى على إنشائه حينها ثلاث سنوات، والذى أنشأه أعلام عرب كبار مثل الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر والمستشرق فانديك، ومن أعضائه أيضاً الشيخ إبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وسليم بطرس البستاني. وقد تعلم جرجي لكى يتزود لعضوية المجمع بتعلم بعض اللغات الشرقية: العبرية والسريانية بالدرجة الأولى، وبالتالى أصبح جرجي يجيد اللغات الأساس، من اللغات الشرقية: العربية والعبرية، ومن اللغات الأوربية: الإنجليزية والفرنسية.

نشر جرجي زيدان أول كتاب له، وهو كتاب الألفاظ العربية والفلسفية اللغوية (بيروت ١٨٨٦م) وفى صيف إصدار هذا الكتاب سافر إلى انجلترا وفرنسا وسويسرا، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره. وفى عام ١٩٠٨، سافر إلى استانبول بعد أن استقرت أحوال الدولة العثمانية عقب الإنقلاب العثمانى، وهو انقلاب ضباط الاتحاد والترقى عام ١٩٠٨ الذى أطاحوا فيه بحكم السلطان عبد الحميد وأعلنوا فيه الدستور.

وزار أيضًا عام ١٩١٠ سوريا ولبنان وتمخض عن هذه الزيارة مقال فى السنة التاسعة عشرة من مجلة الهلال ينصح فيها جماعة المتشائمين العرب بعدم إساءة الظن بالحكومة

الدستورية الجديدة أى حكومة الضباط الأحرار الانقلابيين (الاتحاديين) فى استانبول، ونصح العرب بأن يصبروا على وعود هذه الحكومة بالإصلاح حتى تتمكن من تحقيق ما وعدت به.

أما فى عام ١٩١٢ فقد شد جرجى الرحال إلى أوربا فى زيارة طويلة نتج عنها كتاب نشرته دار الهلال بعنوان «رحلة جرجى زيدان إلى أوربا عام ١٩١٢» من منشورات دار الهلال عام ١٩٢٣، وكان هذا النشر بعد تسع سنوات من وفاة صاحب الهلال. وكانت رحلته التنويرية هذه تستهدف نقل: «ما يهم القارئ الشرقى من حيث حاجته إلى تحدى مدنية أولئك القوم فى نهضته هذه ونبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدنية بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا.

لقد تشكل فقه التنوير فى مفهوم جرجى زيدان فى البدء، من كل من:

١ ـ ما حصله جرجى من البعثات الدينية التنصيرية خاصة الأمريكية فى بيروت، من ثقافة غربية ومنهج غربى فى طرق التفكير.

٢ ـ ما استفاد منه جرجى فى زياراته لأوروبا، خاصة أنه وُجد الفرصة هناك لدراسة الاستشراق الأوربى فى انجلترا

بالذات.

٢ ـ دراسته للشرق: تاريخاً ومجتمعاً، ثقافة وتفكيراً.

عمل جرجي بعد عودته من أوربا المرة الأولى وبالتحديد أوائل عام ١٨٨٨م في جريدة المقتطف، وبعدها عمل سنتين مديراً للمدرسة العبيدية، وهي مدرسة خاصة بطائفة الروم الأثوذكس، لكنه بدأ في عام ١٨٩٢م في إصدار مجلة الهلال، والتي نشر فيها مقالاته وظل يعمل بها حتى نهاية حياته.

كان للسلطان عبد الحميد الثاني، موقفه الواضح من جرجي زيدان، بسبب فكرة التنوير الغربي من ناحية، وبسبب تأييده للحركات المناهضة للسلطان عبد الحميد ومنها تأييده لجماعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي، لذلك كان جرجي زيدان ممنوعاً من دخول الأراضي العثمانية. لكن عندما نجحت حركة تركيا الفتاة في الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد، وتولت حكومة الاتحاد والترقي الحكم استطاع جرجي دخول استانبول وأن يلتقي هناك مع الثوار الأحرار الذين قادوا الانقلاب. وكتب عن هذه الرحلة الهامة كتابات لها أهميتها التاريخية والفكرية والتربوية والتنويرية.

كما كتب جرجي زيدان مقالات في الهلال على مدار اثنين وعشرين عاماً. وله مقالات كثيرة جداً. وما يقرب من أربعين كتاباً.

وقد كتب جرجى زيدان فى الميادين التالية:

١ ـ التاريخ. ٢ ـ اللغة والأدب. ٣ ـ الاجتماع.

٤ ـ الروايات التاريخية.

جرجى زيدان والغرب

برز جرجى زيدان كأول مؤلف عربى لموضوعين لم يكتب فيهما بالعربية أحد من قبله وهما:

١ ـ كتاب الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، عام ١٨٨٦م.

٢ ـ كتاب تاريخ الماسونية العام، عام ١٨٨٩م.

وارتبط جرجى زيدان بالفكر الغربى عن الطرق الآتية:

١ ـ الكلية الأمريكية فى بيروت.

٢ ـ زياراته للمستشرقين فى أوربا عبر رحلاته إليها.

٣ ـ زيارات المستشرقين له فى القاهرة.

٤ ـ صحبته لمجموعة المخابرات البريطانية أثناء حملة إنقاذ كوردون باشا فى السودان.

٥ ـ معرفته باللغات الأوربية واطلاعه بها.

وبالتالى عرف جرجى زيدان مناهج المؤلفين والباحثين الأوربيين. ومن هذا أيضاً جاء حرص جرجى زيدان على سهولة الأسلوب وذكر المراجع والمصادر، حتى فى رواياته.

أفاد جرجى زيدان أيضًا من كثرة تناوله للمصادر الغربية التى كتبها الغربيون، فقد أفاد منهم العقلية التنظيمية فى التأليف وتسلسل الموضوعات، والترتيب الدقيق، وجمع الأشباه والنظائر والوصول منها إلى استنتاج عام.

ويتجلى كل ذلك بوضوح فى كتابيه «تاريخ التمدن الإسلامى» و«تاريخ آداب اللغة العربية». ويلاحظ هذا التنظيم من مجرد إلقاء نظرة على أبواب كتاب تاريخ التمدن الإسلامى، ففى بحثه عن الجند الإسلامى تأتى هذه المسائل متعاقبة فى فصول متوالية من الكتاب: الجند وتوابعه، جند الروم، جند العرب، تنظيم جند العرب، جند الأعاجم فى الإسلام، ديوان الجند، أعطيات الجند، عدد الجنود، اللواء والراية.

قلد جرجى زيدان الكتابات الغربية فى تأريخه للأدب العربى، وفى طريقة التأليف عن حضارة العرب والإسلام. كما كان إطلاع جرجى على الكتابات التاريخية باللغات الأوربية أيضًا أثره فى موقفه من التاريخ العثمانى.

ولدراسة التأثير الغربى على جرجى زيدان، ينبغى دراسة جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب، الذى ألّفه عام ١٨٨٤ والمؤرخ سيديو، وفون كريمر، وجولد تسيهر، وينبغى أن

يدقق الباحث العربى فى موقف هؤلاء بالذات من العرب ومن المسلمين والإسلام.

رؤية محرم چلبي لجرجي زيدان

هذه رؤية تركية لأكاديمى تركى هو البروفيسور محرم چلبى.
أمامنا رؤية غربيين وعرب لجرجى زيدان، لكننا ـ كما أتصور ـ فى حاجة إلى رؤية تركية هى:

جرجى زيدان أحد أعمدة التيار الجديد فى كتابة الأدبيات العربية. إنه صحفى بارز لكنه قدّم دراسات فى التاريخ واللغات السامية والدراسات اللغوية المقارنة. وكان ينهج فى كل كتاباته، النهج الغربى. تأثير المستشرقين على جرجى زيدان واضح، خاصة فى وجهة نظرهم المعارضة للإسلام. إنه رائد عربى فى مجال الثقافة. ورد فى طريقه مورد الثقافة الأوربية. ونهل منها مستفيداً فى ذلك من مدارس الإرساليات الأجنبية. وهذه المدارس عبارة عن مراكز أعدت خصيصاً لمن اتجه فى اتجاهه نحو ثقافة الغرب، ونعنى بالذات الجامعة الأمريكية البروتستانتية فى بيروت والتى كانت تسمى وقتها بالمدرسة الأمريكية «أمريكان كوليج».

لقد كان هدف جرجى زيدان أن يطرح الثقافة الغربية أمام أبناء جنسه من العرب فى سبيل ضمان قيام نهضة ثقافية فى

البلاد العربية ديدنها النهج الغربي.

ولقد قدم جرجي زيدان دراسات عن تاريخ الإسلام وتاريخ العرب، لكنه لم يقدمها ككاتب عربي عادي، وإنما مستفيداً من مناهج المستشرقين. وكان زيدان ناقداً للكتابات فى تاريخ الإسلام لأنها - في رأيه - كانت تكتفى بنقل الأحداث فقط، ولم تبحث هذه الكتابات وأصحابها فى الأسباب التي ترقد تحت الأحداث لتسيرها.

وباتصال جرجي زيدان بالمنهج الغربى فى المعرفة، أصبح يرى أن التاريخ الحقيقى لأمة من الأمم ليس هو تاريخ الحروب والفتوحات، وإنما تاريخ الثقافة والمدنية والحضارة. لقد حرص زيدان أن تفقد الكتب التاريخية التقليدية اعتبارها فى نظر المثقفين العرب والمسلمين، لذلك كان حريصاً وهو يقدم التاريخ الإسلامى بالدراسة أن ينحى بالدين إلى المرتبة الثانية من الأهمية، عاملاً فى نفس الوقت على إعلاء شأن العلم والحضارة ويضعهما فى المقام الأول فى منهج التناول. لذلك أظهر زيدان اهتماماً بالإسرائيليات التى رفضها المؤرخون المسلمون، ورأى أنها إنما تكمل حلقة المصادر التى بين أيدينا. ولذلك يبدو لنا أن جرجي زيدان يخطئ فى تقويمه لتاريخ الإسلام. ويرجع هذا - فى رأينا - إلى عدم دقته التى تسود الكثير من كتاباته، ونرى أن لعدم اهتمامه بعنصر

الدين تأثيره فى هذا. ولقد بذل جرجى زيدان جهداً واضحاً فى محاولته نقل منهجه فى التاريخ إلى الشعوب العربية، عن طريق إصدارات مجموعة الروايات التاريخية التى تناولت تاريخ الإسلام. وهذا ما نراه أيضاً فى كتابه تاريخ التمدن الإسلامى الذى لم يرجع فيه نجاح العرب فى ميادين الثقافة والعلوم إلى التاريخ الدينى بل إلى تاريخ التساند الاجتماعى الدينى. وهو دائب البحث فى تأثير الثقافة اليهودية والثقافة المسيحية، فى أساس الإسلام.

دافع زيدان ـ كمسيحى ـ عن ضرورة أن يكون العلم عنصراً مؤثراً فى فلسفة التاريخ وفى المجتمعات المدنية، وأعطى أهمية للتاريخ المشترك واللغة ـ وليس للدين ـ فى إثبات هوية الشعور القومى بين العرب.

ويرى زيدان أن اللغة العربية هى السند الأعظم للشخصية العربية، وأن العرب قد أوصلوا لغتهم العربية إلى كل الأماكن التى فتحوها. ويقول جرجى زيدان بقومية عربية مركزها سوريا ومصر. ويقول أن ليس هناك حدود طبيعية بين مصر وسوريا، وهما مركز الحضارة وأن كلا منهما يكوّن مع الأخرى منطقة واحدة منذ ما قبل الإسلام.

ونظرة جرجى زيدان إلى القرآن أن أهميته بسبب دوره فى

حماية اللغة العربية. ولما كان هدف زيدان هو الوصول إلى الحضارة الغربية، فقد حرص على عدم إحداث ضرر بالشخصية العربية لأنها - في رأيه - المعبر إلى هذه الحضارة.

على ذلك أرسى جرجي زيدان أساس قومية عربية لا تعتمد على الدين، لكنه لم يستطع أن يحيل هذا إلى برنامج.

لقد أيد جرجي زيدان حركة المشروطية العثمانية، ودافع عن الاتحاد والترقي، وكان مؤيداً للحاكمية العثمانية، وازداد تأييده هذا بعد (انقلاب الاتحاد والترقي) عام ١٩٠٨م. جرجي زيدان كان قلقاً من إمكان زيادة النفوذ الأوربي إذا انهارت الدولة العثمانية. لذلك كان يرى أن المشروطية التي أعلنها الجيش عام ١٩٠٨ يمكن أن تقف حائلاً أمام آمال الغربيين السياسية. كما كان زيدان ضد طلب العرب للمزيد من الحقوق السياسية في الدولة العثمانية. ونفى جرجي زيدان عن العثمانيين تهمة التتريك وأيد أن العرب يحيون ثقافتهم - وهم في العهد العثماني - في حرية تامة.

جرجي زيدان في اللغات الشرقية

اهتم الشرقيون بجرجي زيدان وعلى الأخص الأتراك والإيرانيون، لقد ظهرت ترجمة تاريخ التمدن الإسلامي باللغة

التركية العثمانية بعنوان «مدنيت إسلاميه تاريخى» فى استانبول.
فى خمسة أجزاء بين عامى ١٨٢٧ - ١٣٣٠. قام بها زكى مغامز.
كما تتضح صورة جرجى زيدان فى اهتمام الأتراك المحدثين به، ذلك التقدير البيّن الذى ذكره الكاتب المؤرخ التركى المعلم جودت وكذلك سليمان ضاغ فى مقدمته لكتاب ISLAM TARIHI لمحمود أسعد الصادر في استانبول عام ١٩٨١م.

إلا أنه من الجدير بالاهتمام ذلك الاهتمام الواضح الذى قابل به الشرقيون روايات جرجى زيدان التاريخية: الإيرانيون والأتراك الآذريون، والأتراك من العثمانيين، والأتراك فى تركيا الجمهورية. ومن الثبت التالى يتضح مدى هذا الاهتمام. والذى أورده محرم چلبى فى مقاله «جرجى زيدان» بدائرة المعارف الإسلامية - وقف الديانة التركية.

١ - فتاة غسان: ترجمها إلى الفارسية عبد الحسين ميرزا بن مؤيد الدولة فى جزئين بعنوان «خاتم شامى»، طهران، ١٣٣٠.

٢ - فتاة غسان، ترجمها إلى التركية الحديثة كل من أحمد بويوك جينار وكريم آى تكين، استانبول، عام ١٩٧٢ بعنوان GASSANLIHINT.

٣ـ أرامانوسه المصرية، ترجمها إلى الفارسية عبد الحسين ميرزا، أيضًا بعنوان ارمانوس مصرى، طهران، ١٣٢٢.

٤ـ ارمانوسه المصرية، ترجمها إلى الفارسية جعفر قازيان بعنوان ارمانوسه مصرية، طهران، بدون تاريخ.

٥ـ عذراء قريش، ترجمها إلى اللغة التركية الآذرية مير محمد كريم الحاج مير جعفر زاده باكو، آذربيجان، ١٩٠٨/١٣٢٥.

٦ـ عذراء قريش، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران، ١٣٣٧.

٧ـ ١٧ رمضان، ترجمها إلى اللغة التركية الآذرية مير محمد كريم، باكو، أذربيجان، ١٩١٠/١٣٢٨.

٨ـ غادة كربلاء، ترجمها إلى الفارسية عبد الحسين ميرزا بعنوان عروس كربلاء، طهران، بدون تاريخ.

٩ـ الحجاج بن يوسف، ترجمت إلى الفارسية بنفس الاسم، طهران، بدون تاريخ.

١٠ـ فتح الأندلس، ترجمها إلى الفارسية إبراهيم نشأت بعنوان فتح أندلس، طهران ١٣٢٣.

١١ـ شارل وعبد الرحمن، ترجمها إلى الفارسية بنفس العنوان

عبد الرحيم خلخالى، طهران، ١٣٣٢.

١٢ ـ شارل وعبد الرحمن، ترجمها إلى الفارسية أيضاً وبنفس العنوان محمد على شيرازى، طهران ١٣٣٨.

١٣ ـ أبو مسلم الخراسانى، ترجمها إلى اللغة التركية العثمانية زكى مغامز بعنوان أبو مسلم خراسانى، استانبول ١٣٢ روميه.

١٤ ـ أبو مسلم الخراسانى، ترجمها إلى الفارسية حبيب الله آموزكار، طهران ١٣١٨.

١٥ـ أبو مسلم الخراسانى، ترجمها إلى الفارسية أيضاً ركن الدين همايون فروح، طهران ١٣٢٣.

١٦ ـ أبو مسلم الخراسانى، ترجمها إلى الفارسية ميرزا بن مؤيد الدولة، طهران ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤.

١٧ ـ أبو مسلم الخراسانى، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران ١٣٣٩.

١٨ ـ العباسة، ترجمها إلى التركية العثمانية حسن بدر الدين، استانبول ١٣٣٩ رومية ١٣٤٢هـ.

١٩ ـ العباسة، ترجمها إلى الفارسية/ ميرزا إبراهيم قمى، طهران، بدون تاريخ.

٢٠ - العباسة، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران، ١٣٣٢.

٢١ - العباسة، ترجمها إلى الفارسية، محمد تقى شريعتى مزينانى، مشهد ١٣٣٤.

٢٢ - الأمين والمأمون، ترجمها إلى الفارسية بنفس العنوان عبد الحميد اشناق خاورى، طهران ١٣١٠.

٢٣ - الأمين والمأمون، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران، بدون تاريخ.

٢٤ - الأمين والمأمون، ترجمها إلى الفارسية على أصغر حكمت، طهران، بدون تاريخ.

٢٥ - عروس فرغانة، ترجمها إلى التركية العثمانية بعنوان «جهان خاتون فرغانه كوزلى»، استانبول ١٩٢٧.

٢٦ - عروس فرغانة، ترجمها إلى الفارسية أمير قولى أمينى، أصفهان ١٣٣٤.

٢٧ - عروس فرغانة، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران، ١٩٥٤م.

٢٨ - أحمد بن طولون، ترجمها إلى الفارسية مير سيد جعفر، طهران، ١٣٢٨ - ١٣٢٩.

٢٩ ـ أحمد بن طولون، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى، طهران، ١٣٤٤.

٣٠ ـ عبد الرحمن الناصر، ترجمها إلى الفارسية أمير قولى أمينى، أصفهان ١٣١١.

٣١ ـ الانقلاب العثمانى، ترجمها إلى التركية الآذرية، على عباس بعنوان عثمانلى انقلابى، باكو، ١٣٣٢.

٣٣ ـ الانقلاب العثمانى، ترجمها إلى الفارسية، محمد على شيرازى، طهران، ١٣٣٦ ـ ١٣٤٣.

٣٤ ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين، ترجمها إلى التركية العثمانية، زكى مغامز، بعنوان صلاح الدين أيوبى واسماعيليلر، استانبول ١٩٢٧.

٣٥ ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين، ترجمها إلى الفارسية محمد على شيرازى بعنوان صلاح الدين أيوبى واسماعيليان، طهران، ١٣٣٤.

٣٦ ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين، ترجمها إلى الفارسية، مجتبى مينووى، بعنوان، صلاح الدين أيوبى واسماعيليان، طهران ١٣٠٤.

٣٧ ـ شجرة الدر، ترجمها إلى الفارسية حبيب الله آموزكار بعنوان

«مليكه اسلام»، طهران ١٢٩٨.

٣٨ ـ أسير المهتدى، ترجمت إلى الفارسَية، طهران، بدون تاريخ.

٣٩ ـ جهاد المحبين، ترجمت إلى الفارسية، طهران، بدون تاريخ.

٤٠ ـ استبداد المماليك، ترجمت إلى الفارسية، طهران، بدون تاريخ.

* * *

مؤلفات جرجي زيدان مرتبة تاريخياً(١)

١ ـ الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية (١٨٨٦م).

٢ ـ تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم، ٢ج (١٨٩٩م).

٣ ـ تاريخ الماسونية العام (١٨٨٩م).

٤ ـ التاريخ العام منذ الخليقة إلى هذه الأيام ـ ج١ (١٨٩٠م).

٥ ـ مختصر جغرافية مصر (١٨٩١م).

٦ ـ المملوك الشارد ـ رواية (١٨٩١م).

٧ ـ رد رنان على نبش الهذيان (١٨٩٣م).

٨ ـ استبداد المماليك ـ رواية (١٨٩٣م).

٩ ـ جهاد المحبين ـ رواية (١٨٩٣م).

١٠ ـ أسير المتمهدى ـ رواية (١٨٩٣م).

١١ ـ أرمانوسه المصرية ـ رواية (١٨٩٥م).

١٢ ـ خلاصة تاريخ اليونان والرومان (١٨٩٧م).

١٣ ـ عذراء قريش ـ رواية (١٨٩٨م).

---

(١) مصر العثمانية أو تاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية، تأليف جرجي زيدان، تحقيق ودراسة وتعليق الدكتور محمد حرب، (ص ٣١ : ٣٣)، مركز بحوث آسيا، ٢٠٠١م.

١٤ - تاريخ انجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام (١٨٩٩م).

١٥ - فتاة غسان - رواية (١٨٩٩م).

١٦ - ١٧ رمضان - رواية (١٨٩٩م).

١٧ - علم الفراسة الحديث (١٩٠١م).

١٨ - غادة كربلاء - رواية (١٩٠١م).

١٩ - تاريخ التمدن الإسلامي - مج١ (١٩٠٢م).

٢٠ - الحجاج بن يوسف - رواية (١٩٠٢م).

٢١ - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج١ (١٩٠٢م).

٢٢ - تاريخ التمدن الإسلامي - مج٢ (١٩٠٣م).

٢٣ - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج٢ (١٩٠٣م).

٢٤ - تاريخ التمدن الإسلامي - مج٣ (١٩٠٤م).

٢٥ - تاريخ اللغة العربية باعتبار أنها كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء (١٩٠٤م).

٢٦ - فتح الأندلس - رواية (١٩٠٤م).

٢٧ - شارل وعبد الرحمن - رواية (١٩٠٤م).

٢٨ - تاريخ التمدن الإسلامي - مج٤ (١٩٠٥م).

٢٩ ـ أبو مسلم الخراسانى ـ رواية (١٩٠٥م).

٣٠ ـ تاريخ التمدن الإسلامى ـ مج ٥ (١٩٠٦م).

٣١ ـ أنساب العرب القدماء (١٩٠٦م).

٣٢ ـ العباسة أخت الرشيد ـ رواية (١٩٠٦م).

٣٣ ـ الأمين والمأمون ـ رواية (١٩٠٧م).

٣٤ ـ محمد على ـ رواية (١٩٠٧م).

٣٥ ـ العرب قبل الإسلام ـ ج١ (١٩٠٨م).

٣٦ ـ عروس فرغانة ـ رواية (١٩٠٨م).

٣٧ ـ عبد الرحمن الناصر ـ رواية (١٩٠٩م).

٣٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج١ (١٩١١م).

٤٠ ـ الانقلاب العثمانى ـ رواية (١٩١١).

٤١ ـ مصر العثمانية؛ أو تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية من الفتح العثمانى سنة ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م إلى الحملة الفرنسية ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م.

٤٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج٢ (١٩١٢م).

٤٣ ـ طبقات الأمم أو السلائل البشرية (١٩١٢م).

٤٤ ـ عجائب الخلق (١٩١٢م).

٤٥ ـ فتاة القيروان ـ رواية (١٩١٢م).

٤٦ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج٣ (١٩١٣م).

٤٧ ـ صلاح الدين ومكايد الحشاشين ـ رواية (١٩١٣م).

٤٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ج٤ (١٩١٤م).

٤٩ ـ شجرة الدر ـ رواية (١٩١٤م).

٥٠ ـ البلغة فى أصول اللغة ـ غير موجود (   ).

٥١ ـ مختارات جرجى زيدان (١٩١٩م).

٥٢ ـ رحلة جرجى زيدان إلى أوربا سنة ١٩١٢م (١٩٢٣م).

* * *

«نص الرحلــــة»

الآستانة العلية موقعها، ومناظرها، وآثارها، وقصورها، ومتاحفها وأحوالها الاجتماعية، والعلمية، والأدبية، والسياسية

(الهــلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣) كثر اهتمام الناس بالآستانة وأحوالها على أثر الانقلاب العثمانى وأفاضت الصحف فى ذلك على اختلاف أغراضبها وأحوالها وكان للهلال نصيب من ذلك فى سنته الماضية فذكرنا تاريخ ذلك الانقلاب وما تقدمه وما نتج عنه. ثم رأينا القول فى ذلك لا يكون وافياً إن لم نر مقر ذلك الانقلاب ونشاهد رجاله وندرس أحوالهم فرحلنا إلى الآستانة فى أثناء عطلة الهلال قضينا فيها بضعةِ أسابيع تفقدنا بها آثارها وتعرفنا إلى خيرة رجالها ودرسنا أحوالها الاجتماعية والأدبية والسياسية. ونحن باسطون فى ما يلى خلاصة ما علمناه بعد الدرس والاختبار.

ونقسم الكلام فى ذلك إلى أقسام:

١ ـ موقع الآستانة الجغرافى. ٢ ـ مناظرها الطبيعية.
٣ ـ آثارها التاريخية. ٤ ـ مشاهدها وقصورها.
٥ ـ متاحفها ومعارضها. ٦ ـ حالتها الاجتماعية.
٧ ـ حالتها العلمية والأدبية. ٨ ـ حالتها السياسية. فنقول:

١- موقعها الجغرافى

(الهـــلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٤) الآسـتـانة وهـى القسطنطينية مدينة قسطنطين الكبير وكانت قبله تسمى بيزانطية فسماها باسمه وجعلها سنة ٣٣٠م كرسى[1] المملكة الرومانية الشرقية أو مملكة الروم فى اصطلاح العرب. وقد خصها الله بموقع طبيعى لا مثيل له على سطح هذه الكرة لأنها موصلة بين القارتين[2] ووسط بين البحرين[3] تمنعها المضائق وتصونها البواغيز. وتقسم إلى الآستانة المدينة الكبرى وإلى الضواحى.

والآستانة ثلاثة أقسام اثنان فى أوربا والثلاث فى آسيا كلها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه. أو هى ثلاث مدن برية تفصل بينها ثلاثة أبحر، فالأقسام البرية هى إستامبول فى الجنوب، وبك أوغلى أو بيرا فى الشمال، وكلاهما فى أوربا، واسكودار فى الشرق وهى فى آسيا يفصل بينها البوسفور فى الشمال الشرقى ومرمرا أو الدردنيل فى الجنوب وقرن الذهب فى الغرب الشمالى. تلك هى أقسامها اليوم.

أما فى زمن الروم فلم يكن عامراً منها إلا إستامبول، وهى البلد الذى فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ولا تزال إلى

---

(١) يعني: عاصمة لمملكته. (٢) يعني: آسيا وأوربا.

(٣) يعنى : الاسود والأبيض .

الآن مقر رجال الدولة وفيها أبنية الحكومة والجوامع والمساجد والمدارس وهى تعد إسلامية لأن أكثر سكانها من المسلمين. ولذلك فأكثر الآثار التاريخية فيها. وكانت بيرا عند الفتح ضاحية يقيم فيها بعض الأجانب إذا نزلوا الآستانة ثم عمرت فصارت بلداً أكثر سكانه من الإفرنج ونحوهم. ووصل بين إستامبول وبيرا جسران أحدهما جسر غلطه القديم وهو أقربهما إلى البوسفور، وثانيهما الجسر الجديد إلى غربيه.

أما اسكودار فإنها بلد إسلامى تركى يتفاءل به الأتراك خيراً لأنهم نزلوه قبل الفتح ومنه انتقلوا إلى أوربا ومدوا سلطانهم فيها. ونختص إستامبول بالوصف هنا لأنها تشتمل على أهم المشاهد والآثار التى سيدور الكلام عليها فى ما يلى:

إستامبول

هى مثلثة الشكل رأسها فى الشرق وقاعدتها فى الغرب يحدها قرن الذهب من الشمال الشرقى وبحر مرمرا من الجنوب وقاعدتها سورٌ موصل بين المائين بما يشبه مدينة الخرطوم. ومما يهمنا ذكره من أجزائها السور القديم فإنه يبتدئ فى الشمال بإيوان سراى وينتهى فى الجنوب بالأبراج السبعة، وسيأتى ذكره.

وترى فى طرف إستامبول (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١،

ص٥) من الشرق بناءً يسمى ضربخانه وبجانبه كانت سراى إمبراطور الروم وإلى غربيها جامع أيا صوفيا وكان قبل الفتح كنيسة على اسم القديسة صوفيا. وترى خارج السور فى الشمال الغربى مكانًا اسمه أيوب، أصله قبر [أبى][1] أيوب الأنصارى الذى قتل فى حصار القسطنطينية على عهد بنى أمية. لأن العرب ما فتئوا منذ الإسلام يحاولون إخراج الروم من القسطنطينية كما أخرجوهم من العراق والشام ومصر، وأول من باشر ذلك منهم معاوية بن أبى سفيان فى خلافة عثمان بن عفان ثم حاصرها يزيد بن معاوية وكان فى جملة المحاصرين أبو أيوب الأنصارى كما سيأتى. ثم حاصرها غيره وغيره من قواد المسلمين ولم يفز بفتحها إلا العثمانيون ففتحها السلطان محمد الثانى سنة ١٤٥٣م، وقد فَصلْنا ذلك فى السنة السادسة من «الهلال».

ضواحى الآستانة

أهم ضواحيها واقع على شاطئ البحر وهى قسمان: شمالى، وجنوبى. والشمالى على ضفاف البوسفور، والجنوبى فى جنوبيها مما يطول شرحه فنقدم أهمها وهو البوسفور.

(البوسفور): يمتد من الآستانة شمالاً إلى البحر الأسود على مسافة ٢٧ كيلو مترًا فهو موصل بين البحر الأسود فى

(١) زيادة متعينة. وهو الصحابي الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري.

الشمال وبحر الدردنيل فى الجنوب، وعرضه عند مدخله نحو كيلو متر ونصف، وأضيق المسافات فيه عند روملى حصار وأناطول حصار نحو ٥٠٠ متر وأوسعها عند بيوك دره فإن المسافة بين الشاطئين هناك ٣ر٥٠٠ متر. وهو عبارة عن قرى متقاربة تمتد على ضفتى البوسفور شرقًا وغربًا.

وهذه أسماء القرى بعد الآستانة شمالاً إلى البحر الأسود على الشاطئين:

على شاطئ أوربا

قباطاش
بشكطاش
اورته كوى
كور چشمه
ارناوط كوى
بيك
روملى حصار (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٦)
بوياجى كوى
أميرجيان
ستانيا
بكى كوى
طرابيا ـ كيريج بورنو
بيوك دره
مزار بورنو أوصارى ير
بكى محله
روملى قواق

على شاطئ آسيا

كوسكنجق
كوشك جاملجه
بكلربكى كوى
چنكل كوى
وانى كوى
قنديللى
أناطول حصار
قانجله
چبوقلى
باشا بغچه
انجير كوى
بيكوس
بالى كوى
بك قوز
أناطول قواق

أما في الجنوب فهناك عدة قرى بعضها على شاطئ أوربا وراء سور إستامبول والبعض الآخر على شاطئ آسيا بعد اسكودار وهذه أشهرها على شاطئ إستامبول وعلى شاطئ آسيا بعد اسكودار:

على شاطئ أوربا	على شاطئ آسيا
قوم قبو	حيدر باشا
يكي قبو	قاضي كوى
بساماتا	مودا
ماقرى كوى	فنربورنو
سان ستفانو	مال تبه

ووراء هذه القرى بضع جزر تعرف بجزر الأمراء أشهرها برنكيبو وخالكي، وهناك خط أخر بحرىٌ تكتنفه القرى على الجانبين نعني خليج قرن الذهب وهو يعدُّ من الآستانة نفسها وليس من ضواحيها. طول هذا الخليج نحو ١١ كيلو متراً ومتوسط عرضه نحو ٤٠٠ متر ويختلف عمقه بين مترين و٤٠ متراً والمحطات على ضفتيه متقاربة بعضها من جهة بيرا والبعض الآخر من جهة إستامبول وهذه أهمها:

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٨)

من جهة إستامبول	من جهة بيرا
جوبالى	غلطة
أيا قبو	قاسم باشا
الفنار	اينالي قواق
بلاطه	خاص كوى
إيوان سراى	بيرى باشا
أيوب	خليجى أوغلو

وينتهى قرن الذهب فى طرفه الغربي بمحلة تعرف بالكاغدخانه هى من أجمل منتزهات الآستانة. ويقدرون سكان الآستانة وضواحيها بنحو ٢٠٠ر٠٠٠ر١ نفس، ونظنهم أكثر من ذلك .

* * *

(١) يقال: متنزهات ومنتزهات، وكلاهما بمعنى.

٢ ـ مناظرها الطبيعية

يعلم القارئ مما تقدم أن الآستانة كثيرة الشواطئ وربما زاد طول هذه الشواطئ فيها على مائة وخمسين كيلو متراً يدخل فيها ضفاف البوسفور وشواطئ قرن الذهب والدردنيل والجزائر. وجميع هذه الشواطئ عامرة بالقصور والبساتين والفنادق لأنها عبارة عن قرى متواصلة العمارة ـ وأن البلد ليكون فيه كيلو متران أو بضعة كيلو مترات من الشاطئ فيقيم أهله عليه الأبنية الفخيمة ويعدون ذلك نعمة عليهم فكيف ببلد فيه ١٥٠ كيلو متراً من الشواطئ الآهلة؟

ثم إن هذه الشواطئ عبارة عن سلسلة تلال أو هضاب بينها الأودية. حتى الآستانة نفسها فإنها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع إذا أطلَّ عليها القادم بالبحر رأى تلك الأبنية تتدرَّج صعوداً من الشاطئ إلى قمم الهضاب وتتخللها الحدائق. فاستامبول مثلاً مؤلفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدَّة على شاطئ قرن الذهب لا تظهر جليًا إلا للمتأمل:

أولها : تشرف على الدردنيل وعليها الآن بناية الطوبخانه والسراى القديمة (طوب قبو) وجامع أيا صوفيا، وجامع السلطان أحمد.

وعلى الهضبة الثانية: جامع نورى عثمانية.

وعلى الثالثة: سراى السر عسكرية، وجامع السلطان سليمان أو السليمانية.

وعلى الرابعة: جامع السلطان محمد الفاتح أو المحمدية.

وعلى الخامسة: جامع (الهلال، ١٩٠٩، ١٣٢٧هـ، ج١، ص٩) السلطان سليم أو السليمية وحى الأروام المعروف بالفنار وفيه بطركخانه الروم.

وعلى السادسة: أبنية سراى تكفور عند محطة بلاطه.

وعلى السابعة: جامع أيوب وغيره.

وبين هذه الأبنية البارزة القصور والمنازل والأسواق والبساتين وغيرها متلاصقة أو متقاربة تظهر للناظر إليها من البحر كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض بشكل امفيتياتر.

واعتبر ذلك ببيرا تجاه إستامبول على قرن الذهب فإنها مؤلفة من تلال متقاربة. وهكذا أيضًا ضفتا البوسفور وشواطئ الدردنيل فإنها عبارة عن تلال متحاذية على الشاطئ يختلف طول قاعدة كل منها من نصف كيلو متر إلى كيلو مترين أو أكثر أو أقل. وعلوها من مائة متر إلى ألف متر. أجملها على ضفاف البوسفور فإنك ترى القرية من قراها أشبه بمعرض من الخمائل والقصور

تتدرج بعضها وراء بعض من الشاطئ إلى قمة التل وبينها بساتين بعضها من الشجر القديم كالسنديان والصنوبر والدلب ونحوها، تقادم عهدها وأهملها الإنسان فنمت على الفطرة بلا تعهد ولا تقليم فتشبكت أغصانها وتعانقت أفنانها ثم جاء الإنسان فابتنى بينها قصوراً متفرقة أو بيوتاً صغيرة من الخشب سقوفها من القرميد، وإنما عمدوا إلى الخشب دون الحجر لأنه أقل كلفة وأبعد عن خطر الزلازل فوقعوا بذلك فى خطر الحريق.

فالمتوغل فى البوسفور على الباخرة يرى أنه فى بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالخمائل والحدائق بينها الأبنية مختلفة الألوان والأشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال.

وأجمل ما شاهدناه من مناظرها قبيل الغروب انعكاس أشعة الشمس على زجاج النوافذ من منازل الشاطئ الآسيوى لامعة تبهر النظر كأنها منعكسة عن الماس ترصعت به تلك المنازل. ثم احمرت فخيل لنا أن النار شبت فى الغرف حتى كاد لسان لهيبها يندلع من الشبابيك مما يستوقف النظر. فإذا غربت الشمس وخيم الظلام ارتسمت السماء على صفحات الماء. والجالس فى أى منزل من منازل تلك القرى سواء كان على الشاطئ قرب الماء أو فى سفح الهضبة أو على قمتها فإنه يشرف على المياه والبواخر تسبح

فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالأشجار والأبنية.

ذلك شأن ضفاف البوسفور وغيرها من شواطئ الآستانة وضواحيها. وإذا (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٠) أوغلت في البر وراءها لا يقع نظرك إلا على وادٍ خصيب أو غابة غضة أو جبل مكسوّ بالأشجار الكثيفة بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجري صافية كالزلال. وقد أقيمت هناك أماكن النزهة يقصدها الناس يقضون عندها الساعات والأيام كما يفعل المصطافون بلبنان في خروجهم إلى الينابيع المشهورة كعين الرمانة وعين حمانا ونبع العسل ونبع اللبن وغيرها، وإن كانت هذه أشد برودة من ينابيع الآستانة إلا أن هذه أجمل منظراً وأكثر خضرة لأن معظمها يجري في جبال تكسوها أشجار هائلة الكبر قد تعانقت أغصانها وتكاثفت أوراقها حتى تحجب أشعة الشمس لكنها لا تضيق الصدر لأنها عالية وبين جذوعها منفرجات. وقد تعاظم جرمها لقدم عهدها ويندرُ أن تكون للإنسان يد في إصلاحها. وهذه الينابيع كثيرة بعضها في شاطئ الأناطول والبعض الآخر في جهات الروملي. وأشهر المياه في الروملي نبع الكاغدخانه في آخر قرن الذهب وهو منتزه جميل عبارة عن عشرات من الأفدنة مكسوة بالأشجار والأعشاب وتجري فيها المياه فيقصدها الناس

زرافات ووحداناً في فصل الربيع. وچرچر صو نبع كثير الشبه بموقعه وبرودته بعين الرمانة بلبنان.

وبالقرب منه نبع خونكار (خونكار صو) وهو أعلى كثيراً من چرچر لا يمكن الصعود إليه بالمركبات ويصعب تسلقه على الدواب. ماؤه بارد ولذيذ ذكرنا بعين حمانا في عيناب لكنه أكثر خضرة وشجراً وقس عليه نبع كستنه صوفي ذلك الجوار وماء فلوريا وراء سان ستفانو وغيرهما.

ومن الينابيع المشهورة في شاطئ آسيا (كوك صو) وقد وصفها شوقي بقصيدته التي مطلعها «تحية شاعر يا ماء جا كسو» ومنها عين وراء اسكودار يحملون منها الماء بالبراميل إلى الأطراف يبيعونها، وهم يحملون الماء على هذه الصورة من سائر الينابيع.

وتسهيلاً للتمتع بالطبيعة والانتقال بين الشواطئ تألفت في الأستانة شركتان للبواخر إحداهما الشركة الخيرية تنقل الناس بين الأستانة وضفاف البوسفور، والأخرى اسمها الشركة المخصوصة تمخر في قرن الذهب والدردنيل إلى جزائر الأمراء. تحمل السفينة مائة إنسان أو أكثر تنقلهم بين المدينة والقرى أو بين القرى بعضها إلى بعض. وبينها سفن تنقل المركبات بخيولها

فتقترب من الشاطئ ولها باب واسع تدخل فيه المركبة وقد تسع ثلاث مركبات أو أكثر بخيولها وتنقلها بين الشواطئ. تخترق (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١١) تلك السفن البحر هادئة والهواء يهب عليلاً والعين تتمتع بمنظر الشواطئ على ما قدمناه ومهما يكن من حرارة الطقس فى أشد أيام الحر فإن البوسفور لا يبرح هواءه منعشًا وتفضل الصيفية فيه على معظم مصائف العالم.

فترى أن الطبيعة وهبت الآستانة وضواحيها هبات يعز مثالها فى مشارق الأرض ومغاربها ولكن الإنسان لم يحسن استخدام تلك الهبة، فبين ترى منازل الآستانة متراصة بعضها وراء بعض تشرف على البحر و على ما جاورها من المنازل ترى شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خرابًا لتقلقل بلاطها وقلة العناية فى إصلاحها فضلاً عن ضيقها. كأن حكام العصر الماضى لم يكن يهمهم إلا ما يخصهم أو يؤول إلى منافعهم الشخصية لأنك ترى منازلهم على أتم نظام وحدائقهم على أجمل ترتيب يتعهدون أشجارها بالمقراض على أحسن هندام ويرصفون الطرق بين المساكب بالحصى الملونة على شكل الفسيفساء. وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومنتزهاتهم ويضنون بالقروش على

الأماكن العمومية، ولكن الآمال معقودة بالحكومة الدستورية أن تعوّض ما فات.

* * * *

٣ـ آثارها التاريخية

إن أكثر آثار الآستانة التاريخية فى إستامبول وأهمها المساجد وهى عديدة يزيد عددها على ٤٨٠جامعاً منها ٨٩ كانت كنائس حولها العثمانيون بعد الفتح إلى مساجد أشهرها جامع أيا صوفيا الواقع على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول.

كان هذا الجامع قبل الفتح كنيسة باسم القديسة صوفيا بناها قسطنطين الكبير سنة ٣٦٠م ووسعها ابنه قونستانس واحترق بعضها سنة ٤٠٤م على عهد اركاديوس ورممها ثيودسيوس ثم احترقت برمتها على زمن يوستنيان الأول فأعاد بناءها ثانية على الشكل الباقى إلى اليوم. وبذل يوستنيان جهده فى جعلها أجمل كنيسة فى عصره فلم يدخر وسعًا فى تذهيبها وانتقاء أحسن الأساطين من الرخام وغيره حملوا إليه بعضها من رومية والبعض الآخر من افسس وغيرهما، وفيها أساطين من أنقاض الهياكل الوثنية القديمة فى أثينا وبعلبك وديلوس ومصر. وقد تولى يوستنيان مراقبة البناء بنفسه وكان يكافئ العملة بما ينهض هممهم ويستحث قرائحهم. واصطنع قراميد القبة فى رودس (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٢) من تراب خفيف جداً فلم تكن تزن القرميدة منه عشر قرميدة من سواه وقد طبع

على كل قرميدة هذه العبارة باليونانية **الله أسسها وهو يعينها».**

وبلغت النفقات عليها قبل أن يرتفع البناء متراً واحداً عن الأرض ٤٥٢ قنطاراً من الذهب، وفرغ من البناء سنة ٥٤٨م بعد قضاء ١٦ سنة فى إتمامه فاحتفل الإمبراطور بتدشينه احتفالاً شائقًا فرّق فيه الأعطية والحسنات أربعة عشر يوماً وقال يومئذ: **«المجد لله لأنه جعلنى أهلاً لإتمام هذا العمل العظيم فقد غلبتك يا سليمان».**

فلما فتح العثمانيون الآستانة سنة ١٤٥٣ دخلها محمد الفاتح على جواده حتى إذا بلغ هذه الكنيسة وطئ صحنها ووحّد فصارت معبداً للمسلمين من ذلك الحين. وبنى فيها منارة وبنى غيره بعده سائر المنائر فصارت أربعاً. ولو أردنا وصف هذا الجامع لاستغرق ذلك شرحاً كبيراً يضيق هذا المكان عنه فنقتصر على خلاصته، وذلك أن مساحته ٧٦ متراً فى ٧٠ فهو مربع تقريباً وعلى قمته قبة عالية قطر دائرتها ٣٢ متراً وارتفاعها عن الأرض ٦٥ متراً، وفيها ٤٠ نافذة والقبة قائمة على أربع أقواس كبيرة مرتكزة على أعمدة ضخمة بعضها مطوق بالحديد خوفًا من تشققه بينها أربعة أعمدة مجلوبة فى الأصل من افسس وثمانية أخرى من معبد الشمس وأخرى من مصر وجملة الأعمدة نحو ١٠٧ أعمدة

من الرخام الملوَّن عليها تيجانها مزخرفة بالنقوش.

وكان علي جدران هذا المسجد وهو كنيسة صور لبعض القديسين أو الملائكة (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٣**) وقد محوا بعضها وغطوا البعض الآخر بستائر عليها آيات مطرَّزة. وهناك صورة كروبين لم يبقِ ظاهراً منها إلا الأجنحة وقد تغطت الرءوس بالستارة. وجدران الجامع مصفحة بالمرمر والرخام وعلى باطن القبة الكبرى كتابة بالذهب طول الحرف منها تسعة أمتار تبدأ بالآية بسم الله الرحمن الرحيم اللهُ نورٍ السَمَوَاتُ وَالأَرضُ}(١) إلخ، ويتدلى من القبة ثريا كبيرة فيها المصابيح الكثيرة. وقد صُدِّرَ الجامع بالمحراب(٢) وقد نقش بالذهب فى أعلاه آيات تنقش فى أكثر المساجد مع تغيير قليل ففى المحراب {كلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَا المُحرَابَ}(٣)، وتحته «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**" أَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدعواِمع اللَّهُ أَحَدًا}(٤) ثم: {وَلَيَطَوَفوا بِالبَيتُ العَتيق}(٦)، ثم: {فَنَادَتَهِ المَلائكَةِ وَهوِ قَائمِ يصلِّي فِي المُحرَابُ}(٧)، وبين يدى المحراب شمعتان ضخمتان على قواعد

(١) من الآية : ٣٥ من سورة النور.
(٢) في الأصل : المحراب.
(٣) من الآية : ٣٧ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية : ١٨ من سورة الجن.
(٥) من الآية : ٢٩ من سورة الحج.
(٦) من الآية : ٣٩ من سورة آل عمران.

ثابتة. وإلى جانبي المحراب من الأعلى «الله» «محمد» ووراءَ ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن والحسين وإلى يسار المحراب المقصورة التي كان السلاطين يقفون فيها للصلاة، وإلى اليمين المنبر يصعد إليه بسلم مذهب. وللجامع مكتبة نفيسة.

وبجواره مدفن السلطان سليم الثاني وأولاده قتلهم مراد الثاني لما تولى الملك. وقبور مراد هذا و١٩ من أولاده قتلهم أخوهم محمد الثالث لما تولى.

جامع القعرية

موقعه عند باب أدرنة من أبواب السور في طرف إستامبول الغربي ويسميه (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٤**) الإفرنج جامع القهرية أو القاهرية، لكن الأتراك يضبطون لفظه بالعين (القعرية).

وكان في أصل بنائه كنيسة هي أقدم كنائس القسطنطينية فقد ذكرت سنة ٢٩٠م ثم تهدمت غير مرة وأعيد بناؤها أخيراً في القرن الحادي عشر للميلاد ولما دخل الأتراك القسطنطينية بعد الفتح جعلوها جامعاً عرف بجامع القعرية، وهو بناءٌ صغير لا أهمية لهُ إلا من حيث قدمه وبما على سقوفه وجدرانه من الصور النصرانية المتقنة مرسومة بالفسيفساء الملوَّنة وهي عديدة أكثرها

فى سقوف رواقه لا يزال معظمها محفوظًا بأشكاله وألوانه كأنه رسم بالأمس إلا ما أفسده الحريق.

دخلنا هذا الجامع من بابه الخارجى إلى الرواق وهممنا بالدخول إلى صحنه إذ لم يبد لنا فى الرواق لأول وهلة ما يستلفت النظر لأن بناءه فى غاية البساطة فاستوقفنا قَيّمه وأشار بإصبعه إلى السقف فبهرنا ما شاهدناه هناك من الصور المدهشة بألوانها الزاهية ورسومها المتقنة. والسقف عبارة عن قبب أقواسها متداخلة فى كل قبة صورة أو غير صورة بالحجم الطبيعى تمثل السيد المسيح أو بعض أعماله أو بعض حوادث الكتاب المقدس، منها صورة ولادة المسيح فى بيت لحم. وصور تمثل ظهور ملاك الرب ليوسف، وإحصاء سكان بيت لحم. ووقوف مريم بين يدى اليصابات. وأخذ يوسف مريم العذراء إلى بيت لحم (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٥) ووقوف المجوس بين يدى هيرودس، وهيرودس يخاطب رئيس الكهنة والكتبة. وأمر هيرودس بقتل الأولاد. وسجود المجوس للمسيح. وبكاء الأمهات. وفرار اليصابات إلى المغارة يتبعها جندى. ورجوع المسيح إلى الناصرة. ورحلتهُ إلى أورشليم والمسيح بين الكهنة. ويوحنا يعمّد. ومجيئ المسيح ليتعمد. وتجربة الشيطان له. والعرس فى (الهلال،

١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٦) قانا الجليل، وكسر الخبز، ويسوع والسامرية، وشفاء المفلوج، وشفاء الأبرص، وصور كثيرين من القديسين والأنبياء فى دوائر حول المسيح والعذراء، وصورة المسيح جالسًا وبين يديه ثيودوروس المتوخى ساجدًا يقدم له الكنيسة أو مثالاً منها وشفاء اليد اليابسة وغيره وشفاء الأعمى والأطرش، وشفاء حماة بطرس، وبشارة الملاك لحنة، والتقاء يواكيم وحنة بباب الهيكل، وولادة العذراء، والعذراء بين والديها، والعذراء يباركها الكهنة، ومجىء العذراء إلى الهيكل ونحو ذلك، وأكثر هذه الصور لا يزال واضحًا وما فسد منها لم يفسده المسلمون وإنما أضرَّ به الحريق أو الزلزال، حتى داخل المسجد فقد رأينا صورًا على جدرانه غطاها المسلمون بما يشبه أجنحة النوافذ تفاديًا من ظهورها وقت الصلاة ولم يمحوها مما يدلُّ على رغبتهم فى تجنب أذاها.

جامع السليمانية

بناه السلطان سليمان القانونى واقع بجانب السر عسكرية ويشغل معظم الهضبة الثالثة من هضاب إستامبول كما تقدم وله ملحقات من المدارس والمنائر والتكيات والأضرحة والمكاتب والحمامات، وهو من أتقن أبنية الآستانة وأفخمها هندسةُ سنان الشهير سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٦٦ ونقلت أهم أحجاره من كنيسة

خلكيدونية وكنيسة السراى الكبرى وهو أفخم أبنية العاصمة ويظهر لأهلها من كل ناحية لعلوه وإشرافه وهو نحو جامع أيا صوفيا فى السعة. دخلناه وتهيبنا من ضخامته وعلوه وعظم عضائده فإن قبته قطرها ٢٦ متراً قائمة على أربع عضائد سماقية اللون مربعة الشكل طول كل ضلع منها ٩ أمتار وعلوها ٢٠ متراً وبين كل عضادتين فى الجانبين عمودان مستديران من الجرانيت تيجانها مذهبة وداخل الجامع لونهُ سماوىٌّ.

محرابه منحوت من الرخام فى أعلاه الآية: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}(١) وقد تدلى إلى كل من جانبيه طبق شبه الجرس الكبير مذهب وتحت الطبقين على الأرض شمعتان طول الواحدة خمسة أمتار ومحيطها متر ونصف قائمتان على مشمعتين مشدودتين إلى الحائط بأمراس. وإلى جانبى المحراب اسطوانتان من الجرانيت المجزع فيها نقش كالميازيب. وإلى يمين المحراب المنبر منحوت من الرخام هو ودرابزينه وبابه قطعة واحدة وقد طليت فاريزه بالذهب ونقش على عتبة بابه نقشاً من الطرز العربى (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٧) المعروف بالمقرنص تحته آية التوحيد. والحائط حول المحراب مبطن

---

(١) من الآية: ٣٧ من سورة آل عمران.

بالقيشاني الثمين وقد كتبت فيه بالقيشانى الملون دائرتان هما معًا سورة الفاتحة. وفوق ذلك النوافذ عليها الزجاج الملون قطعًا صغيرة بغاية الإتقان والزخرفة وفيها كتابات دينية. وفوق المنبر قبة مستطيلة مذهبة تشبه منبر المدينة. وفوق المحراب من اليمين اسم الجلالة منقوش بالذهب وإلى اليسار اسم محمد، وإلى كل من الجانبين وراء ذلك أسماء الصحابة كالعادة وآيات عديدة. ويتدلى من القبة فى وسط الجامع ثريا كمثرية الشكل حولها دائرة تتعلق بها المصابيح.

وبالجملة فإن جامع السليمانية هذا آية فى الضخامة والإتقان وقد استوقفت فخامته نظرنا أكثر من سائر المساجد وبجانبه ضريح السلطان سليمان القانونى بانيه.

جامع أبي أيوب

ويسميه بعضهم السلطان أيوب غلطًا فإنه مقام أبى أيوب الأنصارى أحد كبار الصحابة نزل النبى فى داره يوم جاء المدينة وكان قد دخلها على ناقته فأمسك بها بعضهم وطلب إليه النزول عند أهله أو غيرهم فقال: «**دعوا الناقة فإنها مأمورة**» فبركت على باب أبى أيوب ونزل النبى عنده حتى بنى المسجد.

والمشهور أن أبا أيوب جاء لغزو القسطنطينية مع يزيد بن

معاوية سنة ٥١هـ فمات خارج سورها ودفن هناك. وما زال قبره مهملاً حتى كان الفتح العثمانى فبنى محمد الفاتح على قبره مقامًا وبجانبه جامعًا وجعل أن لا يتولى بسلطان عثمانى إلا تقلد بسيف عثمان رسميًا فى جامع أبى أيوب.

وهو واقع فى أواخر قرن الذهب لا يظهر من بعيد لأنه قائم فى بقعة منبسطة تحدق به الأشجار والمنازل فلا يراه الزائر حتى يصل إليه.

دخلنا من بابه الخارجى إلى ساحة مكشوفة فى وسطها بركة أو ميضة وفى بعض جوانبها شجرة دلب مات جذعها لقدم عهدها ونما بجانبه شجرة أخرى توكأت على ذلك الجذع وانفرش جذعها عليه واتخذ شكله. وقرأنا على عتبة هذا الباب من الداخل: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}(١) فمشينا فى تلك الساحة خطوات فأصبنا إلى يميننا بابًا يؤدى إلى صحن المسجد فولجناه وقد كتب على بابه {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا} (٢)وفى يمين ذلك الصحن باب الجامع وعليه: {سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}(٣) **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧ هـ، ج١، ص١٨)** وفى وسط الصحن شجرتان

(١) من الآية : ١٨ من سورة الجن.
(٢) من الآية : ٧٣ من سورة الزمر.
(٣) من الآية : ٣٢ من سورة النحل.

من الدلب هائلتا الكبر وإلى اليسار شبابيك محدبة من نحاس قد نقش فى وسط أحدها: **«لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين»** وهذا الشباك من شبابيك مقام أبى أيوب. ومدخل المقام من باب خاص فى الساحة الخارجية سنعود إليه.

أما الجامع فبابه إلى يمين الداخل كما تقدم فى صدره محراب قد نقش فوقه بشكل دائرة هذه الآية: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}(١) وتحتها مربع مستطيل فيه قوله: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}(٢) وإلى يمين المحراب المنبر يصعد إليه بسلم مثل سائر المنابر وهو مصنوع من رخام مذهب وقبة الجامع قائمة على ستة أعمدة محيط كل منها ٤ أمتار بينها أربعة أعمدة صغار وفى هذا المسجد يتقلد السلاطين سيف عثمان.

مقام أبي أيوب

وأما المقام فبابه الخاص فى آخر الساحة الخارجية إلى اليمين أى بعد باب الجامع الخارجى. دخلنا منه إلى دهليز طويل مبطن بالقيشانى الجميل وله نوافذ عليها ستائر من الحرير ينتهى الدهليز بغرفة مبطنة بالقيشانى. وعلى جدرانها إطارات فيها

(١) من الآية: ١٤٤ من سورة البقرة.
(٢) من الآية: ٣٧ من سورة آل عمران.

ألواح عليها آيات قرآنية وأحاديث بخطوط جميلة. وفى هذه الغرفة حجرة هي جزءٌ منها فيها مقام أبى أيوب أى قبره دخلناها من باب فى الغرفة بجانبه شباك مذهب. وقد نقش على عتبة الباب من الخارج بحرف كبير «**دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبى أيوب**»[1] فرأينا فى وسطها الضريح يحف به سور من شبك الفضة أعلى من قامة الإنسان فيه نقوش يقرأ فى أحدها «**السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٧**» ويجلل الضريح غطاء من المخمل الأسود المطرز بالذهب وعليه آيات وأدعية. وحول الضريح وراء الشبك الفضة وعند قاعدته مساند من الخشب عليها مصاحف خطية كل منها ملفوف بجوخ أخضر. وفى بعض جوانب الحجرة المذكورة بئر يستقى منها. وجدران هذه الحجرة مبطنة بالقيشاني أيضًا وعليها ألواح فيها آيات وأحاديث.

ورأينا فى الغرفة الخارجية المؤدية إلى الحجرة آثارًا تستحق الذكر غير الآيات والأحاديث منها أثر قدم النبى على بلاطة محفوظة فى كوة خصوصية. وبجانبها إطار صغير مذهب يشتمل على صفيحة من زجاج تحتها ورقة شجر مجففة وقد كتب فوقها (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص١٩**) بالتركية أنها من شجرة فى مكة غرسها النبى بيده.

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير: لابن عبد البر، ص٨٦.

جامع السلطان أحمد

بناه السلطان أحمد المتوفى سنة ١٠٢٦هـ بالقرب من آتميدان الذى قتل فيه الإنكشارية ويمتاز عن سائر المساجد بكثرة مآذنه فإنها ست، وسائر المساجد لا تزيد منائرها على أربع. دخلنا إليه بعد المرور بخلاء يحيط بثلاث من جهاته ثم صعدنا على سلم كالهرم المدرج إلى صحن فى إحدى جهاته إلى اليمين مصطبة من الرخام الكبير بينها رخامات يزيد طول بعضها على خمسة أمتار أو ستة. فى وسط ذلك الصحن حنفية أو ميضة ويحف به من الجهات الثلاث الباقية قناطر كالقباب الصغيرة قائمة على ٢٦ عموداً. ثم دخلنا إلى المسجد من باب يخترق المصطبة قرأنا على عتبته فى الأعلى اسم السلطان أحمد وأجداده منقوشة بالذهب. وفوق الباب قبة من الرخام على الشكل المقرنص مثل أكثر أبواب مساجد الآستانة. والمسجد من الداخل قبة واحدة مثل سائر جوامع الآستانة قائمة على أربعة أعمدة أو عضائد مستديرة من رخام أبيض محيط كل عضادة منها ٣٢ متراً وحول تيجان هذه العضائد فى الأعلى كتابة منقوشة بالذهب هى واحدة فوق كل عضادة تبدأ بقوله: قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى..}[1] إلخ والمسافة بين كل عضادتين ٢٤ متراً ومساحة

---

(١) من الآية: ١٠٨ من سورة التوبة.

الجامع كله نحو مساحة **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٠)** السليمانية. وإذا امتاز جامع السليمانية بالفخامة والمتانة فإن هذا يمتاز بالزخرفة واللطافة وجمال الهندسة لأن محيطه من الأسفل عبارة عن رواق من قباب صغيرة قائمة على أساطين لطيفة من الرخام المجزع بينها أعمدة رخام أبيض ضخمة وقد تبطن هذا الرواق بالقيشانى الأزرق، وكذلك أعلاه بين الشبابيك إلى حدود السقف تحت القبة. وفوق ذلك إلى أعلى القبة مدهون بألوان تشبه القيشانى فيظهر باطن الجامع لأول وهلة أنه مبطن بالقيشانى الأزرق كله أعلاه وأسفله.

والمحراب في الصدر رخام مذهب وبجانبه شمعتان أقل ضخامة من شمعتى محراب السليمانية وأبواب الجامع وشبابيكه كلها من الرخام الأبيض والمنبر رخام مذهب بابه قطعة واحدة عليها سورة التوحيد وهو يشبه منبر مكة. وفى أعلى المحراب الآية: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}(١) تحتها الآية: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}(٢) وبجانب المحراب فى الحائط قطعة من حجر مجزع يتوهم الناظر إليها لأول وهلة أنها صورة ملونة تشبه مقطوع جزع الشجرة فإذا تفرس فيها وجدها حجراً

(١) من الآية: ٣٧ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية: ٣٩ من سورة آل عمران.

مصقولاً وهو نادر المثال. وفوقه شكل مسدس هو كتابة كوفية فيها أسماء الصحابة. وبجانبه صورة كبيرة بالزيت تمثل الكعبة ضمن إطار مذهب وقد كتب فى أسفلها أنها رسم معمار زاده سنة ١٣٢١ وهى فى غاية الإتقان. ولا يدرك مقدار ما أنفق فى تزيين باطن هذا الجامع إلا من يعرف قيمة القيشانى الثمين فضلاً عن الرخام والذهب وغيره.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢١) وهناك جوامع أخرى أغضينا عن وصفها فراراً من التطويل واكتفاء بما تقدم على سبيل المثال، إنما نذكر أننا رأينا بباب جامع نورى عثمانية الخارجى مدخل يؤدى إلى طلعة تنتهى بأعلى الجامع إلى المقصورة التى يجلس فيها السلاطين لحضور الصلاة، قال مخبرنا إن السلاطين كانوا يدخلون من هناك على خيولهم حتى يبلغوا إلى الطبقة العليا فيتحولون ويسيرون على أقدامهم إلى المقصورة.

سبيل السلطان أحمد

فى الآستانة سبل كثيرة اختصصنا هذا بالذكر لأنه أفخمها. بناه السلطان أحمد فى ساحة بين جامع أيا صوفيا وباب سراى طوب قبو. وهو مبنى بشكل مربع من الرخام الأبيض وفوقه قبة مستديرة الأركان تستطيل حافاتها حوله على شكل الطنف فى

غاية الزخرفة والإتقان وعلى جهاتها الأربع نقوش مذهبة في وسطها أشعارٌ منقوشة بالذهب بخط جميل هى قصيدة باللغة التركية نظمها شاعر السلطان أحمد في جملتها بيت التاريخ جاء فيه اسم هذا السلطان ويقال إنهُ هو نفسه وضعه وهو:

تاريخى سلطان احمدك جارى ز بان لوله دن آج بسمليله ايج صولى

خان احمد ايله دعا

وهذه خاتمة القصيدة بالتركية نقلناها عن أحد جدران السبيل حرفيًا وأكثر ألفاظها عربى بحيث يمكن للعربى فهمها بتفسير بعض الألفاظ التركية.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٦)

ومن الأعمدة التاريخية عمود اركاديوس وعمود مارسيان وعمود ثيودسيوس اغضينا عن وصفها.

ومن الآثار التاريخية سراى طوب قبو على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول وكانت قصراً لإمبراطور الروم ثم جعلها السلاطين العثمانيون مقراً لهم إلى عهد غير بعيد وسيأتى الكلام عليها بفصل خاص بالمتاحف[1] لأن فيها تحف آل عثمان ومجوهراتهم.

* * * *

(١) فى الاصل «بين المتاحف»

٤ ـ مشاهدها

أهم مشاهد الآستانة القصور السلطانية وهى كثيرة نكتفى بأشهرها:

قصر طولمه بغجه

واقع فى محلة بشكطاش على ضفة البوسفور وهو مقرٌّ جلالة السلطان الآن بناه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٣ وأتمه السلطان عبد العزيز، أنفق فى ذلك بضعة ملايين من الجنيهات وهو عدة أقسام مبنية بالرخام الأبيض المجلوب من مرمرا وقد نزل الذهب فى نوافذه وأبوابه.

ويعدُّ قصر طوله بغجه من عجائب الأبنية فى العالم بما يحويه من الأساطين المنقوشة والرخام المحفور والنقوش الجميلة المزخرفة بما يشبه قصر فنيس القديم. وبين يدى هذا القصر من ناحية البوسفور رصيف من الرخام طوله نحو ٦٠٠ متر تتخلله مماش تؤدى إلى الشاطئ ويحدُّ الرصيف أساطين ضخمة عليها أقواس مذهبة بنقوش بارزة وأبواب القصر بيضاء مذهبة. فى بعض أطرافه برج للساعة يبدو للناظر عن بعد، وبجانبه مسجد خاص يسمى جامع الوالدة يصلى فيه السلطان. وفى سقوف طوله بغجه نقوش مذهبة تدل على ما أنفق فى سبيلها من الأموال

يقال إن الذى تولى نقشها ساشان الفرنساوى. وفيها من الثريات أو منائر البللور عدد كبير شمعات الواحدة منها ٢٥٠ شمعة وألواح من البلور مساحة الواحد ٣٠ مترًا مربعًا ومواقد الاستدفاء من البورسلين المذهب وفيه معرض للصور القديمة جميل وثمين. وأما الصالون فإنه من أفخم ما جادت **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٧)** به قرائح البشر وفيه يحتفل العثمانيون كل عام بتقبيل يدى جلالة السلطان في عيد الأضحى فضلاً عن قاعة الرقص وغيرها من القاعات الواسعة والحمام ومعرض الصور الحديثة والمصنوعات الجميلة.

ويقال على الجملة أن الناقد يرى فى بناء هذا القصر بذخًا وسخاءً أكثر مما يرى نحافة ودقة بخلاف قصر چراغان

قصر چراغان

هو أجمل قصور السلطنة بناه السلطان عبد العزيز سنة ١٨٧٤ بين بشكطاش واورته كوى على ضفة البوسفور ويمتاز بجماله ودقة الصناعة في نقشه وهندسته وفيه كان يقيم السلطان مراد محجوراً عليه فى زمن السلطان عبد الحميد ولم يكن يجرأ أحد على المرور بجانبه والتطلع إليه خوفًا من التهمة. وقد جعلته الحكومة الآن مجتمعًا لمجلس النواب وسيجتمع به للمرة الأولى فى

أول جلساته للعام المقبل.

وهناك قصور سلطانية أشهرها قصر بكار بك على شاطئ البوسفور من جهة آسيا بناه عبد العزيز سنة ١٨٦٥ وسراى تكفور فى إستامبول وغيرها. وقد آن لنا أن نتقدم إلى وصف سراى يلدز فإنها أشهرها جميعاً وأصبح الناس يتشوقون لمعرفة مخبآتها وتحفها بعد هذا الإنقلاب.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٨)

سراي يلدز

ليست هذه السراى قصراً واحداً فخيماً كما يتبادر إلى الذهن وإنما هى عدة قصور قد لا يرى فى أحدها فخامة ما يراه فى قصر طولمه بغجه أو الجمال الذى يراه فى قصر چراغان. وإنما هى هضبة كبيرة واقعة وراء محطه اورته كوى فوق قصر چراغان تكتنفها الأودية، وقد أنشئت فيها الحدائق والبساتين والبحيرات وبنيت فيها قصور تتفاوت قدراً وجمالاً وهى عديدة ومتفرقة بين الخمائل والغابات على غير نظام وليس فى وصف هذه القصور كثير مما يدهش القارئ، ولكن العبرة بما هنالك من المخبآت الغريبة التى تواترت الأقوال بشأنها واختلفت الروايات عنها، وقد أتيح لنا دخول تلك القصور فى فرصة مناسبة

فاستطلعنا أحوالها وإليك خلاصة ذلك:

إن البقعة التى أقاموا فيها قصور يلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير أكثرها غابات كثيفة الأشجار بينها حدائق غناء وبحيرات تجرى فيها القوارب وتقسم بجملتها إلى قسمين كبيرين:

(١) الحديقة الداخلية. (٢) الحديقة الخارجية.

وليلدز باب خارجى كبير تدخله المركبات إلى بقعة فيها طريقان أحدهما إلى اليسار يؤدى إلى باب الحديقة الداخلية والآخر إلى اليمين يؤدى إلى طريق الحديقة الخارجية، وفى كل من الحديقتين قصور وأبنية سيأتى ذكرها.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٢٩)

الحديقة الداخلية ومسارح الطير

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبير محاط بسور عال أشبه بأسوار الحصون منه بالحدائق يفصله عن الحديقة الخارجية. يدخل إلى الحديقة الداخلية من باب كبير مذهب هو باب السراى المؤدى إلى أهم القصور الداخلية. وهى قصر المابين الصغير مسكن السلطان المخلوع وقصر جيب وقصر مالطة وقصر

جهان نما ومعرض الحيوان. فهذه القصور متقاربة كل منها يستطرق إلى الحديقة الداخلية. وفى الحديقة المذكورة بحيرات تجرى فيها القوارب. ومسارح للطير هى عشرات من الغرف المتقنة مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصقة لجدار الحديقة الشرقى. ولها واجهات من الزجاج وشبابيك من الأسلاك وبعض الغرف كلها من الزجاج. يسرح فيها الحمام كل نوع فى غرفة أو بضع غرف متقاربة وبينها الحمام الأبيض والأسود والمرقط وذات العرف الطويل أو الذيل العريض على اختلاف الأجناس. ولها فى مسارحها مجالس تأوى إليها وتبيض أو تفقص فيها على أبدع نظام. ويلى مسارح الحمام غرف لتربية الأزهار الشتوية التى يضرُّ بها البرد مصنوعة من الزجاج المضبوط التماساً للدفء. ويلى ذلك أقفاص فيها بنات آوى أو بعض الكلاب الضخمة. وفى بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات فيها مواقف للخيل فى كل موقف اسم الجواد الذى كان يقف فيه.

وفى وسط هذه الحديقة مسارح للحمام غير ما فى أطرافها كأن السلطان المخلوع كان مولعًا بمعاشرة هذا الطير الوديع ولعًا كثيرًا، وذلك من جملة غرائب أطواره وتناقضها. وأكثر أشجار هذه الحديقة الصفصاف والدلب والسرو والخروع والحور والتوت. وفى

غربيها أقفاص للعصافير من الكنار والحسون ونحوهما، وفى جنوبها مسارح للطاووس وأمثاله من الطيور الجميلة وأخرى لطيور الماء تسبح فى بحيرات صغيرة، وفى الحديقة بالقرب من القصور طرقات مرصفة بالأسفلت عليها نقوش بشكل حدوة الفرس التى يتفاءل الناس بها.

قصر جهان نما

وفى هذه الحديقة قصر جهان نما وهو صغير لكنه فى غاية الإتقان، يشرف على البوسفور إشرافًا واسعًا. يصعد إليه بسلم من الرخام إلى دار مفروشة بالبسط تستطرق إلى غرفتين جانبيتين وعلى الجدران صور زيتية متقنة بينها صورة الجامع الحميدى وصور **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٠)** بعض أجزاء الحديقة الداخلية من جملتها صورة جزء من البحيرة على ضفتها الأنوار والأشجار. وجدران الغرف وسقوفها ملونة ألوانًا زاهية أكثرها الأحمر. وقد طليت الأبواب والأفاريز بالذهب وأرخيت عليها الستائر الحريرية من كرانيش مذهبة. وخرجنا من باب فى صدر الدار إلى شرفة أشرفنا منها على البوسفور وما يحف به من الخمائل والمنازل، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى فى مثل تفصيلها فرشها من المخمل العنابى وفى دارها نظارتان

مقربتان (تلسكوب) كل منهما مرتكزة على طاولة ينظر بهما إلى البوسفور وما يليه.

وفوق هذه الطبقة السقف القرميدى بشكل الزاوية وأكثر سقوف الآستانة بهذا الشكل يستطرق إليه بسلم سرى وفيه غرف صغيرة مقفلة كأنها مخابئ سرية.

قصر چيت

سمى بذلك لأنه مبطن بالأنسجة بابه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يعدُّ منها لأن بناءه من جملة أبنيتها وقد يدخل إليه منها بباب آخر سيأتى ذكره. والقصر المذكور مؤلف من عدة غرف كبيرة مبطنة جدرانها بالأطلس كل غرفة بلون خاص ونقش خاص. فيمتاز هذا القصر بذلك وبما علق على جدرانه من الخرائط الجغرافية البارزة تمثل فيها البلاد تمثيلاً مجسماً بما بها من الجبال والأودية والبحور. وكلها من صنع مهندسين عثمانيين اسم كل منهم على الخريطة التى رسمها. وفى كل غرفة بضع خرائط موضوعة فى إطارات ثمينة ومعلقة على الجدران ربما زاد عددها كلها على خمسين خريطة فى جملتها خريطة البوسفور وخرائط الروملى والأناطول والآستانة والبحر الأسود. وأهمها خريطة تمثل الكعبة وما جاورها بغاية الإتقان موضوعة فى القاعة الكبرى

(الصالون).

ولهذه القاعة مزية فضلاً عن كبرها وكثرة ما فيها من الخرائط المتقنة والثريات، أن فى جدارها الأيسر باباً سرياً إذا أقفل اختفى وهو يستطرق إلى المابين الصغير كان السلطان المخلوع إذا أراد مقابلة أحد هناك خرج إليه من ذلك الباب بدلاً من مروره بباب الحديقة الداخلية إلى الخارج حتى يدخل من باب هذا القصر. ورأينا فى بعض الغرف خزائن من خشب أسود منزلة بالذهب.

ومن جملة أبنية يلدز معرض الحيوانات فيه أنوا ع من الطيور وغيرها محنطة لا شىء **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣١)** من الغرابة فيها . وكذلك قصر چادر وقصر مالطه فنكتفى بالإشارة إليها ونعمد إلى تفصيل ما شاهدناه فى المابين الصغير مسكن السلطان المخلوع فإنه أدعى إلى الاهتمام.

المابين الصغير أو مسكن عبد الحميد

هو أول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية إلى يمينه. وليس هو بالقصر الفخيم. يرقى إليه على بضع درجات بسيطة ومدخله باب اعتيادى يؤدى إلى فسحة صغيرة ومنها إلى الدهاليز والغرف على غير نظام. ولم نستطع تمييز هندسة ذلك

البناء لكثرة ما فيه من الدهاليز والماشى والغرف المستطرقة بعضها إلى بعض. ولذلك فلا نقدر أن نرسمه للقارئ فنكتفى بذكر أهم ما شاهدناه فيه.

أول شيء استلفت انتباهنا عند دخولنا منضدة صغيرة من الرخام فى الفسحة عليها زجاجة فيها ماء كالدواء، قال الرجل المولج بشرح ما نراهُ أن الذين أتوا لتبليغ عبد الحميد الخلع وجدوا هذه الزجاجة هناك. وعلموا بعد ذلك أنها تحوى عقاراً مقوياً للقلب لأنه أصيب بصدمة عصبية فى ذلك اليوم على أثر ما أصابه من الفشل والخوف فوصفوه له.

وهناك غرفة واسعة فيها مائدة كبيرة هى غرفة الطعام فى أرضها سجادة واحدة نقشها مثل نفس السقف تماماً وفيها خزائن (بوفيه)، وموقد للتدفئة. وهذه المواقد لا تخلو منها غرفة فى الآستانة لشدة البرد فى فصل الشتاء ولكنها تختلف قيمة باختلاف المادة المصنوعة منها وهى هنا من البورسلين الأبيض المذهب وعليها حرف (H) ومن جميل ما فى هذه الغرفة أن أحد البوفيين آلة موسيقية كالبيانو دقيق الصنعة أداها الإمبراطور غليوم لصديقه السلطان عبد الحميد. ولما بلَّغوه خبر الخلع كان جالساً على كرسى فى هذه الغرفة.

ومن جملة ذلك القصر غرفة فيها طاولة للكتابة عليها أوراق ومحابر وأقلام كأنها محل الشغل أو المكتب شاهدنا فيها خزانة قصيرة أشار دليلنا إليها وقال: **«في هذه الخزانة وجدوا أوراق على كمال»** وهي التقارير التي قدمها إلى عبد الحميد ضد جمعية الاتحاد والترقي. ورأينا هناك كرسياً وطاولة من زجاج خالص قال: **«إن عبد الحميد كان يجلس على هذا الكرسي إذا اشتدت كهربائية الجو وتكاثرت الصواعق لعلمه أن الزجاج (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٢) موصل رديء للكهربائية فيأمن أن يصاب بالصاعقة!»**.

ورأينا في غرفة أخرى خزانة وجهها من بلور صاف وهي مملوءة بالأسلحة النارية بينها أنواع من المسدسات المتقنة وفيها المذهب والمرصع على اختلاف الأحجام من الكبير الذي لا تحيط به اليد إلى الصغير الذي يسعه الجيب. وفيها بعض الخناجر ونحوها وقد ترتبت هذه الأسلحة في تلك الخزانة ترتيباً هندسياً جميلاً.

ورأينا كثيراً من خزائن الحديد لوضع النقود وكثيراً من أصناف البيانو وفي كل غرفة ترمومتر وبارومتر وساعة. والساعات كثيرة جداً كأن عبد الحميد كان مولعًا باقتنائها إلى حد الهوس، فإنك لا تجد طاولة أو موقفًا أو موقداً أو كونسولاً إلا وعليه ساعة

دقاقة ومنها الفضة والذهب والبورسلين، وفى هذا البناء حمام من الرخامِ كثير الإتقان جرنه وحنفياته مذهبة.

وقد أدهشنا بنوع خاص كثرة الخزائن فى الدهاليز وغيرها فإنها تعدُّ بالعشرات من الخشب أو المعدن وفيها البسيط والمذهب والمطعم وكلها مقفلة. وفى هذه الخزائن كان عبد الحميد يحفظ تقارير الجواسيس وقد استخرجها رجال الدستور بعد خلعه وأخذوا يتفحصونها.

وكثيراً ما كنا نسمع أن عبد الحميد لا ينام يومين متواليين فى غرفة واحدة أو هو يخفى محل نومه عن كل إنسان ولم نكن نتصور ذلك فتبين لنا بعد مشاهدة هذا البناء أنه لم يكن ينام على الأسرة وإنما كان رقادهُ على مقاعد مستطيلة (كنابيه) فى كل غرفة واحدة منها. وهى من نوع المقاعد التى يستخدمها الإفرنج فى غرف النوم ويسمونها (شيزلون) فكان يتوسد أحد هذه المقاعد ويتغطى بحرام أو نحوه فلا يمكن الاهتداء إلى مكانه.

ورأينا غرفة كبيرة مقطوعة بحاجز من زجاج بحيث يتكوّن بذلك القطع حجرة صغيرة داخل تلك الغرفة الكبيرة بابها من زجاج. وفى هذه الحجرة آلات النجارة وأدواتها من البنك إلى الفارة فالمنشار فالشاكوش فالإزميل. بل هناك أصناف من

المناشير والأزاميل والشواكيش والمناقير على اختلاف الأحجام والأشكال بين ما قبضته من الخشب أو العاج أو الأبنوس أو نحوه. وعلى البنك قطع من الخشب (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٣**) كأنه كان قد بدأ يحفرها. ويظهر من مجمل هذه الحجرة أنه كان يشتغل فيها بالحفر واصطناع الأدوات الصغيرة كالعلب والبراويز ونحوها. وفى هذه الغرفة وجدوا أوراق مالية قيمتها ٥٠٠ر٠٠٠ جنيه.

وكان المتواتر على الألسنة أن عبد الحميد إذا خرج للسلاملك أو للصلاة تدرَّع خوفًا على حياته وكنا نستبعد ذلك حتى شاهدنا درعه في بعض الغرف، وهى عبارة عن دراعة (صدرية) لها صدر وظهر كلاهما من فولاذ بشكل صفيحة مقوسة وقد كسيتا بنسيج من الكتان الأبيض كان يلبسهما تحت أثوابه.

وأغرب ما رأيناهُ فى بعض الغرف صورة زيتية معلقة بالحائط طولها نحو متر وعرضها ٧٠ سنتيمترًا قد أرخى عليها سترٌ أزحناه فإذا هى تمثل قاربًا بجانب الشاطئ قد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم ألبسة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون. وفى يدى كل منهم آلة موسيقية من الناى أو العود أو المزمار يضربون ويعزفون وهم فى حال عربدة أو

سكر. وبين أيديهم على الشاطئ نحو عشر نساء عاريات يرقصن أو يتخالعن مما يخل بالأدب، قال الدليل: «**إن هذه الصورة أهداها بعض المتملقين إلى عبد الحميد يمثل فيها مدحت باشا ورجاله الأحرار تمثيلاً يحقر دعواهم، يريد أنهم يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويهًا على العقول وهم بالحقيقة يريدون الخروج عن الآداب الدينية والاقتداء بالنصارى فى خلاعتهم وسكرهم**». ويا حبذا لو عرفنا صاحب هذه الهدية النفيسة!.

ولم نشاهد فى هذا المابين شيئًا من التحف أو المجوهرات لأنهم نقلوها فى جملة ما نقلوه من النقود التى وجدوها. لكننا رأينا تمثالاً طوله نصف متر يمثل سفينة بخارية تدور بدولابين جانبيين وهو مصنوع من الذهب ومرصع بالأحجار الكريمة. فوقه علم عثمانى هلاله من الماس وأرضه من الميناء الحمراء. وحبال السفينة مرصعة بأحجار مختلفة الألوان والأقدار.

وأرشدنا الدليل إلى الغرفة التى كان يستقبل بها تحسين باشا الباشكاتب أو غيره من الخاصة وهى بسيطة وفى صدرها لوحة عليها كتابة بالذهب هذا نصها: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}(١)، وبجانبها لوحة أخرى عليها: «**أمان يا رسول الله**».

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٤) وبالجملة أن غرف

(١) الآية : ١ من سورة الفتح .

المابين الصغير كلها مفروشة بالسجاد الثمين وسقوفها مزخرفة ومذهبة، ومنه يستطرق إلى دار الحريم وهى مقفلة لا يؤذن فى الدخول إليها ولكنهم أرونا الباب الموصل إليها فإذا هو مرآة واحدة جعله عبد الحميد كذلك حتى إذا أراد الدخول فيه كان على بينة ممن قد يكون وراءه من لص أو غيره.

المابين الكبير

أما الحديقة الخارجية ففيها قصور أهمها قصر المابين الكبير وقصر مراسم والقصر الجديد (يكى كوشك). فالمابين الكبير واقع خارج باب الحديقة الداخلية بالقرب من مدخل يلدز الخارجى ويشرف على الجامع الحميدى وهو مؤلف من قاعات كبيرة لاجتماع الوكلاء أو الوزراء أو السفراء فى وسطه أكبر القاعات ربما زادت مساحتها على ٣٠ متراً أو ٢٥ متراً فى ٢٥، وفى وسطها ساعة كبيرة من الفضة قائمة على قاعدة مربعة ولها أربع مين واحدة للساعات وأخرى للترمومتر والثالثة للبارومتر والرابعة لأوجه القمر. أرضها مكسوّة بسجادة واحدة. وهى تستطرق إلى سائر غرف القصر ولكل غرفة فرش خاص بلون خاص. إحداها تسمى سرداب فاخرة الرياش وفيها سجاد ثمين وأعمدة من المرمر المذهب. وإحدى الغرف مرصفة بالخشب المطعم بالعاج وفى

إحداها موقد أعمدته من زجاج أحمر. ويصعد إلى الطبقة العليا بسلم أعمدة درابيزينه من الزجاج ودرجات السلم من الخشب المطعم.

وفى الطبقة العليا عدة كونسولات كبيرة رخامها من المرمر المجزع وفى صدر القاعة الكبرى إلى كل من جانبى الباب المستطرق إلى الغرف الأخرى صورة زيتية على طول الحائط وفى قفا هذا الحائط من الجانب الآخر صورتان أخريان وهذه الصور زيتية جميلة إحداها تمثل عبد العزيز والأخرى السلطان محمود والاثنتان الباقيتان تمثلان السلطان عبد المجيد راكبًا وراجلاً. وهناك غرفة المائدة فيها بوفيان مذهبان ضخمان وحنفية من رخام مذهب للغسل على شكل جميل. ولهذا المابين نوافذ تشرف على الجامع الحميدى وعلى الطريق المؤدى إليه من المابين الصغير. فكان الأعيان والسفراء يجلسون يوم السلاملك فى القاعات المطلة على ذلك الطريق ليتمكنوا من رؤية الموكب الشاهانى وأكثرهم يقفون فى حديقة هذا القصر بالجهة المطلة على الطريق أو صحن الجامع.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٥)

قصر مراسم

هو أفخم قصور يلدز بناه عبد الحميد احتفاءً بزيارة إمبراطور ألمانيا منذ بضع عشرة سنة وأنفق عليه نحو مليوني جنيه وهو واقع فى الحديقة الخارجية يتصل إليه من وراء[1] سور الحديقة الداخلية مسافة طويلة تمرُّ فى أثنائها وإلى يسارك السور وإلى يمينك شبه غابة من الأشجار الباسقة المتعانقة تمثل الطبيعة فى أبسط أحوالها كأنها نامية فى برية لا يد للإنسان فيها.

فإذا بلغت إلى القصر رأيت بين يديه حديقة منظمة الطرقات أشجارها هندسية الأشكال كأن البستانى يتعهدها بالمقراض صباح مساء. فسرنا فى هذه الحديقة إلى باب مراسم وهو فخيم صعدنا إليه على درجات من الرخام إلى فسحة ومنها إلى سلم أعمدة درابيزينه مذهبة يؤدى إلى فسحة يمتد منها إلى كل من الجانبين دهليز إلى جانبيه غرف ربما بلغ عددها ٤٠ غرفة وأهمها إلى اليمين. وفى هذه الغرف الرياش الثمين من السجاد الجميل والستائر المزركشة والمواقد المذهبة والمرايات الكبيرة والساعات على اختلاف أشكالها وأقدارها بينها ساعة على شكل الطير موضوعة على خزانة من الخشب الأسود مُنزَّل بالذهب. وفى بعض

(١) فى الاصل : رواء : والصواب ماانيناه .

الغرف خزائن صغيرة أو هى مواقف للكتب فى بعضها كتاب الجغرافية العمومية لأليزه ركلى فى اللغة الفرنساوية ١٩ مجلداً ضخماً تجليدها أحمر مذهب جميل.

وفى غرفة أخرى كتاب تاريخ تمدن أوربا للعالم الفرنساوى جيزو وفى غرفة أخرى مؤلفات بلوتارخس. غير ما على الجدران من الرسوم فى جملتها صور بعض الجوامع أو بعض أجزائها. وفى إحدى الغرف تمثال غليوم الثانى.

وأفخم غرف قصر مراسم الصالون فإن مساحته ٣٠ متراً فى ١٥، فى أرضه سجادة جميلة كلها قطعة واحدة لونها ذهبى فاتح وسقفها منقوش نقشاً مذهباً فى غاية الجمال. وعلى النوافذ ستائر من الحرير الثقيل تتدلى من (كرانيش) مقوسة الشكل ومذهبة الحواشى. أقبلنا على هذا الصالون من بابه الأصلى فرأينا الحائط إلى يسارنا عليه المواقد بعضها داخل فى الحائط والبعض الآخر بارز وهو من البورسلين الجميل. وبين هذه المواقد أبواب يستطرق بها إلى غرف أخرى من ذلك القصر. وعلى المواقد شمعدانات من الذهب وبجانب كل شمعدان ساعة وبين الأبواب وفوقها صور زيتية جميلة مرسومة على الحائط. ورأينا إلى اليمين الجدار المطل على الحديقة وفيه الستائر وفوقها الكرانيش

(الهــــلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هــ، ج١، ص٣٦) المذهبة كما تقدم. واستقبلنا فى صدر القاعة ثلاث نوافذ ورأينا زاويتى القاعة أمامنا خارجتين يتألف من كل منهما غرفة صغيرة مستديرة فى وسطها طاولة وعلى نوافذها الستائر.

وفى أرض القاعة المذكورة إلى كل من طرفيها طاولة مفضضة عليها سن فيل وهى أكبر سن معروفة إلى اليوم والسنان قُدِّمَتَا(١) هدية لعبد الحميد من راتب باشا والى الحجاز. طول كل منهما متران إلا ربع، وقد زركشتا بالفضة بأشكال الأفيال ووضعتا فى طرفى القاعة متقابلتين يتدلى من رأس كل منهما شبه الطبق من الفضة أو كالقنديل. ويتدلى من السقف ثلاث ثريات كبيرة الوسطى أكبرها.

الجامع الحميدي

بناه عبد الحميد ليصلى فيه وهو على مقربة من المابين الكبير إلى يسار باب يلدز الخارجي. وهو محاط بسور من الدرابزين الحديد يحيط بساحة مكشوفة فيها أطلق الأرمني قنبلته، وبجانب باب الدرابزين الخارجى برج فيه ساعة كبيرة ذات أربعة أوجه. فقطعنا الساحة المكشوفة إلى باب الجامع وقد كتب عليه بماء

(١) فى الاصل : رواء : والصواب ماأتيناه .

الذهب: {إنّ الصّلاةَ كَانَتْ عَلَى المؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}(١) فـدخلنا إلى دهليز أوصلنا إلى باب آخر يطل على المسجد وفوق هذا الباب منقــوش: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}(٢) والداخل من هذا الباب يستقبل المحراب إلى يمينه وقد كتب بجانبه: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}(٣) وسقف الجـامع قبـة قـائمـة على أربعة أسـاطين مكسـوة بالخشب وفـى دائر الجـدران من الأعلى أسمـاء الجلالة والنبى والصحابة هكذا: **«الله ومحمد فى الصدر، وأبو بكر وعثمـان وحسن وسعد إلى اليمين، وعمر وعليّ وحسين إلى اليسار»**، وفوق الباب مقصورتان عليها الشعريات وهما مذهبتان وفى الجدارين إلى الجانبين شعريات للنساء وفى أعلى القبة كتابة بالكوفى فيـهـا **«بسم الله الرحمن الرحيم»** وحول الجـدار قرب السقف آيات مذهبة.

وكان عبد الحميد يركب يوم الجمعة للصلاة فى موكبه الحافل بين باب المابين وباب الجـامع والمسـافـة لا تزيد على كـيلو مـتـر فـيمشى بين يديه الوزراء والمشيرون ينكصون رءوسهم تخشعًا وتهيبًا وهو وراءهم يسوق مركبته بيده. ويمشى إلى جانبى المركبة جماعة الياوران والسرياور فيقبض بعضهم على عجلات المركبة

(١) الآية: ١٠٣ من سورة النساء. (٢) الآية: ٧٣ من سورة الزمر.
(٣) الآية: ٣٧ من سورة آل عمران.

يوازنون حركتها (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٧**) خوفًا من أن يجمح الجوادان فيلحق الخليفة أذى، أو هم يتبركون بتسيير الخليفة إلى الجامع أو يتملقون إليه نفاقًا ورياءً.

سرايات الحكومة

ومن قبيل القصور الفخيمة فى الآستانة سرايات الحكومة وأجملها سراى السر عسكرية قرب جامع با يزيد وبينهما ساحة إتميدان (غير آتميدان) كانوا يشنقون فيها الإرتجاعيين. والسراى قائمة فى ميدان واسع يستعرض فيه الجند قد كتب على بابه فى الوسط **«دائرة أمور عسكرية»** وإلى اليسار {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}(١) وإلى اليمين: {وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}(٢)، وفى بعض جوانب ميدان السر عسكرية برج شاهق كالمنارة الكبيرة يرصدون منه الآستانة وينتبهون منه للحريق إذا وقع. والسراى واسعة الأطراف طولها ٤٣٠ مترًا وعرضها ٢٨٠ مترًا وهى قائمة على هضبة تشرف على سائر أجزاء الآستانة.

ومنها الباب العالى ويراد به أهم نظارات الحكومة دخلنا إليه من باب كبير مصنوع من الرخام وفوقه الطغراء يقال له باب همايون.

---

(١) الآية: ١ من سورة الفتح. **(٢) الآية: ٣ من سورة الفتح.**

وفى الباب العالى سراى الصدارة العظمى ونظارة الداخلية والخارجية والنافعة (الأشغال العمومية). وأما سائر النظارات فنظارة الخاصة بقرب سراى طوله بغجه (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج١، ص٣٨**) ونظارة البحرية فى قرن الذهب، وهناك الترسانة لتصليح السفن وهى كبيرة جداً. ونظارة الحربية فى السر عسكرية ونظارة العدلية فى ميدان أيا صوفيا وقد صارت لمجلس النواب ونظارة المالية فى ميدان با يزيد ونظارة المعارف بالقرب من جامع محمود باشا.

وسنأتى على وصف متاحف الآستانة ومعارضها وسائر أحوالها فى الهلال القادم.

* * * *

٥ - متاحفها ومعارضها

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٦٧) ليس فى الآستانة متاحف تستحق الذكر بالقياس على متاحف العالم المتمدن لحداثة عهدها بالتنقيب عن الآثار والاحتفاظ بها ولكنها تمتاز بآثار فيها لا وجود لها فى سواها. وبمخزن فى سراى طوب قبو فيه تحف وجواهر لا مثيل لها فى العالم، وليس هو من قبيل المتاحف المعروضة للناس لكننا وفقنا إلى رؤيته فأحببنا نشرهُ للقراء.

فإذا عددناه متحفًا كانت المتاحف والمعارض فى الآستانة خمسة وهى:

١ - المتحف العثمانى. ٢ - متحف چينلى.

٣ - متحف طوب قبو. ٤ - معرض السلاح.

٥ - معرض الإنكشارية.

(١) المتحف العثماني

واقع فى مكان السراى القديمة قرب سوق چشمه أنشأوه سنة ١٨٨٥ وزادوا عليه قاعتين فرغوا من بنائهما فى العام الماضى. وقد عرضوا فيه ما اجتمع عندهم من الآثار التى عثروا عليها فى صيدا وسائر فينيقية والأناطول وغيرها من آثار الحيثيين والآشوريين والمصريين واليونانيين وفيها قطع لا مثيل لها فى العالم أهمها ناووس كبير من الرخام يسمونه (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ،

ج٢، ص٦٨) ناووس الإسكندر أو قبره، وجدوه في صيدا سنة ١٨٨٥ وحملوه إلى الآستانة وعيون العالم شاخصة إليه لما فيه من دقة الصناعة.

يسمونه ناووس الإسكندر لأن على ظاهره نقوشًا تمثل معركة الإسكندر الكبير مع داريوس في أربلاء وليس هو قبره لأن الإسكندر لم يدفن في صيدا. فلعله مدفن أحد قواده أو رجال دولته. وقفنا عند هذا الناووس طويلاً وقد أخذ جماله بعقلنا ولو وقفنا أيامًا ونحن نتأمل نقشه ما مللنا الوقوف ولا اكتفينا من التأمل، وهو قطعة واحدة من الرخام الأبيض طولها نحو ثلاثة أمتار فوقها غطاء من الرخام وكلاهما منقوش بدقة ولباقة.

وقد أدهشنا فيه على الخصوص النقش الممثل لواقعة أربلاء فإن فيه عشرات من الفرسان والأفراس لكل منها موقف خاص وهيئة خاصة يراد بها حالة من الأحوال التي يقتضيها النزال من الهجوم والدفاع والغضب والخوف والرجاء وغيرها. ويمتاز رجال الإسكندر بألبستهم وقيافاتهم عن رجال داريوس، فاليونانيون على رءوسهم الخوذ والفرس عليهم شبه الخمار وألبستهم كالدراعات القصيرة، وإنك ليبهرك ما تراه من الملامح الواضحة في كل رجل وفي كل فرس مع صغر تلك الصور، فترى الظافر وقد شهر

الحسام بيده وبدت أمارات الظفر على وجهه ويكاد الشرر يتطاير من عينيه. وبين يديه المغلوب على أمره وقد بان الفشل فى سحنته، وتجد المصاب بنبل فى صدره أو جنبه قد تجعدت أَسِرَّتُهُ وبانت علامات التألم فى جبينه وعينيه. والظفر فى مجمل الصورة بجانب الإسكندر فترى بعض رجال داريوس قد وقعوا عن أفراسهم وداستهم سنابك الخيل وآخرون طعنوا وهم على خيولهم وقد استفرس اليونان وما فيهم إلا من شهر الحسام أو أوتر القوس. ويظهر لك وهو يصوب السهم أنه يسدده تسديداً واضحاً.

ناهيك بمواقف الأفراس بين قائم على رجليه وقد انتفخ منخراه وحملقت عيناه حتى لتتوهم أنك تسمع صهيله وتخاف أن يزل حافره فيقع فارسه عنه. على أنك تتحقق ثبوت ذلك الفارس مما تتوسمه فى ساقهِ من الجهد الظاهر بانقباض عضلاتها حتى توترت العروق وبرزت.

ورأينا فى بعض جوانب الناووس صورة تمثل خروج القوم للصيد وقد أطلقوا كلابهم وفهودهم وأرسلوا أفراسهم. فوثب أسدٌ على أحد الفرسان حتى أنشب براثنه بكتف (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٦٩) الفرس وأغرس نابيه بصدره، وقفنا عند هذا المنظر ساعة ونحن نتفرس بما على وجه الفرس من

مظاهر الألم والغضب وكأنه يحاول النهوض على قدميه لعله يفلت من براثن الأسد. والأسد قد كشر حتى بانت أنيابه وقد أنشبت فى صدر الفرس فمزقت الجلد وبان اللحم من تحته. وفى وجه الأسد وعينيه ملامح الظافر الكاسر وترى أظافره قد مزقت كتف الجواد. وكأنك ترى اللحم يقطر دماً من خلال الجلد الممزق.

ورأينا على جانب آخر من الناووس صوراً أخرى بعضها يمثل امرأة حزينة ضاع ابنها أو قتل زوجها وتكاد تسمع صوت نحيبها. والظاهر أن تلك النقوش كانت فى أول أمرها أقرب إلى تمثيل الطبيعة بقددٍ أو أسلاك من ذهب أو نحوها مثلوا بها أزمة الخيل وأوتار الأقواس وقنا الرماح وقد ذهبت لطول عهدها. ويظهر أيضاً أن بعض تلك الصور كان ملوناً بألوان يقربه من الطبيعة كالأحمر يمثل الدم فى الجروح ونحو ذلك. وبالجملة أن هذا الناووس أعجوبة من أعاجيب الإتقان الفنى ولا نظن الصناعة بلغت إلى أتقن من ذلك من أقدم أزمانها إلى الآن.

وفى المتحف ما عدا ذلك كثير من الآثار البيزنطية والفارسية والفينيقية والرومانية لا بأس بها لكنها لا تذكر فى جانب ناووس الإسكندر. وهناك تماثيل حثية وجدوها فى زنجرلى وناووس من رخام أسود فينيقى عليه كتابة هيروغليفية يقال أنه كان فيه جثة

مدفونة سنة ٢٠٠٦ ق.م. وفى الطبقة العليا من المتحف صور دينية مسيحية مرسومة بالفسيفساء (موز ايك) بينها صور قديسين عليها كتابة يونانية. ورأينا في إحدى الغرف العليا عالمًا أثريًا يحل رموز بعض القرميدات الآشورية وعليها كتابة بالحرف المسمارى قرأ لنا بعضها فإذا هى صكوك وعقود وقوائم حساب.

(٢) متخف چينلي

هو تجاه المتحف العثمانى وأقدم منه واجهته مغطاة بالفسيفساء الزرقاء وقد كتب عليه أن محمد الفاتح بناه بعد الفتح سنة (٨٦٠هـ) ثم أصلحه مراد الثالث. ولعله كان مبنيًا وأدخل الفاتح تغييرًا فى بنائه. وهو مؤلف من طبقتين ويحتوى على آثار إسلامية أكثرها عثمانى فى جملتها صورة خير الدين باشا (بربروسا) على حجر. وكثير من أجنحة الأبواب الإسلامية والسجاد الثمين والأدوات التاريخية بينها كرسى كان يجلس عليه **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٠)** السلطان سليم الثالث كثير الشبه بكراسى هذه الأيام الاعتيادية ظهره مكسو بالمخمل الأحمر. وكرسي آخر لمحمد الفاتح أكبر من ذاك مكسو بالمخمل وحول قوائمه شراريب القصب وله ذراعان يستند الجالس عليهما.

ورأينا كثيراً من الأدوات الفلكية كالإسطرلاب والكرة وفيها

كرة من نحاس عليها رسم الأرض يقال إنها من عهد السلاجقة. وركاب للخيل من الذهب وصورة السلطان سليم الثالث بالزيت. وهى فى اعتبارنا أول صورة حقيقية لسلاطين آل عثمان لأنهم لم يكونوا يأذنون بتصويرهم من قبل. ومصباح من البللور عليه أشعار منقوشة بالمينا من زمن السلطان محمود الثانى.

(٣) متحف طوب قبو

ونريد به مستودع التحف والجواهر المخزونة فى سراى طوب قبو. وهى عبارة عما بقى من تحف الفرس والعرب والروم والأتراك تجمعت بتوالى الأجيال من الغنائم والهدايا. وكانت هذه التحف محفوظة فى صناديق بسراى طوب قبو فأمر السلطان عبد العزيز بإخراجها وترتيبها فوضعوها فى واجهات من زجاج بالبناء الذى كان يقيم فيه امبراطور الروم قبل الفتح العثمانى وهو من جملة تلك السراى، حبسوها هناك وأقفلوا عليها بالأختام فلا يسمح برؤيتها ولا دخول تلك السراى إلا بإذن خاص من جلالة السلطان. وقد صدرت لنا الإرادة السنية بذلك بناء على التماس رئيس مجلس المبعوثان فتفرغنا لدرسها يوماً مخصوصاً وإليك خلاصة ذلك الدرس.

سراى طوب قبو

واقعة بجانب جامع أيا صوفيا والضريخانه على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول وهى عدة أبنية وقصور يتصل إليها من جهات مختلفة ونحن واصفوها كما دخلناها. دخلناها من الباب المواجه لسبيل السلطان أحمد وإذا أعدت النظر على صورة ذلك السبيل فى الهلال الماضى رأيت الباب فى طرفها إلى اليسار وهو أول أبوابها من هذه الجهة ويقال له «**باب همايون**». دخلنا فيه إلى بقعة مسورة أشبه بطريق خربة فيها أشجار ضخمة من السرو. وإلى يسار المدخل بلصق السور بضعة قبور حجارتها حمراء بينها قبر قسطنطين الذى غلبه العثمانيون. ووراء ذلك إلى اليسار باب متحف السلاح، وسنعود إليه.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧١) اجتزنا تلك البقعة وطولها نحو ٤٠٠ متر إلى باب آخر هو الأوسط ويسمى «أورته قبو» قد كتب على عتبته العليا «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**» وعلى جدرانه من الداخل أسلحة عثمانية قديمة بينها بلطات وبنادق قد نزل فيها الذهب على أشكال مختلفة منها على البلطات «هو الفتاح»، دخلنا هذا الباب إلى ساحة أخرى أشبه ببستان مهمل فيه أشجار ضخمة أكثرها من السرو طولها إلى الباب الثالث نحو ٣٠٠ متر. فى

آخرها إلى اليسار بناء يممنا نحوه فوجدناه غرفة كبيرة مملوءة بالأوراق المتراكمة هى سجلات الحكومة متروكة بلا نظام تشبه الدفترخانه لكن بدون ترتيب، وقد أصاب الحريق بعض أطرافها. ولا يظهر أن الحكومة تحتاج إلى شيء منها. وتأملنا هذه القاعة فإذا هى قبة كبيرة اسمها «قبة آلتى» كان يجتمع فيها الوزراء، وفى أعلى الحائط المقابل شبه شباك بارز من النحاس كان يجلس السلطان فيه ليشرف على أعمال الوزراء وهم مجتمعون.

ومن أدلة احترام هذه القاعة فى عهد السلاطين القدماء أن الوزير كان بعد دخوله باب اورته قبو يتجه نحو هذه القبة وقبل الوصول إليها بمائة متر يسجد عند مصطبة مستديرة فى وسطها سروة ضخمة سجود الاحترام، ثم يمشى خمسين متراً ويسجد مصطبة أخرى مثلها ويسجد المرة الثالثة عند بابها ثم يدخل.

وتنتهى هذه الساحة بالباب الثالث واسمه «آقالر قبوسى» أى باب الخصيان (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٢**) البيض. وبين يديه مغرس العلم فى حفرة خاصة بذلك، وهو باب فخيم نقش فوقه: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}(١) وفى قفا هذا الباب من الداخل أسماء السلاطين مكتوبة بالذهب وبينها

---

(١) الآية: ٣٠ من سورة النمل.

طرتان. ويتصل من هذا الباب إلى أبنية كثيرة وقصور جميلة. أولها مما يلي الباب بناية يسمونها «العرض» كان السلطان يجلس في قاعة منها كبيرة لمقابلة من يأتيه لعرض شيء. صعدنا إلى تلك القاعة فوجدنا في صدرها مجلسًا كالسرير طولهُ نحو أربعة أمتار كان يجلس السلطان في صدره على مقعد ثمين ويجلس العارضون بين يديه جثوًا. وفي الحائط بجانب السرير حنفية ينطلق منها الماء بشدة وله خرير قويٌ فكانوا يطلقونه وهم مجتمعون حتى يمنع من بالباب من الخدم أو غيرهم من سماع المداولة.

وقد أبدلوا هذه الطريقة من التكتم بعدئذ باحتياط آخر. وذلك أنهم استخدموا في أمثال هذه الأحوال خدمًا صمًا.

وبالقرب من هذا البناء بناءٌ آخر فيه مكتبة نفيسة كُتبها مرتبة في خزائن وكلها خطية ومجلدة تجليدًا عربيًا وعلى كل كتاب اسمه واسم مؤلفه وهي مقسمة حسب الفنون والمواضيع وعدد مجلداتها نحو ٣٫٠٠٠ مجلد.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٣)

تحف آل عثمان

ويعد هذا البناء نحو اليمين قصر قسطنطين وهو السراي القديمة التي كان إمبراطور الروم يسكنها وفيها التحف التي نحن

فى صددها . فلما أشرفنا عليها تقدم رئيس الخصيان المنوط به أمرها ففضّ ختمًا كان على بابها بعد أن تفرّس فيه وتحقق سلامتهُ وأذن بدخولنا فاستوقف نظرنا لأول وهلة لمعان الجواهر ويهرنا ما لقيناهُ فى ذلك المكان من التحف التى لا مثيل لها فى العالم. ولا يسع المقام شرح كل ما حواه ذلك المعرض فنأتى بأهم ما فيه كما رأيناه.

فالمعرض المذكور مؤلف من ثلاث غرف كبيرة فوقها ثلاث غرف مثلها حول جدرانها وفى وسطها الخزائن والمواقف مسيجة بصفائح الزجاج وفيها التحف متراكمة أو متراصة لكثرتها وضيق المكان عنها . ولو أريد عرضها كما يفعل الإفرنج فى متاحفهم لاقتضى لها بضع عشرة غرفة مثل هذه ـ وأهم تلك التحف: ـ

(١) **عرش إسماعيل شاه:** إنه أول ما استلفت انتباهنا عند دخولنا المعرض وهو كرسىٌّ يتألق بالجواهر قائم فى وسط الغرفة الأولى ضمن خزانة من الزجاج. هو عرش إشماعيل شاه ملك الفرس غنمهُ منه السلطان سليم الفاتح سنة ١٥١٤م وكان قد حمل عليه حتى حصره فى تبريز ففرَّ منها إسماعيل شاه وغادر معسكره بما فيه من **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٤)** النساء والمجوهرات والتحف والأموال فاستولى عليها السلطان

سليم والعرش المذكور في جملتها. واستعاض الفرس بعده بعرش فتح على شاه ثم عرش الطاووس وكلاهما مرصع بالجواهر الثمينة.

وعرش إسماعيل هذا كرسي من الذهب الخالص له أربع قوائم وقد رصع هو وقوائمه باللؤلؤ والألماس والزمرد، شكلهُ إهليلجي طوله نحو متر ونصف وعرضه نصف ذلك. وظهره بشكل المثلث في وسطه ثم يمتد إلى الجانبين ويلتف قليلاً نحو الأمام بحيث لا يبقى من المحيط إلا مكان يدخل منه الشاه. وكان يصعد إليه فوق كرسي صغير لهُ أربع قوائم محجرة أيضًا فإذا صعد الشاه إليه قعد الأربعاء، وهو يسع رجلاً آخر يجلس معه.

كنار هذا العرش وقوائمه مصنوعة من الذهب وقد رصعت باللؤلؤ صفوفًا اللؤلؤة بإزاء اللؤلؤة في حبال متعددة واللؤلؤة بحجم العدسة الكبيرة لكنها كروية. فاللؤلؤ المذكور مصوغ على الذهب في صفوف مزدوجة الزوج الأول منها عند حافة الكرسي من الأعلى يظهر في الصورة عند التأمل. والزوجان الآخران في الأسفل حول القاعدة. وبين هذين الزوجين صف من الألماس والزمرد والياقوت. وبين القاعدة والحافة العليا مربعات منحرفة من حبال اللؤلؤ أو هي شبكة من تلك الحبال. وفي المربعات المذكورة

بالوسط والمثلثات على الجانبين حجارة كبيرة من الياقوت والزمرد والألماس. وبين الشبكة المذكورة والصفين حول القاعدة زوج رابع من حبـال اللؤلؤ يتـصل بالزوج العلوى عند طرف هذا الكنار بالأمام. غير ما على الطراحة من التطريز على دائرها. واعتبر ذلك بالقوائم فإنها مرصعة بحبال من اللؤلؤ بينها حجارة الألماس والياقوت والزمرد، فإذا حسبنا طول هذه الحبال على الكرسيين الكبير والصغير ربما بلغ طولها خمسين متراً أو ستين.

فاعتبر كم فى المتر الواحد من هذا الحب وهو متلاصق الواحدة بإزاء الأخرى وكم قيمة اللؤلؤة بحجم العدسة الكبيرة إذا تكورت. وأضف إلى ذلك الأحجار الأخرى فى الأخلية بين اللؤلؤ والذهب المصنوع الكرسى منه يتضح لك قيمة هذا الكرسى المالية فضلاً عن قيمته التاريخية.

(٢) **الأبسطة المرصعة:** ذكر المؤرخون فى جملة ما غنمه العرب من المدائن بعد فتحها «بساطًا طوله ستون ذراعًا وعرضه ستون ذراعًا فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار وأرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر... إلخ»، وذكروا لأم الخليفة المستعين بساطًا عليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر، وكنا إذا قرأنا ذلك وقفنا

ننظر في ما يشتمل عليه من المبالغة. فأصبحنا بعد أن شاهدنا أبسطة آل عثمان في سراى طوب قبو لا نستغرب شيئًا من هذا القبيل.

رأينا ثلاثة أبسطة من الحرير معلقة بالحائط داخل خزائن من الزجاج اثنان منها سكريا اللون والثالث زهريةُ (بمبه) طول كل منُها متران وأكبرها عرضه متر ونصف وهي مطرزة باللؤلؤ تطريزًا جميلاً على أشكال هندسية أو طبيعية كما تطرز الستائر بالزوايا والمربعات والمثمنات أو الدوائر والأقواس. لما وقع نظرنا على هذا التطريز حسبناه لأول وهلة زركشة بالحرير على شكل الأغباني. ولما تفرسناه وجدناه تطريزًا باللؤلؤ الجميل المتناسب بحجم اللؤلؤ على عرش إسماعيل شاه وفي البساط الأكبر عدة صفائح من ذهب بحجم الكف بينها صفائح أصغر منها بشكل الكواكب متفرقة وكل منها مرصع بالزمرد والياقوت والألماس بينها زمردات بحجم اللوزة. وفي وسط البساط الزهرى اللون بقعة مستديرة قطرها ٢٥ سنتيمترًا وقد طرزت على شكل جميل بلؤلؤ كبير حجم اللؤلؤة منه نحو البندقة وعدد اللؤلؤ الداخل في هذه البقعة ٦٩ لؤلؤَة.

(٣) درع مرصعة: هي درع مراد الرابع كاملة بالخوذة

والصدرة والزندين والركبتين والكفين والكتفين والساقين. مصنوعة من الفولاذ المذهب صنعًا متقنًا وقد رصع كتفاها وكماها وساعداها ومنطقتها بالألماس. وفى وسط المنطقة الماسة كبيرة تختطف البصر. وهناك أدراع كثيرة مرصعة لسلاطين لا نعرف أسماءهم.

(٤) **ألبسة السلاطين:** رأينا فى إحدى الغرف العليا أثواب السلاطين الرسمية من محمد الفاتح إلى السلطان محمود الثانى ملبسة على أعمدة قائمة فتظهر كأنها على السلاطين وفوقها العمائم بدون رءوس. وعلى كل عمامة ما كان عليها من الحلى والمجوهرات التى كان صاحبها يزينها به فى حياته يختلف شكلها باختلاف السلاطين. وحول خصر كل سلطان المنطقة التى كان يتمنطق بها وفيها خنجره. فالسلاطين المعروضة ثيابهم هناك ٢٤ سلطانًا هذه أسماؤهم:

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٦)

محمد الفاتح (الثانى)	محمد الثالث	محمد الرابع	عثمان الثالث
با يزيد	أحمد الأول	سليمان الثانى	مصطفى الثالث
سليم الأول	مصطفى الأول	أحمد الثانى	عبد الحميد الأول
سليمان الأول	عثمان الثانى	مصطفى الثانى	سليم الثالث
سليم الثانى	مراد الرابع	أحمد الثالث	مصطفى الرابع
مراد الثالث	إبراهيم الأول	محمود الأول	محمود الثانى

ولا يخفى ما فى عرض أثواب هؤلاء السلاطين على هذه الصورة من الفائدة التاريخية فيخيل للواقف أنه يرى جنداً من السلاطين. وإذا قابل بين أشكالها ظهرت الفروق التى حدثت بين الملابس بتوالى الأجيال، على أن الفرق كان قليلاً إلا فى الأزمنة الأخيرة، فثوب كل سلطان جبة تحتها فراجية أو قفطان من نسيج الاسطوفا وحول الخصر منطقة وعلى الأكتاف فوق الجبة العمامة. وكانت العمامة فى أكثر هذه المدة كروية الشكل كما ترى فى ثياب السلطان سليمان.

وإنما يختلف السلاطين بألوان ألبستهم وبما على عمائمهم أو على خناجرهم من الحلى. فالسلطان محمد الثانى أولهم كان ثوبه زهرى اللون مخططه بلا فاصل واضح بين الألوان وعلى قبضة خنجره ثلاث زمردات فى غاية الصفاء والجمال بيضية الشكل طول الواحدة ٤ سنتيمترات مصفوفة صفًا واحداً على طول القبضة مما يبهر النظر. وعلى عمامته حلى يشبه الريشة مرصع بالألماس والزمرد وفى جملة ذلك زمردة أكبر من زمردات الخنجر. وعلى عمامة با يزيد طرة محجرة وعلى عمامة السلطان سليم ريشة محجرة، وكذلك السلطان سليمان.

وبدأ شكل العمامة يتغير من السلطان محمد الرابع. وفى

وسط طرة هذا السلطان زمردة كبيرة. وفى طرة سليمان الثانى زمردتان (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٧**) كبيرتان أكبر من زمردات خنجر السلطان محمد وياقوتة حمراء مساحتها ثمانية سنتيمترات فى سبعة وفوقها لؤلؤتان كل منهما بقدر اللوزة. وإليك صورة عبد الحميد الأول وصورة سليم الثالث وعلى عمامتيهما ما يقرب من ذلك.

(٥) **تمثالان من اللؤلؤ:** رأينا على أحد الرفوف تمثالين صغيرين من الذهب يمثلان ملكًا من ملوك فاس وخادمه طول الواحد نحو ١٢ سنتيمترًا صدر أحدهما لؤلؤة واحدة كبيرة وفخذا الآخر لؤلؤتان، واللؤلؤ إذا كبر تضاعفت قيمته كثيرًا كما لا يخفى.

(٦) **تواليت محجرة:** التواليت فى اصطلاح الإفرنج مرآة تتحرك بين ذراعين قائمين على قاعدة لها أدراج. ويضعونها على طاولة لترى المرأة وجهها فيها وهى واقفة. فشاهدنا مثل هذه التواليت بين تحف آل عثمان قطر مرآتها ٤٠ سنتيمترًا، وطول الطاولة الموضوعة عليها نحو متر. والطاولة بما عليها مرصعة بالألماس فى كل أجزائها. على إطار المرآة والقائمتين والقاعدة، وفى وجوه الأدراج وسطح الطاولة وقوائمها. وكل ما يظهر من هذه التواليت مرصع بالألماس مما يبهر النظر وهى (**الهلال،**

١٩٠٩م/١٣٢٧هـــ، ج٢، ص٧٨) هدية من الإمبراطورة كاترينة لبلطجي باشا في أثناء حرب الدولة العلية والروس على عهد السلطان أحمد الثالث المتوفي سنة ١٧٠٢.

(٧) **عرش السلطان أحمد الثالث:** مصنوع من الباغة وهو مخصوص ليوم عرفة ومرصع بالزمرد والصدف وفي صدره زمردتان كبيرتان بينهما ياقوتة وزمردة فوقها دائرة من ذهب منقوش.

(٨) **ثلاث زمردات:** إحداها بحجم الكف وزنها كيلو غرام ونصف ولكنها ليست تامة الصفاء. والزمردة الثانية كروية الشكل أصغر من هذه. والثالثة إهليلجية الشكل وهما كبيرتان أيضًا وليس فيهما صفاء زمردات خنجر محمد الفاتح.

(٩) **أدوات مختلفة:** شاهدنا هناك طشتًا وإبريقًا من الذهب منزل فيهما مينا أزرق ومرصعين بالألماس والياقوت والزمرد ومواعين كبيرة (سلطانيات) بعضها مملوء زمردًا والبعض الآخر ياقوتًا. وصحونًا فيها معالق محجرة وأباريق محجرة ولؤلؤة مفردة بقدر البيضة الصغيرة. وشيشة (نرجيلة) مصنوعة صنعًا متقنًا بحركة ميكانيكية سرية. حول قرصها تحت الرأس صفيحة عليها تماثيل من الذهب والفضة إذا دخن بها مدخن تحركت التماثيل

حركات رقص أو نحوها. ورأينا مراوح محجرة وسرج فرس ركاباه من الذهب محجران بالألماس والياقوت والسرج نفسه محجر بالزمرد والمرجان. وسرجًا آخر من الذهب مرصعًا وچكمجة (علبة) مصفحة بالكهرباء[1] بأجمل صنع. وصورتى السلطان محمود الثانى والسلطان عبد المجيد بالحجم الطبيعى. وسيف السلطان با يزيد وسيف محمد الفاتح مرصعين ومنزلين بالذهب. وعشرات من الصحون الصينية قالوا لنا أنها من صحون الدولة العباسية عليها نقوش عربية. وهى من الآثار الثمينة بالنظر إلى مادتها فضلاً عن قيمتها التاريخية. واستلفت انتباهنا بنوع خاص أمواس وصوان لكل سلطان صينية وموسى هو الموسى الذى اختتن به وكلها من الذهب مرصعة بالألماس. ناهيك بما هنالك من الطاسات المرصعة والمنزلة بالميناء. وكرة من الذهب مرصعة بالألماس. وساعة شمسية حديثة. وشاهدنا سيف قسطنطين صاحب القسطنطينية لم يبق منه إلا النصل مجردًا. وعدة مفاتيح مذهبة هى مفاتيح القلاع شكلها جميل.

---

(١) مادة راتنجية صفراء اللون، شبه شفافة قوية العزل للكهربائية، وهي أول المواد التي عرف تكهربها بالدلك. ومنها اشتقت كلمة الكهربائية. ومن الأحجار الكريمة الكهرمان فإذا كان المراد بالكهرباء الكهرمان، فهو علك أحفوري أشجاره من المخروطيات التي عاشت في عصور چيولوچية قديمة.

ورأينا بين المعروضات طاسة صغيرة (سلطانية) فيها سبحة السلطان عبد الحميد (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٧٩**) التى رَدَّدَتْ ذكرها الصحف وقدروها بمبلغ ٧٥,٠٠٠ جنيه وهى من اللؤلؤ النظيف حبَّاتُها بحجم بذرة الزيتون لكنها لا تذكر بجانب ما تقدم ذكره من التحف. وشاهدنا عدة ساعات مختلفة الأحجام من آثار عبد الحميد. ونيشان الشفقة من زمن عبد العزيز مرصع ومروحة مرصعة. وطاقم فناجين قهوة من الذهب كسرچفت مرصع بالألماس. وعدداً كبيراً من البنادق المنزلة بالذهب والعاج وأعلاماً من أذناب الخيل كان يمتاز بها الوزراءُ فى القديم. ومن أغرب ما رأيناه هناك صورٌ زيتية يزيد عددها على عشرين صورة بحجم النصف أو إلى الكتفين فقط، قالوا إنها صور خلفاء بنى العباس وهى مرسومة بالألوان الزيتية ولكنها طبعًا مبنية على الخيال. وهناك أصناف من الصينى لا تعدُّ ولا تحصى. وبين هذه التحف مجموعتان من النقود الذهبية العثمانية مرتبتين فى خزانتين منصوبتين فى وسط غرفتين. على أن لذلك البناء نفسه قيمة تاريخية خصوصية لأنه مسكن إمبراطور القسطنطينية ومنه أخذ.

ويقال بالإجمال أن تحف آل عثمان لا مثيل لها فى دولة من الدول المتمدنة على ما نعلم. ولعل الحكومة العثمانية تعنى بترتيبها

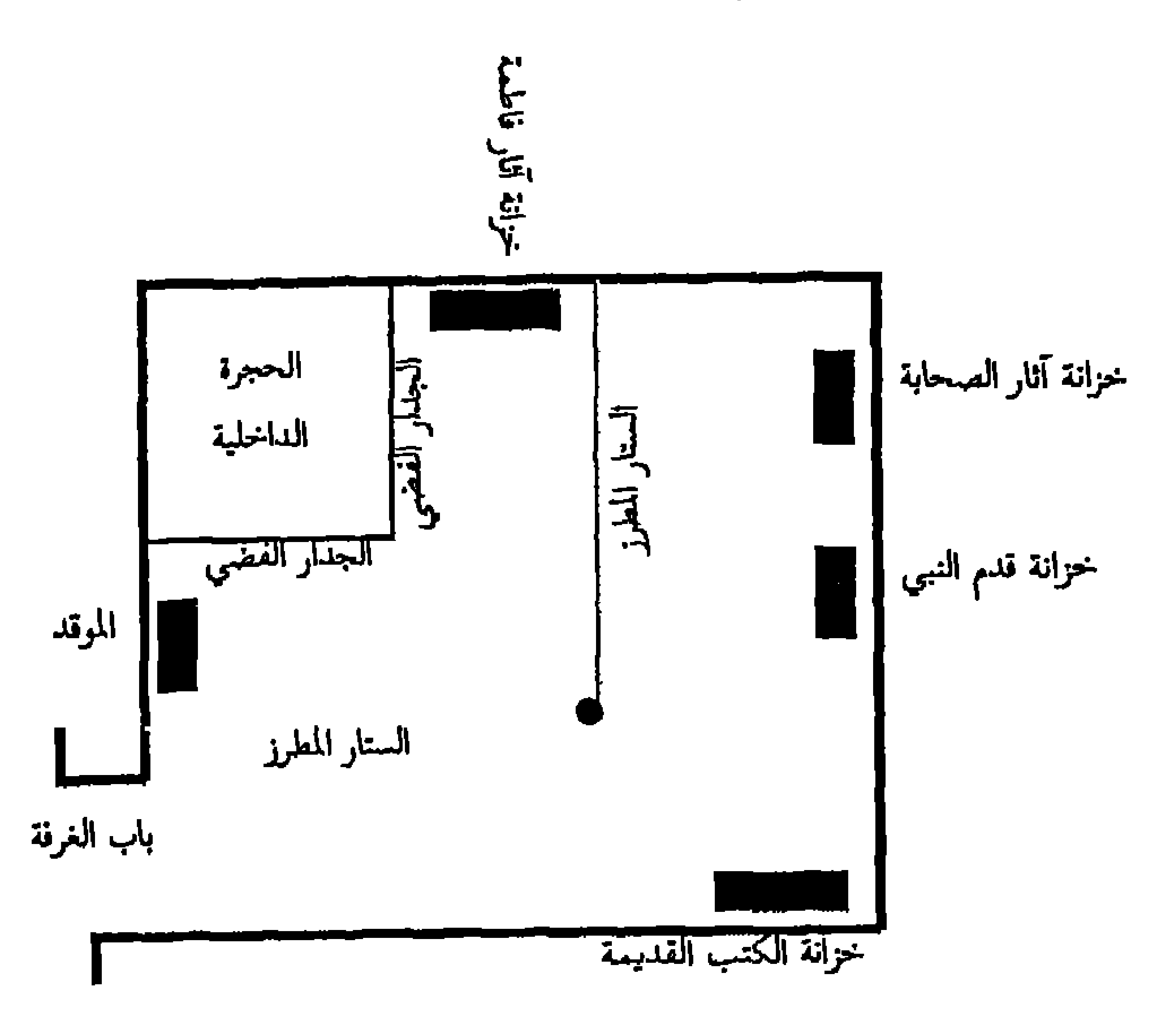
وعرضها وتجعل لها دليلاً يذكر فيه تفصيل كل قطعة وأصلها وتاريخها ورسمها وتتقاضى على رؤيتها رسمًا فتكون الفائدة مزدوجة. وبلغنا أنها تهتم بذلك الآن.

الآثار النبوية

دلنا الخبراء هناك على مكانين فى طوب قبو يحتويان على الآثار النبوية الشريفة أحدهما بجانب المكتبة التى تقدم ذكرها كان مقفلاً والآخر فى قاعة كبيرة يقدسونها كالمساجد ويسمونها «خزنة همايون» يحيط بها رواق مفروش بالحصر. جدارها مبطن من خارج ومن داخل بالقيشانى الثمين وقد علقوا على ظاهرها مئات من البنادق مكسوة بالنسيج الأحمر ومرتبة صفوفًا أفقية بينها مسافات متناسبة. ويقال أن السلطان سليمًا حملها إلى هناك من حروبه فى الآفاق.

دخلنا تلك القاعة باحترام وتهيب فرأينا مساحتها تزيد على عشرين مترًا فى عشرة أمتار أرضها مفروشة بالسجاد وفى أكثر أطرافها مقاعد ثمينة، وفى سقفها مصابيح مذهبة. مشينا إلى منتصفها فأومأ إلينا القيم أن نتحول نحو اليسار فتحولنا إلى باب (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٠) عليه ستارتان كثيفتان وبجانبه علم أخضر ملفوف قبّله الجميع. ثم أشار الرجل بهدوء

وسكينة أن ندخل فدخلنا من ذلك الباب إلى الغرفة التى فيها الآثار النبوية. وهى مربعة الشكل مساحتها نحو عشرة أمتار بعشرة وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام الواحد داخل الآخر.



تصوَّر غرفة مربعة بابها فى الجزء الجنوبى من جدارها الغربى إذا دخلتها كان الجدار الشرقى أمامك والزاوية الغربية الشمالية إلى يسارك. فهذه الزاوية قد أغلقت بحائطين من الفضة

المخرمة يقابلان جانبيها بحيث يتكون من ذلك حجرة مسقوفة بقبة من الفضة. والحجرة المذكورة مساحتها ثلاثة أمتار فى مثلها، جداراها الشرقى والجنوبى من الفضة كما تقدم علوهما ثلاثة أمتار أو أكثر. وقد تدلى عليهما من الظاهر ستارتان قصيرتان من الأطلس المطرز لا تحجبان نظر الواقف. وقد طرز على إحداهما **«شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله».**

وفى هذه الحجرة ثلاث دكك اثنتان ملاصقتان للجدار الغربى طول الواحدة منهما متر وبعض المتر، وفوق كل منهما صندوق محلى بمخمل أخضر مزركش. فى أحدهما العلم **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨١)** النبوى وفى الآخر البردة لا يفتحان إلا بحضور جلالة السلطان مرة فى السنة والدكة الثالثة ملاصقة لجدار الفضة الجنوبى ليس عليها شىء. وباب الحجرة فى جدارها الشرقى إذا وقفت به وقفة الداخل استقبلت الدكتين أمامك وعليهما الصندوقان المذكوران. فالسلطان يدخل من هذا الباب للتبرك من ذينك الأثرين. أما باقى الآثار النبوية ففى المكان الذى تقدم ذكره بجوار المكتبة.

ويقطع الغرفة وراء الجدارين الفضة وعلى بضعة أمتار منهما

ستارتان على موازاة ذينك الجدارين. إذا أرخيتا تألف منهما ومن الجدارين حجرة خارجية بشكل الزاوية تشتمل على الحجرة الداخلية المربعة الحاوية للآثار النبوية. والستارتان المشار إليهما من الأطلس الأخضر عليهما طراز من الذهب فيه آيات وأحاديث فى أجمل ما يكون. وهما تتدليان من عارضتين أفقيتين يتكون عند ملتقاهما زاوية مرتكزة على عمود من الفضة. والقسم الباقى من الغرفة الكبرى بين هاتين الستارتين والجدارين الشرقى والجنوبى فراغ بشكل الزاوية. فتكون الغرفة مقسومة على الصورة التى رسمناها فى الصفحة المقابلة كما علقت بذهننا.

وقد شاهدنا على بعض جدران الغرفة وجدران الحجرة قطعًا من ستارة الكعبة مختلفة الحجم معلقة هنا وهناك وعليها طرازها المعلوم. وفى جدار الغرفة الشمالى بين الستارة والحجرة الداخلية خزانة رأيناها مقفلة وعلى قفلها ختم أحمر لا يجوز فضه. وأخبرنا حارس الآثار أن فى هذه الخزانة مخلفات السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى وفيها مشطها وسواكها ومكحلتها ومرآتها وقد أقفلها السلطان عبد المجيد وختم عليها منذ نصف قرن ولا تزال مقفلة من ذلك الحين.

وفى الجدار الشرقى خزانتان فتحوهما لنا. فى إحداهما

مخلفات بعض الصحابة والأئمة موضوعة فى علب أو صرر على رفوف وكل علبة أو صرة مكسوة بالجوخ الأخضر وفى كل منها أثر من الآثار بينها علبة فيها فراجية أبى حنيفة النعمان، وأخرى مخلفات الإمام على أو غيره من كبار الصحابة ونصوص أصلية لأهم العقود والعهود الإسلامية.

وفى الخزانة الأخرى آثار أخرى شاهدنا بينها رفًا عليه علبة من الذهب الخالص يأخذ لمعانها بالبصر مفتوحة وفى داخلها رسم قدم النبى ﷺ منقوش فى رخامة من المرمر بالحجم (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٢**) الطبيعى. وبين الخزانتين لوحة معلقة على الحائط وقد كتب فيها القرآن على أشكال هندسية بخط دقيق لكنه واضح جميل.

وهناك خزانة أخرى فيها كتب قديمة من رقوق أو جلود فى جملتها قرآن أخرجوه لنا باحترام ووقار وهو مكتوب بالكوفية على رقوق قد تهرأت من تقادم عهدها وحجم هذا المصحف نحو ٣٥ سنتيمترًا فى ٢٥، قلبه لنا الحارس وأرانا صفحاته حتى أتى إلى صحيفة عليها أثر الدم فقال: **«هذا مصحف عثمان الذى كتبه بيده وكان يوم قتل يقرأ فى هذه الصحيفة فلما شجوا رأسه سقط الدم عليها كما ترونه»**، وقال: **«إن عثمان كتب بيده أربعة**

مصاحف ثلاثة منها موجودة هنا والرابع ضائع»، وهذا الاعتقاد شائع هناك لكنه يفتقر إلى إثبات وليس هذا محل تحقيقه.

وقرأنا على جدران الغرفة نقوشًا من آيات وأحاديث وأشعار فى جملتها بيت منقوش فوق عتبة الباب هو مطلع البردة:

أمن تذكر جيران بذى سلم　　　　مزجت دمعًا جرى من
مقلة بدم

ورأينا فى الحائط الغربى بجانب الباب بين الستارة والحجرة موقدًا تشعل فيه النار للاستدفاء فى الشتاء وهو مصنوع من البورسلين المذهب.

وفى الزاوية الشرقية الشمالية عمود العلم النبوى مشدود إلى الحائط. ومن الآثار الثمينة هناك ميزاب الكعبة من خشب الصندل أو العود ومنزل بالذهب. نقله إلى هنا السلطان مراد الرابع وجدد ميزابًا سواه وهو الذى بنى هذه الغرفة وما يجاورها.

وبجانب هذه الغرفة مكتبة دخلنا إليها من باب قريب فإذا هى صغيرة وفيها كتب فى الخزائن على غير نظام. ولكنها مبطنة بالقيشانى مثل سائر ذلك البناء وسطحها قبة مبطنة برقوق الغزلان عليها رسوم ونقوش مذهبة وآيات وقد تهرأ بعضها فتقطع وأزيح من مكانه فتحقق لنا أنه رق.

وأرونا بجانب خزنة همايون عند مدخلها الخارجى غرفة فيها مجالس قالوا أنهم يسمونها **«سنة اوطه سى»** كانوا يختتون فيها أولاد السلاطين. وفى إحدى نوافذها شبه مغطس من رخام كانوا يغسلون به الأطفال بعد الختان.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٣)

قصر بغداد

هو أجمل قصور سراى طوب قبو وأقربها إلى البحر بجانب البناء الذى فيه خزنة همايون. سمّى قصر بغداد لأن السلطان مراد نقله من بغداد، ولعله نقل أجزاءه أو التحف التى زخرفه بها. وإنما المتواتر أنه نقله برمته بعد النصر الذى أوتيه هناك. وهو بناء جمع بين إتقان الصناعة وجمال الشكل وحسن الموقع. أجمل ما فيه قاعة كبيرة مكسوة بالقيشانى من الظاهر والداخل لها رواق قائم على أساطين مزخرفة والقاعة المذكورة كثيرة النوافذ والمجالس تعلوها قبة مبطنة برقوق الغزلان عليها رسوم مذهبة. وشاهدنا فيها مقعداً قديم العهد يشبه المقاعد الإفرنجية عليه كساءٌ من الأطلس المطرز وقد تهرأ من طول المكث. ويقال أنه من جملة بقايا إمبراطور الروم.

وفى هذا القصر كان يجلس السلطان عبد الحميد إذا جاء

لزيارة الخرقة الشريفة وربما جلس فى الرواق وأطل منه على البوسفور، فإنه منظر يستوقف الخاطر ويشرح الصدر.

(٤) معرض السلاح في كنيسة ايريني

ايرينى إمبراطورة رومانية تولت عرش القسطنطينية فى أواخر القرن الثامن للميلاد وإليها تنسب هذه الكنيسة. ويقال إن قسطنطين الكبير بناها قرب القصر الإمبراطورى فى ذلك الجوار فاحترقت فى أيام يوستنيان فأعاد بناءها ثم تهدمت بزلزال فى القرن الثامن فأعيد بناؤها . ولما فتح العثمانيون القسطنطينية لم يحولوها إلى جامع لكنهم جعلوها مخزنًا للسلاح. وهى الآن إلى يسار الداخل فى الباب الخارجى من أبواب سراى طوب قبو دخلناها من باب كبير إلى دهليز منحدر أرضه مرصفة ببلاط ضخم متداخل. طوله نحو خمسين مترًا ينتهى إلى صحن الكنيسة فى اليسار وهى هائلة السعة ربما بلغ طولها مائة متر فى خمسين. فى صدرها مكان الهيكل بشكل نصف قبة فى أعلاه رسم الصليب وفيه مقاعد تتدرج علوًا من الأرض على شكل افيتياتر علقوا عليه الأدراع والأتراس. والكنيسة ملأى بالقوائم والمواقف فى أرضها وقد وضعوا عليها البنادق وضعًا متناسقًا فضلاً عما علقوه من البنادق والبلطات فى جدرانها وهناك كثير من

الخوذ والأدراع على اختلاف الأشكال. وقد استلفت انتباهنا فى هذه الكنيسة دهليز فى صدرها مبنى وراء الهيكل بشكل **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٤)** نصف دائرة له بابان أحدهما إلى يمين الهيكل والآخر إلى يساره وقد بنى بشكل هندسى يسهل به انتقال الصوت وتجمعه. فالواقف فى أحد هذين البابين إذا تكلم همسًا سمعه الواقف بالباب الآخر واضحًا كأنه يتكلم فى أذنه وبين البابين نحو ٢٥ مترًا ويساعد ذلك على مخابرة الكهنة فى أثناء خدمة القداس إذا احتاجوا إلى شىء بدون أن يستلفتوا سمع الحاضرين. وفى كنيسة القديس بولس فى لندن اليوم حيلة مثل هذه.

سلسلة قرن الذهب

ووراء صحن الكنيسة غربيًا إلى يمين المنحدر من الدهليز خلاء الكنيسة الخارجى وفيه بعض الأنصاب والقبور وأهم ما شاهدناه فيها السلسلة التى نصبها الروم فى عرض قرن الذهب عند مدخله ليمنعوا سفن الأعداء من دخوله. وقد ذكرنا خبر هذه السلسلة فى تاريخ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح فى الهلال ١٧ و١٨ من السنة السادسة بعد أن فصلنا حصون هذه المدينة برًا وبحرًا وجهاد العثمانيين فى فتحها عبثًا

قلنا: «ومما زاد المدينة امتناعًا أقفال ميناها عند قرن الذهب بالسلسلة الضخمة مع سهر سفن الروم هناك ليمنعوا دوارع العثمانيين من الدخول فأيقن السلطان أن المدينة لا (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٥) تؤخذ إلا إذا هوجمت من البر والبحر معًا وكاد العثمانيون ييأسون من الفتح. فارتأى السلطان محمد الفاتح رأيًا يكاد يعد تنفيذه من المعجزات وذلك أنه لما رأى المدينة ممتنعة بأسوارها من جهة البر وبدوارعها من جهة البحر وأنها لا تؤخذ إلا إذا هوجمت من البر والبحر معًا وإن دوارعه ممنوعة عن قرن الذهب بالسلسلة الحديدية تخفرها الحامية من السفن القوية عمد إلى نقل عمارته من البوسفور إلى قرن الذهب عن طريق البر إلى غلطة. ولا يخفى ما يحتاج إليه هذا المشروع من الهمة والإقدام لأن المسافة بين مرسى سفنهم فى البوسفور والمكان الذى عزموا على نقلها إليه فى قرن الذهب لا يقل طولها عن ستة أميال على ما رواه همر (وقال جبن عشرة) فضلاً عن وعورة الطريق وفيها المرتفعات والمنخفضات والغابات من الشجر الغض مما لا يتيسر جر السفن عليه والناس يحملونها. فاقتضت همة هذا الرجل العظيم أن يبنى فى تلك المسافة رصيفًا من ألواح الخشب متحاذية يدهن سطحها بالشحم تسهيلاً لانزلاق السفن

عليها وشرعوا في العمل في أول الليل فرفعوا السفن إلى الشاطئ فوق ذلك الرصيف وجروها فوق الأخشاب على محادل[1] من الخشب إذا تدحرجت بينها وبين الرصيف سهلت انزلاقها فقضوا تلك الليلة في جهاد وهم يحذرون أن تعلم بهم حامية المينا فلم يصبح الصباح إلا وقد سبحت العمارة العثمانية في قرن الذهب ورجال الحامية لا يعلمون».

فهذه السلسلة رأيناها في حجرة بجوار كنيسة ايريني وقد تراكمت مثل التل الكبير وهي من الحديد المطرق. حلقاتها مستطيلة إهليلجية الشكل ربما بلغ طول الحلقة منها نصف متر وثخن حديدها مثل زند الشاب النحيف. وأثر التطريق ظاهر في الحديد رغم ما يكسوه من الصدأ. وطول هذه السلسلة نحو خمسمائة متر فإذا اعتبرنا طول الحلقة ٥٠ سنتيمترًا غير ما يضيع في تداخلها كان عدد الحلقات جميعًا ١٠٠٠ حلقة. وقد وقفنا عند هذه السلسلة حينًا ونحن نتذكر ونعتبر. وشاهدنا هناك أسلابًا مجرية اكتسبها العثمانيون في حروبهم.

وأرونا في غرفة أخرى طبولاً عثمانية تختلف عن طبول هذه الأيام كانت الدولة تستخدمها في أدوارها الأولى والطبل شبه

(١) الحدَلُ: الميل، والمراد: أنها أدوات تُمِيلُ السُّفن في الاتجاه المراد.

الحلة من النحـاس مكسـو بالجلد وقـد شـد (الهـــــلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٦) إلى فتحته جلد أو رق يضرب عليه نحو الطبول السودانية التى استعملها الدراويش فى زمن المهدى. رأينا عشـرات من هذه الطبول هناك تختلف أحجامها من قدر الحلة الاعتيادية إلى ما يبلغ ارتفاعه إلى أعلى صدر الرجل ولهذه الأحجام المختلفة معنى فى اصطلاحهم. فقد كان لكل قائد طبل يختلف حجمه باختلاف رتبته ومنصبه وكلما علت رتبته كبر طبله.

وخارج هذه الكنيسة وبالقرب من بابها بضعة أضرحة عليها رخـام أحـمـر قـالوا إن أحـدها قـبـر ملك الروم الذى فـتـحت القسطنطينية فى أيامه وقد أشرنا إلى ذلك قبلاً. وهو الإمبراطور باليولوغس وكانوا قد وجدوا جثته يوم الفتح بين القتلى وعرفوها من رسم النسر المزركش بالقصب على درع القدم فأمر السلطان محمد بدفنها بالإكرام فدفنوها فى ذلك الجوار.

وقبل الخروج من سراى طوب قبو تعرفنا إلى كبار حفظتها من الخصيان وهم طائفتان البيض والسود ويسمون البيض منهم «آقـالر» والسـود «طواشـيـة» وهم رتب وطبـقـات منهم البلطجى والزلفلى وغيرهم. وقد وعوا فى صدورهم أسرار السلاطين ودخائل

القصور، وهم على جانب عظيم من دماثة الخلق ولين الجانب.

(٥) معرض الإنكشارية

لهُ بناء خاص يطل على اتميدان صعدنا فيه إلى قاعة كبيرة هى المعرض كله، وما هو إلا أصنام مثلوا بها الإنكشارية وغيرهم من رجال الدولة الذين عاصروهم على اختلاف رتبهم وأحوالهم من العسكرى الصغير إلى الأغا الكبير ومن القاضى إلى الوزير وغيرهم بملابسهم وأشكالهم. فاصطنعوا لهم وجوهًا طلوها بالألوان حتى تشبه أوجه الآدميين وألبسوها العمامة أو القاووق وزينوها بالشعر على الشاربين أو الذقن حسب الاقتضاء، واصطنعوا الأيدى أيضًا على هذا الشكل لأنها تظهر لا يكسوها اللباس، وأما سائر البدن فمكسو بالثياب على اختلاف الأنسجة والألوان وفيها الجبة والقفطان والعمامة والسراويل كل واحد حسب رتبته وموقفه.

ورتبوا أولئك الأشخاص جماعات تتألف كل منها من بضعة رجال يمثلون جلسة من جلسات الإنكشارية أو الوزراء أو القضاة أو غيرهم فلا يشك الناظر لأول وهلة أنه (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٧) يرى أناسًا حقيقيين وربما أجفل من رؤية بعضهم لعظم هيبتهم وضخامتهم. ويقال بالإجمال أن

تماثيل هؤلاء الناس أكبر من الحجم الطبيعى قليلاً وربما تعمدوا تكبيرها ليراها الناظر عن بعد فتبدوا بالحجم الطبيعى، والجماعات ١٥ كل منها يمثل مجلساً وهى:

١ ـ سبعة أشخاص فيهم خادم الحرم وقزم بعمامته المستديرة المضحكة وجماعة من كبار الموظفين.

٢ ـ ضابط ورئيس فرقة وطباخ وسقا.

٣ ـ ناظر البحرية والتشريفاتى والقبطان باشى وبضعة من البحرية على اختلاف الفرق.

٤ ـ آغا الإنكشارية ونائبه وصاحب السجل ورئيس الحرس وغيرهم.

٥ ـ ناظر النافعة وكاتب السياسة وسكرتير الباب العالى وساع وقواص وخادم وجاويش.

٦ ـ ناظر الداخلية والباشكاتب وضابط يمشى أمام الصدر الأعظم وسائر الوزراء وضابط يتقدم الاحتفال وصاحب البريد.

٧ ـ رئيس العلماء وقاضى الروملى وشيخ الإسلام وقاضى إستامبول وقاضى مكة ورئيس المدرسة وكبير الفقهاء والمؤذن ورئيس الفراشين.

٨ - الصدر الأعظم وقيم القصر ورئيس حرس القصر ورئيس المنفذين لأوامر الصدر.

٩ - ناظر الرسائل السلطانية ومدير الإسطبل ورئيس التشريفات وبعض أتباعهم.

١٠- موظفون مختلفون فيهم صاحب الفلق وكاشف السرقات.

١١- معاون رئيس مخازن الأسلحة وقائد بعض فرق الحرس ودار السلاح وجاويش وملازم.

١٢- مراقب بيت المال وصاحب الأوراق وصاحب دار الضرب وغيرهم.

١٣- ملازم رئيس الحرس ووكيل الخراج وأنفار من حملة البنادق.

١٤- قارئ الحكم بالإعدام ورئيس مكتب.

١٥- رئيس بلوك وغيره من الضباط علّى زمن السلطان سليم الثالث وقد أدخل فى ملابسهم بعض التغيير.

وجملة الأشخاص الممثلين فى ذلك المعرض ٩١ شخصاً. على اختلاف الرتب والأحوال وكل واحد منهم بلبسه الخاص برتبته ووظيفته على اختلاف الألوان والأنسجة فترى أشكالاً من العمائم والسراويل والنعال والجبب والقواويق والفرو وغيره.

* * * *

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٨)

٦ـ حالتهـا الاجتماعيــة

سكانهـــا

زارت لادى وورتلى مونتاغ الآستانة ثم كتبت تصف تعدد الأمم فيها فقالت: **«إنى أقيم فى بلد كأنه برج بابل لكثرة اللغات الشائعة فيه. فإن أهل بيرا يتكلمون التركية واليونانية والعبرانية والأرمنية والعربية والفارسية والروسية والفلاخية والألمانية والنمساوية والإيطالية والفرنساوية والمجرية والإنكليزية. وأغرب من ذلك أن عشراً من هذه اللغات يتكلمها أهل منزلى لأن سياسى عرب وخدمى فرنساويون وإنكليز وألمان وحاضنتى أرمنية وجوارىَّ روسيات وبعض خدمى يونان وخادم مائدتى إيطالى وحرسى أتراك».**

ذلك ما قالته لادى مونتاغ منذ قرن وبعض القرن وهو ينطبق على حال الآستانة اليوم ولعلها أكثر طوائف ولغات مما كانت عليه يومئذ لتزايد المواصلات بتعدد وسائل النقل فى القرن الماضى. ونحن لا نستغرب هذا الاختلاط كما استغربته الكاتبة المشار إليها لأن مصر أكثر أمماً وأجناساً من سائر البلاد. وقد رأينا اللادى مونتاغ أغفلت ذكر اللغة الأسبانية وهى كثيرة الشيوع اليوم بين اليهود هناك لأن أكثرهم نازحون من أسبانيا ويتفاهمون بلغتها

فضلاً عن اللغة العبرانية.

على أن تعدد الأجناس فى الآستانة طبيعى فيها لوقوعها بين قارتين وبحرين يقصدها الناس للارتزاق أو السياحة من أقدم أزمانها. فقد كان سكانها القدماء من اليونان ولما دخلت فى حوزة الدولة الرومانية وصارت عاصمة أحد شطريها نزح إليها الرومان ومن دخل فى سلطانهم من الأمم فى آسيا وأفريقيا وأوربا. ثم دخلت فى حوزة الأتراك فأتوا إليها بمن دخل فى جندهم من أصناف الناس ومن كان فى حوزتهم من الأمم الشرقية وغيرها.

فالنظر فى سكان الآستانة على اختلاف عناصرهم يضيق عنه المقام فنقتصر على أهمها وهم الأتراك واليونان والأرمن واليهود والعرب والألبان والإفرنج. وكل أمة تختص بعمل من الأعمال ويغلب أن تنفرد بحى من أحياء المدينة تتجاور فيه. فالأتراك يقيمون على الغالب فى إستامبول وهم سواد سكانها. واليونان يقيم أكثرهم فى محلة الفنار من (**الهلال**، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٨٩) أحياء إستامبول على قرن الذهب ومنهم جماعات متفرقة فى سائر أحيائها بجوار الكنائس وفى بيرا. وللأرمن حيان خاصان بهم أحدهما على بحر مرمرا والآخر على الميناء، وكانوا كثاراً قبل أن يذبحهم عبد الحميد منذ بضع

عشرة سنة. واليهود أكثرهم من الأسبان ويسكتون بلاطة وخاص كوى وغيرهما على قرن الذهب. والإفرنج ونريد بهم الأوروبيين على الإجمال يقيمون فى بيرا ويقيم معهم العرب وغيرهم من الأجانب.

وأما تعداد هذه الأمم بالنسبة بعضها إلى بعض فيصعب تحقيقه لأنهم لم يحصوا سكان الآستانة من عهد بعيد. ولكن يقال بالإجمال أن خمسى سكانها من الأتراك والخمس الثالث من اليونان والخمس الرابع أكثره من الأرمن والباقى من سائر الملل.

الأتراك في الآستانة

الأتراك كلهم مسلمون وإذا قالوا «تركى» يعنون «مسلم» إلا نادراً فكل تركى مسلم ولا يعكس. والأتراك من أهل الآستانة هم أهل الدولة وموظفو الحكومة يوجهون آمالهم إلى خدمة الحكومة من نعومة أظفارهم وقلما يشتغلون بعمل آخر من تجارة أو صناعة. فالولد وهو فى المدرسة يعدُّ نفسهُ لبعض الوظائف على نسبة اقتداره ووسائطه. وهو يفضل الانتظام فى سلك كتاب الديوان بدون راتب على أن يكون كاتباً فى محل تجارى براتب حسن. ورواتب صغار الكتاب فى الحكومة العثمانية تختلف عن مثلها فى مصر فإن الكاتب المصرى لا يقلُّ راتبه عن أربعة جنيهات ولكنه فى الآستانة يبدأ راتبهُ بأربعين غرشاً فى الشهر.

وربما كان طالب هذه الوظيفة من أبناء الأعيان وهم فى غنى عن خدمة الحكومة. وتعلق الأتراك بوظائف الحكومة العثمانية يشبه تعلق المصريين بوظائف حكومتهم. وقد تركوا التجارة وسائر الأعمال للنازحين إليهم ولا يزيد الموظفون الأجانب فى الحكومة العثمانية عن واحد فى المائة.

والطبقة الراقية من الأتراك مثل أرقى طبقات الهيئة الاجتماعية فى أوربا ومعظمهم من الأحرار وقد تثقفوا فى الغالب على الطرز الفرنساوى وأكثرهم يحسنون التكلم بالفرنساوية ويعرفون آداب الفرنساويين ويقلدونهم بأخلاقهم وآدابهم وعاداتهم. واللغة الفرنساوية أكثر اللغات الأجنبية شيوعاً فى الطبقة الراقية هناك على نحو ما نعلمه من أحوال تلك الطبقة فى سوريا ومصر وخصوصاً قبل الاحتلال الإنكليزى.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٠)

وفى الآستانة طائفة من الأتراك النازحين إليها من الأناطول قد يتعاطون التجارة أو الصناعة وفيهم جماعة كبيرة من الشيالين والنوتية(١) وكبار الأتراك أهل ثروة وجاه وترف وتوسع فى العيش يقيمون فى المنازل الفسيحة ينفقون فى رياشها الأموال الطائلة

(١) النوتية: البحّارة، ويقال: المراكبية، ويقال الفلايكية وهم الذين يعملون في البحر. والواحد نوتي.

ويكثرون من الخدم والجوارى، لأن منزل التركى المسلم عبارة عن منزلين أحدهما للرجال والآخر للحريم ولكل منهما خدمة خاصة.
ومن عادة وجهاء الأتراك أن يتناسل الخدم فى منازلهم ويعنون فى تربيـة أبنائهم وإن لم يكن لهم نفع منهم، وربما ارتقى الخادم فاتخذ من يخدمه وكلهم فى منزل ذلك الوجيه، وهذه العادة من بقايا أزمنة الرخاء الشرقى القديم.

سائر العناصر فيها

واليونان (**ويسمونهم أروام**) يتعاطون كل عمل وخصوصاً التجارة وفيهم التاجر الكبير والبائع الصغير مثل شأنهم فى مصر. فمنهم تجار المجوهرات والألبسة ونحوها ومنهم أصحاب البقالة والخمارة والسمانة ولهم القهوات والبارات ولا مطمع لهم بخدمة الحكومة واليهود يشتغلون فى الآستانة مثل اشتغالهم حيثما حلُّوا فمنهم الصيارف وباعة الخردوات قليلها وكثيرها وقلما يتعاطون صناعة.

والأرمن جمعوا بين أعمال الأروام واليهود، يشبهون الأروام فى تنوع أعمالهم ويشبهون اليهود باقتدارهم المالى وهم أهل نشاط وسعى وذكاء ومنهم كبار الصيارف وأصحاب البنوك وكبار التجار ويتعاطون سائر التجارات، ومنهم تجار الحنطة ومضمرو

الخيل وباعتها . وفيهم أهل الصنائع الدقيقة والمهن العلمية كالصياغة والطبابة والصيدلة والهندسة والنجارة والخبازة والحدادة. وفيهم كثيرون من أهل الصناعات الدنيا . وقد كانت تجارة الآستانة وأموالها في قبضة أيديهم حتى نكبهم عبد الحميد فتضعضعوا ولكنهم عائدون إلى ما كانوا عليه.

وأما العرب وفيهم السوريون فأكثر اشتغالهم الإتِّجار بالبضائع السورية وبعضهم يطلبون الخدمة في الحكومة وفيهم جماعة من الكتاب ورجال الصحافة وأهل الوجاهة وقد أثرى كثيرون منهم بالتجارة وأصبح بعضهم من كبار المتمولين.

وأما سائر الأجناس فربما اشتهرت كل أمة بصناعة فالبلغار مثلاً أكثرهم من باعة اللبن والألبانيون بعضهم في خدمة الحكومة ورجال السياسة ومنهم طائفة من باعة الخضار.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩١)

المرأة التركية

اختلفت أقوال الكتاب في المرأة التركية ولكن لا خلاف في أنها من أرقى نساء الشرق. وهي اليوم متعلمة متهذبة تقرأ كتب الأدب والجرائد وتجالس الرجال وتبحث معهم وتجادلهم وتستحث قرائحهم وتستنهض هممهم. وللعائلات الراقية عناية خصوصية في

تربية البنات فيأتون إليهن بالمعلمات الإفرنجيات يلقنهن العلم والأدب. فتشبُّ الفتاة التركية على الشجاعة الأدبية فلا تستنكف من مخاطبة الرجال ولا ترى للرجل مزية عليها. والعائلات الراقية من الأتراك يأكل فيها الرجال والنساء معًا على مائدة واحدة وقد يفعلون ذلك ولو كان على المائدة ضيوف من غير أهلهم.

وظهر بعد عودة الدستور أن المرأة التركية كان لها دخل كبير في إعادته لما كانت تبثه في الرجل من الحمية وتوحيه إليه من الثبات والصبر. وكثيرًا ما كانت تعمل معهُ جنبًا لجنب بالمكاتبة أو المراسلة أو الخطابة، وهي تتكلم أفصح اللغات التركية.

على أنها ما زالت تحترم العادات الشرقية التي يعدونها أحيانًا من قبيل الدين، فلا تخرج في الأسواق إلا بالحبرة وترسل على وجهها منديلاً أسود أو تتقنع باليشمك وهو شاش أبيض مكوي يعصب به الرأس إلى أسفل الجبين ثم يدار حول العنق والفم فلا يبقى ظاهرًا غير العينين وبعض الأنف. أما في البساتين وبين المنازل خارج المدينة فتكتسي فوق أثوابها المنزلية رداء من الحرير كالعباءة أو كالبُرنس بأكمام وتغطي الرأس بمنديل أو خمار وتترك وجهها مكشوفًا. ولا يقلل ذلك شيئًا من المراد بالحجاب لأن الطرف يرتد عنها تهيبًا لتجافيها عن الخلاعة. وإلى ذلك أشار

شوقى فى قصيدته التى يصف بها خروج نساء الآستانة سافرات الوجوه، نعنى قوله:

فقل للجانحين إلى حجابٍ	أتحجب عن صنيع الله نفسُ
إذا لم يستر الأدب الغوانى	فلا يغنى الحرير ولا الدمقسُ
تأمل هل ترى إلا جلالاً	تحسُّ النفس منه ما تحسُّ
كأن الخود (مريم) فى سفور	ورائيها حواريٌّ وقسُّ
تهيبها الرجال فلا ضميرٌ	يهمُّ بها ولا عينٌ تجسُّ

ومنازل الأعيان لا يستغنى فيها عن الخصيان لخدمة الحريم فضلاً عن سائر الخدم (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٢**) وهم عديدون بعضهم للحريم والبعض الآخر للرجال إذ لكل منهما مائدة خاصة فى مكان خاص. والخادمات أكثرهم من الجوارى المشتريات وكانت لهن سوق رائجة حتى زمن عبد الحميد فتباع الواحدة بخمسين جنيهًا إلى خمسمائة جنيه بين أن يراد بها الخدمة أو غيرها. وذكروا أن إسماعيل باشا الخديوى اشترى من الآستانة جارية بألف جنيه. وأكثر أولئك الجوارى من الجركس والقوقاس. وأما الخدم فأكثرهم من أهل الأناطول رجالاً ونساءً ومعظمهم مسلمون وفيهم بعض الأرمن واليونان للخدمة على المائدة أو فى المطبخ. ولا تخلو بيوت الوجهاء من المعلمات

الإفرنجيات لتربية الأولاد وأكثرهن من الألمانيات والفرنساويات وبعض الإنكليزيات. والبوابون والحراس والحمالون من المسلمين.

الآداب العمومية

والآداب العمومية إذا نظرنا إليها من حيث أهل الآستانة أنفسهم وجدناها من أقرب الهيئات الاجتماعية الخالية من الحشمة والتعفف. وأما فى الأحياء الإفرنجية فلا تخلو الشوارع العمومية من بنات الهوى نحو ما فى القاهرة والإسكندرية. ورأينا للحكومة عناية فى المحافظة على الآداب العمومية بالأحياء التركية لم نجد مثلها فى مصر مع شدة الحاجة إليها. وذلك أنها جعلت حداً لاختلاط الرجال بالنساء فى المنتزهات العمومية بالبساتين أو على شواطئ البوسفور. فخصصت لكل منتزه يوماً من الأسبوع لا يأتيه غير النساء ولا يؤذن للرجال (فى)(١) دخوله فى ذلك اليوم. وإذا كان المنتزه على شاطئ البحر بجانب الطريق وقف بعض الضابطة يمنع الرجال من الوقوف هناك.

وقد لاحظنا أن المسكرات أقل شيوعاً فى الآستانة مما فى سائر البلاد المتمدنة وأهلها أبعد من سواهم عنها. ولا تجد قهوات

---

(١) زيادة متعينة .

أو بارات تبيع المسكر إلا فى الأحياء الإفرنجية. فالقهوات أو أماكن النزهة أو المطاعم فى الأحياء التركية لا يباع فيها المسكر ويسمون تلك القهوات «قراءَت خانه» يريدون بذلك خلوها من المسكرات. وأكثر قهوات الآستانة الوطنية من هذا النوع.

وفى أهل الآستانة على الإجمال تأدبٌ فى خطابهم وظُرف فى عشرتهم ورقةٌ فى كلامهم ودماثة فى أخلاقهم ولين فى طباعهم، سواءٌ فى ذلك الباشا والتاجر والصانع والكاتب والشيخ والشاب. حتى الحمَّار وسائق المركبة والنوتى والحمال رغم ما عليه (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٣) هؤلاء فى البلاد الأخرى من جفاء الطبع والخشونة والطمع بأهل اليسار فيطلبون أكثر من حقهم ولا ينفكون حتى ينالوه بالصياح والخصام. أما فى الآستانة فإن هذه الطبقة من العامة لا تقل دماثة ولطفًا عن الخاصة. وقد جربنا ذلك بنفسنا مرارًا فالعريجى يقنع منك بالتعريفة ودونها. ولا يحاسب الراكب على وقفة فى أثناء الطريق لمخاطبة صديق أو ابتياع شىء. وإذا طمع به الراكب وأعطاه أقل من حقه لا يزيد على أن يستعطفه بلطف وصوت خافت فإذا لم ينل منه شيئًا سكت وانصرف. وهكذا النوتية وهم كثيرون على الخصوص عند جسر غلطة للتعدية إلى إستامبول. وكذلك الحمالون وغيرهم فإنهم على جانب عظيم من دماثة الخلق.

* * * *

٧ - حالتها الأدبية والعلمية

لما كانت الآستانة بلداً تركيًا ولغتها تركية وأكثر أهلها من الأتراك فالبحث فى حالتها الأدبية والعلمية يتناول بالأكثر البحث فى آداب اللغة التركية اليوم ويدخل فى ذلك الكلام عن الصحافة والمدارس والمطابع والمكاتب والكتاب والشعراء. وهو موضوع واسع لا يمكن استيفاؤه فى هذا المقام فنكتفى بخلاصته. ونقدم الكلام بتاريخ آداب اللغة التركية لزيادة الإيضاح.

الأتراك أمس واليوم

لا بدَّ للكاتب عن الأتراك العثمانيين من أن يميزهم عن الأتراك الذين عرفهم العرب فى صدر الإسلام وعن سائر معاصريهم من أهل تركستان وأذربيجان فإنهم يختلفون عنهم أخلاقًا وأمزجة وآدابًا.

كان التركى فى عصر العباسيين ممتازاً بقوة البدن والشجاعة والمهارة فى رمى النشاب والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات فى ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعى وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها فى إبان التمدن الإسلامى، واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا إذا سمعوا بتركى يشتغل بالعلم الطبيعى ذكروه مع الاستغراب كما

فعل ابن الأثير لما أشار إلى معرفة قتلمش علم النجوم فقال: **«ومن العجب أن هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه مع أنه تركى ويعلم غيره (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٤) من علوم القوم»** فاتخذ أعداء الأتراك العثمانيين ذلك حجة للطعن فى علمهم وأنهم غير أهل للتمدن، ولكن هؤلاء الأتراك الآن يختلفون عن أسلافهم اختلافًا بعيدًا وإليك البيان:

نزح سليمان بك جد العثمانيين بقبيلته من أواسط تركستان فى القرن السادس للهجرة وهم بادية رحل يعيشون فوق خيولهم يرمون بالنشاب ويصبرون على الأسفار ويثبتون فى ساحة الحرب ولم تكن لهم عناية فى العلم ولا كان للغتهم أدب أو شعر. فلما تسلطوا على آسيا الصغرى ثم فتحوا الأستانة وتحضروا واحتكوا بالأمم الأخرى وخالطوهم بالمزاوجة والمعاشرة تغيرت أمزجتهم وتلطفت طباعهم كما أصاب العرب بعد تحضرهم.

فالأتراك العثمانيون يمتازون عن الأتراك القدماء بتغيير طرأ على دمائهم بالتزاوج فأصبحت خليطًا من دماء كثيرة بما فى أمهاتهم من الأمزجة المختلفة باختلاف الأجناس وفيهن الشركسية والرومية والأرمنية والألبانية والفارسية فضلاً عن التركية. واندمج فى الأتراك بعض دعاياهم من أصول مختلفة وكثيرون من

النازحين إلى بلادهم من الأمم الأخرى وفيهم الفرنساوى والألمانى والعربى والألبانى والمجرى والفارسى والرومى وغيرهم. وقد تأصل هذا التنويع على الخصوص فى أهل الآستانة. فلما احتكوا بالعالم المتمدن اقتبسوا تمدنه وآدابه ونبغ منهم الشعراءُ والأدباءُ والكتاب والصحافيون وغيرهم كما سيأتى.

آداب اللغة التركية قبل هذه النهضة

ليس الأتراك من الأمم المستنبطة للعلم والفلسفة ولا فى لغتهم آداب قديمة تدل على تمدن قديم كاليونان والفرس. وإنما هم مقلدون فى آدابهم مقتبسون فى علومهم كالرومان والعرب، ولكن هاتين الأمتين زادتا على ما اقتبستاه فأصبح لكل منهما تمدن عرف بها وله شأن خاص فى تاريخ العالم، وأما الأتراك فلم يستطيعوا تحسينًا يستحق الذكر.

لم يكن للأتراك العثمانيين آداب قبل القرن السابع للهجرة، أى قبل تأسيس دولتهم وأقدم آدابهم اقتبسوها من الفرس أو هى فارسية معنى ومبنى. والسبب فى اقتباسهم آداب الفرس دون العرب أن العثمانيين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى. وهؤلاء كانوا قد اختلطوا بالفرس فى خراسان وتأدبوا بآدابهم وأصبحت (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢،

ص٩٥) اللغة الفارسية لغة العلم والأدب عندهم فضلاً عن السياسة وانتقلوا إلى آسيا الصغرى وحملوا تلك الآداب معهم. فلما جاء العثمانيون إلى تلك الأصقاع وأسسوا دولتهم على أنقاض تلك الدولة ورثوا ما خلفوه لهم من الأدب والأدباء والعلم والعلماء. فانتقل ذلك التمدن من دولة إلى دولة وهو سائر فى طريقه الطبيعي. فسمّي عثمانيًا بعد أن كان سلجوقيًا .

ولا يراد بذلك أن الأتراك لم يتحدوا العرب أو لم يأخذوا شيئًا من آدابهم فإن العلوم الإسلامية وسائر الآداب الدينية كان المسلمون على اختلاف لغاتهم يتفهمونها بالعربية، ولذلك كثرت الألفاظ العربية فى اللغات الإسلامية وخصوصًا الفارسية والتركية. وإذا قلنا : إن الأتراك اقتبسوا آدابهم من الفرس فقد اقتبسوا معها كثيراً من آثار اللغة العربية وآدابها التى كان الفرس قد اقتبسوها قبلهم، غير الذى اقتبسه الأتراك من اللغة العربية رأسًا من الألفاظ والآداب الدينية. ولذلك كانت الألفاظ العربية فى اللغة التركية أضعاف الألفاظ الفارسية فيها وإنما يقتصر بحثنا فى تاريخ آداب اللغة التركية هنا على الأدب والشعر وهما مأخوذان عن الفرس.

وأقدم الآداب التركية العثمانية الشعر، وأقدم ما حفظ منه

للشيخ بهاء الدين أحمد المعروف بسلطان[1] ولد ابن جلال الدين الرومي صاحب منظومات «المثنوي» الفارسية الشهيرة. وكان هذا الشاعر معاصراً للسلطان عثمان الأول. ثم ظهر شاعر آخر اسمه عاشق باشا[2] نظم قصيدة طويلة تعرف بديوان عاشق باشا. ثم نبغ شعراءُ آخرون منهم الغازي فاضل وشيخ كرميان وكان معاصراً لمراد الثاني[3] ونظم مثنوياً بناه على القصة المشهورة عند الفرس عن كسرى وشيرين. وعاصر هذا أيضاً شاعر اسمه يازجي أوغلو[4] فنظم السيرة النبوية وسماها «محمدية» ثم ظهرت قصة الأربعين وزيراً لشيخ زاده[5]، كل ذلك قبل استيلائهم على القسطنطينية.

فلما فتحوها تنبهت القرائح وظهر بعد قليل شاعر تَتَرِىٌ اسمه مير على شير ويعرف باسمه القلمي «نوائي» نظم شعراً أعظم الأتراك قدره وقلدهُ أحمد باشا[6] أحد وزراء محمد الفاتح وأشاعه بين قومه فأحدث نهضة في قرائحهم. وتبعه سنان باشا[7] الوزير وكان ناثرًا بليغًا حبب النثر إلى الأتراك وخلف كتابًا له سمّى «التضرعات». وعاصر محمد (الهلال،

---

(١) انظر: تاريخ الأدب التركي: د. حسين مجيب المصري، ص٢٤ ط. الدار الثقافية القاهرة ٢٠٠٠.

(٢) نفسه: ص ٣٥. (٣) نفسه: ٦٠ (٤) انظر: تاريخ الأدب التركي

(٥) نفسه: ص ٦٧ (٦) نفسه: ص ٧٠ (٧) نفسه: ص٨٣.

١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٦) الفاتح الشاعران الموسيقيان نجاتي[(١)] وذاتي[(٢)] والشاعرتان زينب[(٣)] ومهري[(٤)]. وكان محمد الفاتح[(٥)] محبًا للأدب مثل أكثر سلاطين آل عثمان فقرب الأدباء إليه ونشطهم. ولا يستغربن القارئ رغبة أولئك السلاطين في أهل الأدب فقد كانوا هم أنفسهم من أهله فعددهم ٣٥ سلطانًا كان فيهم ٢١ شاعرًا لكل منهم شعر محفوظ. وأشعرهم السلطان سليم[(٦)] الفاتح فإنه أضاف إلى سبقه في الفتح تقدمه في الشعر والأدب. ولكن أكثر منظوماته في اللغة الفارسية ويظهر مما نظمه في التركية أنه كان نابغة الشعراء.

نبغ في زمن السلطان سليم هذا كمال باشا زاده[(٧)] ويعرف بابن كمال وأجاد في النظم والنثر. ومن شعره رواية موضوعها يوسف وزليخة وأخرى اسمها نيكارستان تحدى فيها السعدي الفارسي صاحب «كلستان».

ولما تسلم سليمان[(٨)] بن سليم العرش العثماني حدث في آداب اللغة التركية نهضة أخرى فتلطف أسلوبها واشتغل الأدباء

---

(١) نفسه، ص١٠٩.
(٢) نفسه، ص٩٠.
(٣) نفسه، ص٨٧.
(٤) تولي ما بين ٨٥٥ و ٨٨٦هـ
(٥) انظر: تاريخ الأدب التركي ص٦٠.
(٦) نفسه، ص٩٥.
(٧) نفسه، ص٩٥.
(٨) تولى ٩٢٦-٩٧٤هـ

في انتقاء الألفاظ الفصيحة مع توخى السهولة والرشاقة. وأشعر الشعراء فى أيامه «فضولى»[1] أحد أئمة الشعر فى العصر التركى القديم وأصلهُ من بغداد وكانت لغته خليطًا من التركية العثمانية والأذربيجانية. ولكنه اتخذ لنفسه أسلوبًا لم يسبقه إليه أحد. ومن آثاره ديوان يعرف باسمه وكتاب فى ليلى ومجنونها. وقد عاصره شاعر آخر اسمه «باقى»[2] كان فى الآستانة وله قصيدة نفيسة فى السلطان سليمان. وعاصرهما آخرون أشهرهم روحى[3] ولمعى[4] ويحيى[5] بك الإنكشارى وأبو السعود المفتى وغيرهم.

وفى عهد السلطان أحمد الأول[6] ظهر كبير شعراء عصره «نفعى[7] الأرضرومى» وامتاز بأسلوب خاص به كما امتاز فضولى قبله. وتوالى ظهور الشعراء مما يطول وصفه. وأشهرهم فى ذلك العصر صبرى شاكر والنائلى وجورى وفهيم[8] ونابى[9] والسيد وهبى وراغب باشا ورحمى القريمى وكليم وسامى. ومن الكتاب المشاهير فى ذلك العصر ثابت وراسخ وطالب لكل منهم أسلوب خاص. ونبغ فى عهد السلطان أحمد الثالث نديم[10] أشعر شعراء

(١) تاريخ الأدب التركي ص١١٣. وانظر كذلك: فضولي البغدادي أمير الشعر التركي القديم للدكتور/حسين مجيب المصري.
(٢) نفسه، ص١٢٤. (٣) نفسه، ص١٣٣. (٤) نفسه، ص١٠٥.
(٥) نفسه ص١٢٠ (٦) تولي (١٠١٢ - ١٠٢٦هـ) ( ) نفسه، ص١٤١.
(٨) نفسه، ص١٤٦ (٩) نفسه، ص١٤٩. (١٠) نفسه، ص١٥٦.

العصر القديم على الإطلاق توفى سنة ١٠٩٢هـ لم يقلد نديم أحداً من أسلافه ولا قلده أحد من خلفائه. ويمتاز شعره بالزهو وهو آخر أصحاب الطريقة القديمة التي بلغت إبانها من تولى السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٣م (١٠١١هـ) إلى خلع السلطان (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٧) أحمد الثالث سنة ١٧٣٠م (١١٤٢هـ).

ومن أدباء ذلك العهد الذين اشتغلوا بالنثر على شلبى فإنه نقل كتاب أنوار سهيلى من الفارسية إلى العربية للسلطان سليمان الأول وسماه «همايون نامه» ومنهم سعد الدين[1] أحد رجال مراد الثالث كتب تاريخاً نفيساً للدولة العثمانية من أقدم زمانها إلى موت السلطان سليم سماه «تاج التواريخ» ثم جاء بعده نعيماً المؤرخ المشهور وتاريخه يمتد من سنة ١٥٩١ إلى سنة ١٦٥٩ ونبغ غيرهم من المؤرخين مثل طاش كوبرى زاده وعطاء ، وحاجى خليفة صاحب كشف الظنون وغيرهم.

وتعدُّ الفترة بين آخر الطريقة القديمة وأول الحديثة أى من خلع السلطان أحمد الثالث[2] إلى زمن محمود الثانى[3] عصراً

(١) تاريخ الأدب التركي، ص١٣٩. وانظر أيضاً: ص٧ من نفس المصدر.
(٢) تولي من (١١١٥ - ١١٤٣هـ).
(٣) تولي من (١٢٢٣ - ١٢٥٠هـ).

قائمًا بنفسه ظهر فيه من الشعراء بليغ ونورس وحشمت وسنبلى زاده وفبى وبرتو باشا والشيخ غالب[1]. وهذا الأخير من قهارمة الشعر التركى وله قصيدة سماها «حسن وعشق» ضمنها كثيراً من بدائع الوصف ودقائق الشعور. ومن أشهر الكتبة المنشئين فى هذا العصر راشد مؤرخ الدولة. وعاصم[2] مترجم القاموس العربى والبرهان القاطع الفارسى إلى اللغة التركية. وكانى[3] الكاتب الظريف وغيرهم.

النهضة العلمية الأخيرة

وأما النهضة الأخيرة فتبدأ بسلطنة محمود الثانى إذ أخذ الناس بعوامل التمدن الحديث وجعل الكتاب يقتبسون آداب الإفرنج وعلومهم ويتعلمون اللغة الفرنساوية ويطالعون آداب الفرنساويين وغيرهم من الإفرنج. ويعدُّ الجزء الأول من هذا العصر زمن انتقال حصل فيه نزاع بين الطريقتين القديمة والحديثة وهو زمن جهاد وتنازع. ومن أشهر المجاهدين فى هذا السبيل لتمهيد الطريق للأسلوب الحديث الشعراء فاضل[4] بك وواصف[5] وعزت ملا وبرتو[6] باشا وعاكف[7] باشا والشاعرتان فتنت[8] وليلى[9]. وتمتاز أقوال هؤلاء جميعًا بشىء من الطرز الجديد وإن كان الأساس فيها الطرز القديم.

---

(١) تاريخ الأدب التركي، ص١٥٨. (٢) نفسه، ص١٨٠.
(٣) نفسه، ص١٦١. (٤) تاريخ الأدب التركي، ص١٦٧.
(٥) نفسه، ص١٧١. (٦) نفسه، ص١٨٦ (٧) نفسه، ص١٨٣.
(٨) نفسه، ص١٦٤. (٩) نفسه، ص١٧٥.

والفضل الأول في القضاء على الأسلوب القديم بالإجادة في الأسلوب الحديث نظماً ونثراً لشناسي[1] افندي المتوفي سنة ١٢٨٨هـ وقد لاقى مشقة ومقاومة قبل فوزه. وأصبح الإنشاء التركي بعده سهلاً عدل فيه أرباب القرائح عن الأسلوب القديم المعقد إلى الأسلوب الجديد السهل فكثر الكتاب والشعراء ونقلة الأفكار الأوروبية إلى اللغة **(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٨)** التركية في العلم والأدب والشعر. ومن متقدمي هذا العصر ضيا[2] باشا وجودت باشا وسعد الله باشا ونامق[3] كمال بك. ولهذا الأخير شأن خاص في آداب اللغة التركية وقد فصلنا تاريخ حياته في الجزء الثاني من «تراجم مشاهير الشرق».

هذه فذلكة في تاريخ آداب اللغة التركية وأسماء الأدباء والشعراء الذين توفوا. وقد رأيت أن أكثرهم من أهل المناصب الرفيعة والرتب العالية وفيهم بضع شاعرات يشهدن بذكاء المرأة التركية واقتدارها. ويعدُّ من الأدباء أيضاً بعض مشاهير الوزراء مثل مصطفى رشيد باشا وفؤاد باشا وغيرهما.

وهذه أسماء أشهر أدباء الأتراك الذين توفوا من آخر القرن التاسع للهجرة إلى أوائل القرن الرابع عشر وخلفوا آثاراً مدونة في اللغة التركية:

---

(١) نفسه، ص١٨٧. (٢) نفسه، ص١٩٣. (٣) نفسه، ص١٩٩.

	توفي سنة		توفي سنة
سنان باشا	٨٩١ هـ	عاكف باشا	١٢٦٤هـ
فضولى بغدادى	٩١٠ هـ	مصطفى رشيد باشا	١٢٧٤هـ
نعيما المؤَرخ	١٠٦٥هـ	فؤاد باشا	١٢٨٥هـ
نديم	١٠٩٢هـ	أدهم برتو باشا	١٢٨٩هـ
كانى	١١٢٤هـ	شناسى	١٢٨٨هـ
حقى باشا	٠٠٠٠هـ	ضيا باشا	١٢٩٧هـ
قوجه سكبان	١١٥٠هـ	سعد الله باشا	٠٠٠٠هـ
باشى	١١٦٩هـ	نامق كمال بك	١٣٠٥هـ
عاصم المترجم			

شعراء هذا العصر وكتابه

يقى علينا أن نأتى على ذكر الشعراء والكُتّاب الذين لا يزالون على قيد الحياة وهم أصحاب الحركة الفكرية فى الآستانة اليوم. ولو شئنا تفصيل أعمالهم لاستغرق ذلك مجلداً ضخماً فنكتفى بكلام إجمالى:

الشعــراء

١ : رجائى زاده أكرم المشهور بأكرم بك وهو الآن من الأعيان.

٢ : عبد الحق حامد بك سفير الدولة العلية فى مدريد.

٣ : توفيق فكرت بك وهو شاب مدير المدرسة السلطانية فى بيره.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص٩٩)

٤ : أشرف افندى هو هجاء بليغ وقد تولى ولاية أطنه.

٥ : مستجابى زاده.

المنشئون والمؤلفون

١ : سعيد بك، لهُ مؤلفات كثيرة فى كل موضوع ويحرر فى الجرائد.

٢ : أبو الضيا توفيق بك، صاحب جريدة يكى تصوير أفكار وهو كاتب رشيق.

٣ : أحمد مدحت افندى، مؤلفاتهُ كثيرة فى التاريخ والأدب.

٤ : أحمد راسم، مؤلف ومحرر جرائد.

٥ : حسين جاهد بك، صاحب جريدة طنين ومحررها وعضو فى مجلس المبعوثان.

٦ : عشاقى زاده خالد ضيا بك، باشكاتب المابين.

٧ : على كمال بك، كاتب ومؤلف أسلوبهُ سهل ممتنع وهو الآن

هارب فى باريس.

٨ : بابان زاده إسماعيل حقى، كاتب ومحرر.

٩ : محمود أسعد افندى ناظر الدفتر الخاقانى، أكثر مؤلفاته حقوقية.

١٠ : سليمان نظيف بك، محرر جرائد.

١١ : أحمد جودت بك، صاحب جريدة أقدام.

١٢ : عبد الله زهدى بك، صاحب يكى غزته.

١٣ : محمود صادق بك، محرر.

١٤ : عبيد الله افندى، مبعوث ايدين.

١٥ : أحمد إحسان افندى، صاحب ثروت فنون.

١٦ : الدكتور عارف عصمت، مبعوث بيره.

١٧ : سامح بك شاعر ومحرر، هو متصرف بيره.

١٨ : ديران كليكيان (أرمنى) محرر صباح.

١٩ : إسماعيل مشتاق باشكاتب مجلس الأعيان.

٢٠ : سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان هو أكبر الكتاب الأتراك.

٢١ : على شفيق بك محرر وشاعر هجاء، هو مفتش المعارف فى بتليس.

٢٢ : جاويد بك ناظر المالية، له مؤلفات مهمة فى فن الاقتصاد.

٢٣ : موسى كاظم افندى من الأعيان، كاتب فى المواضيع الشرعية.

٢٤ : إسماعيل حقى افندى، كاتب فى المواضيع الشرعية.

٢٥ : مصطفى عاصم افندى مبعوث استامبول، أكثر آثاره دينية.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٠)

٢٦ : محمود شوكت باشا حامى الدستور، له مؤلفات عسكرية.

٢٧ : أحمد مختار باشا (الغازى) من الأعيان، له مؤلفات عسكرية.

٢٨ : أحمد مختار باشا ناظر المهندسخانة، له مؤلفات عسكرية.

٢٩ : عثمان ثنائى بك قائمقام، له مؤلفات عسكرية.

٣٠ : نجيب عاصم بك قائمقام، له مؤلفات عسكرية.

٣١ : أحمد رشيد بك، يوزباشى، له مؤلفات عسكرية.

٣٢ : على رشاد بك، مدير مكتب وفا الإعدادى كاتب ومترجم.

هؤلاء أشهر أدباء الأتراك المعاصرين. وهناك أدباء من أبناء العرب يحسنون الإنشاء التركى نعرف منهم زكى مغامز بك من رؤساء تحرير «صباح» فإنه منشئ مجيد فى اللغة التركية فضلاً عن العربية. ويلاحظ على الإنشاء العصرى عند الأتراك أن أبلغهم فيه أكثرهم اطلاعاً على آداب اللسان العربى.

الصحافة في الآستانة

الصحافة قديمة فى الآستانة وأول صحفها جريدة مونيتور دوريان صدرت بالفرنساوية سنة ١٨٣١ ثم ظهرت بالتركية وسميت تقويم وقائع ثم ظهرت جريدة حوادث وغيرها وتكاثرت الصحف فى زمن عبد المجيد وعبد العزيز فبلغت ٣٦ صحيفة سنة ١٨٦٦ بالتركية غير الجرائد الإفرنجية. وما زالت تتزايد حتى بلغ عددها فى آخر حكم عبد العزيز ٤٦ صحيفة فصلناها فى الهلال الأول من السنة الماضية. وتكاثرت فى زمن عبد الحميد الجرائد الحرة وأكثرها ظهر خارج الآستانة فراراً من المراقبة وخوفاً من الظلم مما يطول بنا شرحه وقد ذكرنا تاريخه فى الهلال المذكور. إنما نقتصر فى هذا المقام على الصحف الحية التى تصدر اليوم فى الآستانة مع أسماء أصحابها ومناهجها وعدد ما يطبع منها على وجه التقريب. وقد عولنا فى ذلك على أعرف الناس بها.

١ – الجرائد التركية اليومية

اسم الجريدة	اسم صاحبها	خطتها	عدد النسخ التي تطبع منها
اقدام	أحمد جودت	(تعطلت)	٢٠ ٠٠٠
صباح	مهران افندى	معتدلة	١٥ ٠٠٠
طنين	حسين جاهد بك	حرة	١٥ ٠٠٠
يكى تصوير أفكار	أبو الضيا توفيق بك	متطرفة	١٠ ٠٠٠

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠١)

اسم الجريدة	اسم صاحبها	خطتها	عدد النسخ التي تطبع منها
اتحاد	نسيم مزلياح افندى	معتدلة	١٢ ٠٠٠
ترجمان حقيقت	كانت لمدحت افندى		٣ ٠٠٠
سعادت	أحمد فتحى		٣ ٠٠٠
تقويم وقائع	الحكومة	رسمية	٨٠٠
يكى غزته	عبد الله زهدى		١٢ ٠٠٠
سر صاعقة حرية	لجمعية الترقى.		٣ ٠٠٠

٢– الجرائد التركية الاسبوعية

اسم الجريدة	اسم صاحبها	خطتها	عدد النسخ التي تطبع منها
ثروت فنون (مصورة)	أحمد إحسان	أدبية	٤ ٠٠٠
استشارت	تحررها لجنة	حقوقية	١ ٠٠٠

١ ـ الجرائد التركية اليومية

اسم الجريدة	اسم صاحبها		عدد النسخ التي تطبع منها
مصور محيط (مصورة)		أدبية	٢ ٥٠٠
صراط مستقيم	تحررها لجنة	دينية	٢ ٠٠٠
بيان الحق		علمية	١ ٠٠٠
شهبال (مصورة)		أدبية	٠ ٠٠٠
مجموعة علوم	كانت لجاويد بك	اقتصادية	٠ ٠٠٠
اقتصادية	صالح جمجوز		١٠ ٠٠٠
قلم (مصورة)	فؤاد بك	هزلية شتامة	١٠ ٠٠٠
قره كوز		هزلية	٥ ٠٠٠
لقلق (مصورة)	محمود كنعان	هزلية	٥ ٠٠٠
القاووق (مصورة)		هزلية	١ ٠٠٠
دواول		هزلية	٢ ٠٠٠
عالم (مصورة)		نسائية	١ ٠٠٠

قادين			
محاسن		نسائية	١٠٠٠
جريدة عسكرية	للحكومة	رسمية	—
جريدة بحرية	للحكومة	رسمية	—
جريدة التجارة	للحكومة	رسمية	—
جريدة بيطرية	للحكومة	رسمية	—
رسلى كتاب (مجلة شهرية)		رسمية	٢٠٠٠

الهلال ١٩٠٩م/ ١٣٢٧هـ ص ١٠٢

٣- الجرائد العربية التى ظهرت بعد الدستور وكلها اسبوعية

الدستور	احمد باشا	تعطلت
شمس العدالة	السلاوى	تعطلت
شمس الحقيقة	السلاوى	تعطلت
القسطاط		تعطلت
المساواة	لمخزومى باشا	تعطلت
الاخاء العربي	للجمعية العربية	تعطلت
العدل	صفا بك	تعطلت ثم ظهرت
كلمة الحق	لابراهيم افندي النجار	لاتزال تصدر

٤ - الصحف الأجنبية

أكثر الصحف الأجنبية عدداً فى الآستانة اليونانية (أو الرومية) أشهرها قوتستانتينو بوليس وتاخدرومس وبروذوس. ثم الأرمنية فالفرنساوية أشهرها إسطمبول ولا تركى ولفانت هرالد والمونيتور أورينتال وفيها جرائد ألمانية. أما الإنكليزية فلا يصدر منها من الصحف إلا اللفانت هرالد مع الفرنساوية. وهناك جرائد حرفها أرمنى ولغتها تركية وجرائد رومية حرفها يونانى ولفظها تركى وجرائد أسبانية حرفها عبرانى.

ويقال على الإجمال أن معول أرباب الصحف فى الآستانة على بيع جرائدها فى الأسواق نقداً وليس على الاشتراك كما هو الحال عندنا. وقد رأيت عدد ما يطبع منها فى اليوم أضعاف ما يطبع من جرائدنا ولكن يظهر أن الجرائد الإفرنجية عندنا أضعاف ما عندهم مما يدل على تغلب العنصر الأجنبى بمصر عما هو فى الآستانة.

المطابـــع

الآستانة أسبق مدن الشرق إلى استخدام حروف الطباعة العربية. فقد ظهرت فيها الطباعة فى أوائل القرن الثامن عشر وكانت حروفها فى أول الأمر على شكل الحرف الباريسى لأن مؤسس المطبعة الأولى فى الآستانة محمد سعيد افندى اقتبس

الرغبة فى إنشائها من باريس وكان قد أقام فيها وشاهد مطابعها العربية. ثم عنى عبد الرحيم افندى بصب حروف جديدة هى أساس قاعدة الحرف الإسلامبولى المشهور. ثم أتقنت هذه القاعدة نحو سنة ١٨٧٣ وعنها نقلت القاعدة الإسلامبولية الشائعة الآن فى سوريا ومصر(١).

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٣)

أقدم حروف الطباعة العربية

وللطباعة فى الأستانة تاريخ طويل لا محل له هنا ويقال بالإجمال إنها أرقى من الطباعة عندنا من حيث الإتقان والجمال فإنها تقرب من إتقان مطابع أوروبا. وأشهر مطابع الأستانة الآن «المطبعة العثمانية» وأنفسها وأتقنها «مطبعة أبى الضياء» ثم مطبعة صباح، ومطبعة طاهر صاحب جريدة معلومات المحجوبة وتعرف الآن بمطبعة الوطن. ثم مطبعة أحمد إحسان التى تطبع فيها ثروت فنون ومعظم هذه المطابع إسلامية وهناك مطابع كثيرة أصحابها من الأرمن.

---

(١) يتلو هذه العبارة قول الكاتب: «وهي التي تقرأ بها هذه المقالة؛ فقابل بينها وبين أقدم حروف الطباعة العربية في هذا الرسم، (ثم أتي بصورة توضح شكل الخط الإسلامبولي المشهور)، ونظراً لعدم قيمة هذه العبارة في الوقت الحاضر رأينا حذفها من النص.

وكان للحكومة العثمانية مطبعة اسمها «المطبعة العامرة» كان حرفها من خط التعليق فى غاية الجمال وقد أقفلت فى عهد عبد الحميد وستفتح قريباً. ومن المطابع الأميرية أيضاً مطبعة للبحرية وأخرى للسر عسكرية تطبع فيها الجريدة العسكرية وجريدة البحرية ومطبعة كانت فى المدرسة الحربية لطبع كتب التدريس.

المدارس

المدارس فى الأستانة إما أميرية تابعة للحكومة أو أجنبية. والمدارس الأميرية إما ملكية أو عسكرية. والملكية أربع درجات:

(١) ابتدائية. (٢) رشدية. (٣) إعدادية. (٤) عالية.

والمدارس العسكرية أربع درجات:

(١) رشدية. (٢) إعدادية. (٣) إعدادية طبية. (٤) عالية.

ولكل من هذه الدرجات مدرسة أو غير مدرسة حسب الاقتضاء. ومن المدارس العالية مدرسة طبية ملكية، ومدرسة طبية عسكرية، ومدرسة للحقوق لها فروع فى بغداد وسلانيك ومدرسة للهندسة (مهندسخانه) ملكية ومدرسة هندسية عسكرية ومدرسة بحرية. ومن قوانين هذه المدارس أن الحكومة مطالبة بتوظيف تلامذة المدارس الملكية العالية والعسكرية والبحرية والطبية الملكية والمهندسخانه.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٤)

وفى الآستانة دار للمعلمين ودار للمعلمات يتخرج فيهما المعلمون والمعلمات. وهناك مدارس للبنات من درجة الرشدية. ومدرسة صنائع للأولاد اسمها «صبيان صنائع مكتبى» يخرج تلامذتها جنداً . ومدرسة للتجارة وأخرى للبيطرة وأخرى للموسيقى العسكرية اسمها «موسيقى همايون».

والتعليم فى هذه المدارس باللغة التركية أى إنها قاعدة التدريس فيها ولكن تعليم اللغتين العربية والفرنساوية إجبارى. ويعلمون فى المدارس الحربية أيضاً اللغة الألمانية واللغة الروسية. وفى المدرسة الملكية العالية يعلمون الرومية والأرمنية. ويعلمون اللغة البلغارية لمن يريد بلا إجبار.

وهناك مدارس فى الجوامع لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن ويلقنون فيه مبادئ اللسان العربى.

والتعليم فى المملكة العثمانية إجبارى بالاسم اقتداء بالأمم المتمدنة لكنهم لم يكونوا يجبرون أحداً عليه ولعلهم يفعلون ذلك بعد الدستور وقد زادوا ميزانية المعارف وأصحاب هذا الانقلاب أعلم الناس بفائدة التعليم وشدة الحاجة إليه فى تثبيت الحكومة الدستورية لأنه الوسيلة الوحيدة لرفع التعصب الضار.

أما المدارس الأجنبية فهى قليلة وأكثرها ابتدائى. ولكل أمة مدارس ابتدائية لتعليم أبنائها فمنها مدارس أرمنية وروميـة وفرنساوية وغيرها . وقد ساعدت فرنسا على إنشاء المكتب السلطانى وهو من الدرجة الإعدادية لإتقان اللغة الفرنساوية.

أما المدارس الأجنبية العالية فأهمها ثلاث:

أولاً: مدرسة روبرت الأمريكية وهى كلية على نمط المدرسة الكلية السورية فى بيروت قائمة على ضفة البوسفور بجوار محطة بك وهى بضع أبنية كبيرة. وكان لها شأن كبير فى بث روح الحرية والشجاعة الأدبية فى أبناء المملكة العثمانية فكانت عونًا على نيل الدستور.

ثانيًا : مدرسة الثالوث اليونانية فى جزيرة خالكى من جزائر الأمراء يتخرج فيها تلامذة اللاهوت فى العلوم العالية وقد ظهر من تلامذتها عدد كبير.

ثالثًا : مدرسة الفنار فى حى الفنار باستامبول وهى علمية تجارية.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٥)

المكاتب

قد تقدم فى الكلام عن الجوامع أن عددها نحو ٤٨٠ جامعًا وأكثرها لا يخلو من مكتبة فيها بعض الكتب المفيدة ولكن فى الآستانة مكاتب عمومية بعضها فى الجوامع والبعض الآخر فى

غيرها وقفها أهل الفضل على المنفعة العامة لكل منها فهرست يستدل الطالب به على مواضيع الكتب فيطلب ما شاء للمطالعة والنسخ. أشهرها وأكبرها الكتبخانه العمومية بجانب جامع با يزيد فإنها تشبه الكتبخانه الخديوية من حيث ترتيب الكتب فى الخزائن ووجود الطاولات للمطالعة أو النسخ. وأما سائر المكاتب فمع وجود الفهارس لها يصعب الحصول على الكتاب المطلوب لأنها مرتبة على نسق قديم ويبلغ عدد المكاتب المهمة فى الآستانة ٢٩ مكتبة فيها من الكتب نيف وسبعون ألف مجلد، وهذه أسماء المكاتب وعدد المجلدات فيها:

كتبخانه عموميه	١٣٤٦٤	كتبخانه قليج على باشا	١٠٦٣
كتبخانه لا له لى	٣٧٩٠	كتبخانه ولى الدين جار الله	٢١٣٢
كتبخانه محمد الفاتح	٥٤٠٠	كتبخانه محمد مراد افندى	١٩٢٧
كتبخانه شهيد على	٢٨٧٨	كتبخانه مصطفى افندى بروسوى	٢٦٢
كتبخانه أيا صوفيا	٥٠٧٢	كتبخانه يكى جامع	١٥٣٤
كتبخانه نور عثمانية	٥٠٦٠	كتبخانه سليمانيه	١٠٧٧
كتبخانه السلطان با يزيد	٣٢٨٥	كتبخانه داماد إبراهيم باشا	١١٥٢
كتبخانه محمد باشا كوبريلى	٢٧٧٩	كتبخانه سليميه	٦٥٥
كتبخانه عاشر افندى شيخ الإسلام	٢٢٧٩	كتبخانه توفيق يحيى	٤٦٢
كتبخانه أسعد افندى نقيب الأشراف	٣٩١٩	كتبخانه خسرو باشا	١١٧٧
كتبخانه عاطف افندى	٢٨٦٣	كتبخانه محمد افندى كتخدا	٢٢٠
كتبخانه فيض الله افندى	٢١٨٩	كتبخانه سلطان مرحوم وقاضى زاده	٥٦٦
كتبخانه حميديه	١٤٨٢	كتبخانه مهر شاه والدة سلطان	٤٥٤
كتبخانه حميديه أخرى	٧٦٢	كتبخانه راغب باشا	١٤٩١
كتبخانه حكيم أوغلى باشا	٢٠٧٣	(الجملة)	٧١٤٦٧

وإذا أحصيت هذه المجلدات بالنظر إلى مواضيعها رأيت أكثرها فى الفقه ثم اللغة فالحديث فالتفسير فالأدب فالتصوف فالتاريخ على هذه الصورة:

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٦)

اسم المكتبة	كتب التفسير	كتب الحديث	كتب الفقه	كتب التصوف	كتب التاريخ	كتب الأدب	كتب اللغة	الفنون الأخرى
عمومية	٤٥٣	٤١٧	٧٨٤	٥٧٠	٤٠٥	٤٥٠	١و٠٠٠	٩و٣٨٥
لاله لى	٢٨٥	٤٢٨	٧٨٤	١٨٨	١٢٣	٢٩٩	٧٦٠	٩٢٣
محمد الفاتح	٥٨٨	٥٧٥	١و٠٥٠	٢٥٠	٢٥١	٥٠٣	٦٣٠	١و٣٥٢
شهيد على باشا	٢٩٦	٢٦٤	٤٢٢	٢٤٤	١٣٢	٤٢	٣٢٩	١و٠٤٩
أيا صوفيا	٣٧١	٥٢٠	٥٩٢	٥٤٠	٦٠٤	٥٩٤	٢٩٦	١و٥٥٥
نور عثمانية	٥٠٧	٦٨٤	٦٣٥	٤٣٧	٤١٥	٧٥٩	٣٢١	١و٣١٣
سلطان بيازيد	٤٠٩	٤١٥	٥١٨	٢٤٥	٢٢١	١٤١	٤٠٠	٩٣٦
كوبرلى باشا	٢٣٤	٣٠٠	٢٤٠	٢٠٠	٣٠٠	٣٥٠	٤٠٠	٧٥٥
أسعد افندى	١٩٦	٥٦٢	٢٧٠	٥٠٣	٣٩٤	٤٥٨	١٨٣	١و٣٥٢
عاطف أفندى	٣١٨	٢٨٤	٤٤٩	١٤٠	١٥٤	٣٠٠	٤٠٠	٩١٨
فيض الله افندى	٢٣٠	٢١١	٥٤٠	٦٦	١٨٧	٢٢٠	٢٥٠	٣٨٥
حميدية	١٨٨	٢٥٥	١١٢	٢٢٥	٢١٠	٣١٠	٢٨٠	٦٦٤
حكيم أوغلى	٢٠٤	٢٤٧	٢٦٧	٢٦١	١٧٥	١٨٥	٢٢٠	٥١٤
قيلج	١٤٤	١٠٤	١٩١	٦٣	٤٣	٧٤	١٨٣	٢٦١
ولى الدين	٢٢٨	١٨٢	٤٨٥	١٣٥	٦٣	١١٨	٢٨٥	٦٣٧
محمد مراد	٣٠٢	٢٩٥	٢٤٦	٧٦	٤٩	١٦	٢٤٢	٦٢١
يكى جامع	١٩٩	١٧٧	٣٨٠	٥٧	١٣٢	١٠٥	١٦٠	٣٢٤
السليمانية	١٣٧	١٦٢	٣٠٥	٥٥	٢٩	٣٠	١٤٠	٢١٥
داماد إبراهيم	٢٢٤	١٩٣	٢٤٩	٢٤	٦٤	٤٣	١٨٨	١٦٧
السليمية وتوفيق	٨٨	١٦٠	١٣٦	١٤٤	٩٣	١١٧	١٦٣	٢١٦
خسرو باشا	٢٢	٤٥	٤٧	٥٤	١٤٠	١٧٧	٧٨	٦١٤
كتخدا وسلطان محمد	٩٥	٧٣	١٩١	٣٢	٢٩	٧١	١٢٤	١٧١
مهرشاه	٤٤	٤٥	٦١	٧٠	٢٥	٦٣	٤٣	١٠٣
راغب باشا	٢١٦	٢٩	٢٣٧	٧٦	٨٨	١٥٦	٢٠٠	٤٨٩
عاشر وبروسوى	١٢١	٨٧	١٥٢	٤١	٧٤	٢٠٧	١٣٢	١و٧٢٧
(المجموع)	٦٠٩٩	٦و٨١٤	٩و٤٢٨	٤و٨٨٦	٤و٧٩٩	٥و٨٨٧	٧و١٠٧	٢٦و٧٤٨

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٠٧)

بقى أن ننظر فى لغة تلك الكتب فهى إما عربية أو تركية أو فارسية ويختلف ذلك باختلاف المواضيع. فالمصاحف كلها عربية طبعًا والتفاسير عربية إلا خمسة فى المائة تركى وخمسة فارسى. والحديث عربى إلا عشرة فى المائة تركى أو فارسى. وكذلك الفقه والفتاوى وغيرها. أما كتب التصوف فثلثها عربى والثلث الآخر تركى والآخر فارسى وكذلك الرياضيات وكتب التاريخ يغلب فيها التركى ثم العربى فالفارسى. والأدب أكثره عربى وأقله فارسى وأكثر الفارسى من الدواوين. وكتب اللغة كلها عربى إلا النادر. فترى من ذلك أن معظم الكتب فى مكاتب الأستانة عربى.

والكتب المذكورة أكثرها خطىٌّ وربما وجد من الكتاب الواحد عدة نسخ فى المكتبة الواحدة فكيف إذا جمعت كتب الموضوع الواحد فى سائر المكاتب. فمع كون مجموع مجلدات هذه المكاتب يقارب مجموع مجلدات المكتبة الخديوية فإن هذه تحتوى من المواضيع أضعاف ما تحويه تلك. لأنها يندر أن يكون فيها من الكتاب أكثر من ثلاث نسخ وأما تلك فربما وجد من الكتاب الواحد عشر نسخ أو عشرون أو أكثر وإنما أهمية مكاتب الأستانة بالكتب

الخطية القديمة وبينها بعض النسخ النادرة وسنشير إلى ذلك فى تاريخ آداب اللغة العربية الذى سيصدر ملحقًا لهذه السنة. وفى عزم الحكومة العثمانية ضم هذه المكاتب فى مكتبة واحدة ترتب ترتيبًا يسهل الانتفاع بها.

وسنأتى على بسط حالة الآستانة السياسية فى الهلال القادم إن شاء الله .

* * * *

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٣، ص١٣١)

٨ ـ حالتها السياسية

إن النظر فى حال الآستانة السياسية أهم من النظر فى سائر أحوالها لأننا فى أوائل الانقلاب السياسى. وقد اختلفت الأقوال فى حقيقة حالها وتضاربت الآراء فى مصيرها بين متفائل يرى الأمور قد استقرت وأن النفوس قد أشربت بالدستور فلا خوف على الدولة من رجعة أو ثورة. ومتشائم يرى الخطر محدقًا بها من كل ناحية فيخاف عليها انقسام العناصر وتفرق الأديان ومطامع بقايا العهد الماضى. أو يخشى نقمة الذين قضى عليهم بالعقاب نفيًا أو عزلاً وغير ذلك من التغييرات التى اقتضاها هذا الانقلاب. وهناك طائفة توسطوا فى آرائهم ومخاوفهم.

ونظر محبو الدولة العثمانية فى الوسائل اللازمة للمحافظة على الدستور وملافاة ما يخشى منه عليه فاختلفوا فى وصف الدواء وفى تعاطيه كما اختلفوا فى تشخيص العلة وتعيين موضعها. فلما رحلنا إلى الآستانة فى الصيف الماضى جعلنا همنا البحث فى حالتها السياسية لم ندخر وسعًا فى التنقيب عن الأسباب والنتائج واستخراج الحقائق من مظانها والسؤال (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٣، ص١٣٢) عن الاختلافات من أصحابها على اختلاف العناصر والأحزاب والمذاهب. وتعرفنا إلى

خيرة أرباب الحل والعقد ودرسنا أميالهم وتبطنًا أغراضهم وحقيقة مقاصدهم ثم نظرنا في ذلك كله نظر الناقد المعتدل فوصلنا إلى نتيجة نحن باسطوها في ما يلي:

الحكومة العثمانية وسائر الحكومات

الحكومة العثمانية اليوم دستورية ولكنها تختلف عن سائر الحكومات الدستورية من حيث القوى التي تتنازعها أو تدير شئونها، فالحكومة في الممالك الدستورية على الإجمال يدير شئونها قوتان نواب الأمة والوزراء. وأما الدولة العثمانية فيتنازع حكومتها ثلاث قوى النواب والوزراء وجمعية الاتحاد والترقي. وليست مداخلة هذه الجمعية في شئون الدولة بدعة من بدع الدستور العثماني كما يتبادر إلى الأذهان ولكنه طبيعي في أوائل الانقلاب وقد وقع مثله في سائر الدول العظمى عند انقلابها. ولكن جمعية الاتحاد والترقي تمتاز عن سواها من الجمعيات السياسية والانقلابية أنها شديدة الميل إلى المسالمة وحجب الدماء فقد أحدثت هذا الانقلاب وفي عزمها أن تخالف سنة الاجتماع فتبقي على رجال العهد القديم وتحاسنهم.

فلما أعلنت الدستور في ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ أغمدت السيف وأطلقت الحرية. ثم ما لبثت أن أدركت خطأها وأن للاجتماع سنة لا تتبدل، بعد أن جرت حادثة ١٣ أبريل التي كادت

تذهب بالدستور وأهله لو لم يتداركه شوكت باشا وجنده فدخلوا الأستانة فاتحين وخلعوا السلطان وبايعوا أخاه. ومع ذلك لم يقتل فى هذا السبيل إلا ألف وبعض الألف. وما من دستور إلا كلف أهله ألوفاً من الأنفس فى جملتهم الملوك والشرفاء والكهنة وغيرهم بين نزاع وتطهير. ولنا فى الانقلاب الفرنساوى أكبر شاهد: أعلن الفرنساويون الدستور أو الحرية سنة ١٧٨٩ ولكن السيوف لم تستقر فى أغمادها إلا بعد بضع سنين وهم يطاردون الأشراف وغيرهم من رجال العهد القديم. وقد صادروهم بأموالهم وأملاكهم وما زالوا حتى أبادوهم وساقوا الملك نفسه إلى الذبح كما تساق الأغنام.

فأين ذلك من الانقلاب العثمانى السلمى الذى بدأ بالمحبة والتآلف ولو لم يفتر أهل العهد القديم على الأحرار لم يسفك فى سبيله دم رجل واحد. والفضل فى ذلك لأصحاب (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٣، ص١٣٣) هذا الانقلاب نعنى أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الذين أدهشوا العالم بتعقلهم وحكمتهم واعترف لهم القريب والبعيد أنهم أتوا عملاً لم يسبقهم إليه أحد كما بينا ذلك فى ما كتبناه فى العام الماضى عن تاريخ هذا الانقلاب. وقد ذكرنا هناك تاريخ هذه الجمعية على ما بلغ إليه علمنا يومئذ ونظراً لكثرة تكتمها ما زلنا فى شوق للاطلاع على

تفاصيلها حتى أتينا الآستانة فاستقصينا أصلها وتاريخها من أعرف الناس بها:

جمعية الاتحاد والترقي :

ذكرنا فى الهلال الأول من السنة الماضية أن هذه الجمعية تأسست سنة ١٨٩٤ فى الآستانة ثم انتقلت إلى باريس. وفصلنا كيفية الانتظام فى سلكها وتاريخ تفرعها وما مر عليها من الأدوار حتى تضعضعت برجوع مراد بك إلى الآستانة. ثم نهوضها على يد الداماد محمود باشا وابنه البرنس صباح الدين إلى أن تمَّ الانقلاب على يد فرعها فى سلانيك ومن أعضائه نيازى وأنور. ويؤخذ من مجمل القول هناك أن لجنة سلانيك المشار إليها هى نفس جمعية الاتحاد والترقى التى كان مركزها فى باريس. لكننا علمنا بعد البحث الأخير أن لجنة سلانيك التى تمَّ الدستور على يدها نشأت مستقلة فى سلانيك نحو سنة ١٩٠٦ لكنها تنظمت على مثال الجمعية الأولى من حيث طرق الدخول والغرض الأساسى وأعضاءها من أحرار الأتراك. وأن الجمعية الأولى كان اسمها «جمعية الترقى» ولما صارت فى باريس سميت «جمعية النظام والترقى» وكان أهم أعضائها أحمد رضا بك وخليل غانم والدكتور ناظم بك.

وكأن الأحرار استبطأوا النجاح هناك فنهض جماعة منهم

فى سـلانيك وفـيـهم طـلعت بك ورحـمى بك ومـدحت بك وكـاراسـو وميناسى وألّفوا جمعية على مثال تلك سموه   معية الاتحاد والترقى» وهى أول جمعية من جمعيات الأحرار سميت بهذا الاسم وأخذت تسعى فى طلب الدستور من أقرب الطرق وأعجلها على يد الجيش. فانتظم فى سلكها صغار الضباط من الملازم فما فوق إلى البكباشى وهم قوام الجند وأهل القوة. فبلغ خبر هذه الجمعية إلى «جمعية النظام والترقى» بباريس ورئيسها أحمد رضا بك فتباحثوا فى الاسم. وأرادت لجنة باريس بقاء اسم «النظام والترقى» فلم تقبل جمعية سلانيك (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٣٤) وسعى بعضهم فى ضم الجمعيتين. فلم تقبل جمعية سلانيك فى عضويتها إلا الذين تحققت ثباتهم فى الغرض الأصلى ولم تغوهم أموال عبد الحميد ولا مواعيده. وأخذت تعمل بجد واجتهاد حتى فازت بالدستور كما هو مشهور وقبضت على أزمة الأمور وهى صاحبة الكلمة النافذة والرأى الأعلى وأكثر أعضائها مجهولون. وأما الذين ظهروا من أعضائها وعرفهم الناس فمنهم جماعة من كبار الموظفين فيهم ثلاثة من الوزراء وهم طلعت بك ناظر الداخلية وجاويد بك ناظر المالية ونائل بك ناظر المعارف وهى أهم وزارات الدولة وإليك ما عرفناه من أحوال أشهر أعضاء هذه الجمعية:

أعضاء جمعية الاتحاد والترقي

١ـ **طلعت بك ناظر الداخلية:** أصله من أدرنه سنه ٣٨ سنة وكان في العصر الماضي من مستخدمي التلغراف. وهو ربعة مع ميل إلى السمن جميل الطلعة، دمث الأخلاق، ذكاؤه يزيد على علمه، وفيه اقتدار على الإقناع. إذا جالسه رجل توهم من لطفه ولين عريكته أنه طوع إرادته ولكنه لا يلبث أن ينقاد له صاغراً. وهو عازب وفقير.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٣٥)

٢ـ **رحمي بك:** أصله من سلانيك عمره ٣٩ سنة وهو طويل القامة رقيق العضل أشقر الشعر تزوج وولد له غلام. انتظم في الجمعية وهو غني فبذل ما له في سبيل نصرتها فنسبته إلى هذه الجمعية كنسبة أبي بكر الصديق إلى الصحابة. وكان مع ذلك يتجسس على جواسيس عبد الحميد. وكان عبد الحميد يستاء من نصرته للأحرار ويعدُّه من أهل الفوضى وجرى ذكره مرة بين يديه فقال: «إن رحمي الفوضوي حامل علم الفوضوية».

٣ـ **كاراسو:** هو يهودي أصله من سلانيك ويحترف مهنة المحاماة. ليس له ثروة لكنه ذكي الفؤاد عمره ٥٣ سنة طويل القامة خفيف العضل أسمر اللون ذو لحية شمطاء ويمتاز عن رفاقه بأنه ماسوني وأدخل كثيرين من شبان الأتراك في الجمعية الماسونية.

وهو الآن مبعوث سلانيك وله اقتدار فى فن الاقصاد وأراد مجاراة جاويد بك فى مجلس الميعوثان بالمسائل المالية فلم ينجح فعهدت نظارة المالية إلى جاويد.

٤ - رفيق ميناسى بك: هو من أهل الآستانة يحترف المحاماة وكان فى جملة المحامين عن مدحت باشا فى محاكمته المشهورة فنقم عليه عبد الحميد وأخرجه من زمرة المحامين وحرم من المرافعة فى محاكم الآستانة فالتجأ إلى سلانيك وأخذ فى العمل مع الأحرار توفى عن ٥٢ سنة قضى ٣٥ منها فى بث روح الحرية سراً بين الشبان العثمانيين ممن كان يلتف حوله من الناشئة الأدباء. ولما دنا وقت الفوز كان للأحرار من خيرة أصحاب الرأى لما هو عليه من طول الاختبار والتوسع فى القوانين وكان أسمر اللون كبير اللحية مربعها نزيهًا نشيطًا وتولى نظارة العدلية.

٥ - جاويد بك: أصله من سلانيك وقد عرف بالذكاء وحدة الذهن من صباه واشتهر بميله إلى العلوم مع الاجتهاد فى تحصيلها. وقد فطر على حب العمل فلا تجده إلا مشتغلاً ولا يشتغل إلا بالمواضيع الجدية. عمره نحو ٣٥ سنة قضى معظمها فى الدرس والتدريس وأكثر تدريسه فى العلوم الاقتصادية واشتغل حينًا بتحرير الجرائد والمجلات وله مؤلفات فى الاقتصاد. وهو خطيب مصقع ويعدونه أخطب رجال الدولة العثمانية وأعلمهم بفن

الاقتصاد شهد له بذلك علماء أوروبا وقد تزوج وماتت امرأته ولم تترك له ولداً. وهو ناظر المالية العثمانية الآن يرتزق من راتبه وليس له مرتزق سواه. وهو ربع القامة مع ميل إلى القصر حليق اللحية لطيف الحديث دمث الخلق.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٣٦)

٦ - الدكتور ناظم بك: من أقدم المجاهدين فى سبيل الحرية من عهد لجنة النظام والترقى فى باريز مع أحمد رضا بك. وهو طبيب أصله من سلانيك تعلم الطب فى الآستانة ثم أرسل للتبحر فى هذا العلم بأوروبا فتعرف إلى أحمد رضا بك فى باريس ولازمه وثبت معه فى نصرة الحرية إلى النهاية خلافًا لكثيرين غيرهما أغراهم عبد الجميد بالمال أو الوظائف ورجعوا عن جهادهم. أما الدكتور ناظم فثبت مثل ثبات أحمد رضا وخدم جمعية الاتحاد والترقى خدمًا ذات بال فتولى كتابتها أى إنه كان كاتب سرها والمبشر بمبادئها ورسولها إلى الأطراف. فكان يخرج فى المهمات الصعاب متنكرًا تحت خطر القتل فأظهر فى أعماله دهاءً وذكاءً اعترف له بهما القاصى والدانى. فكثيراً ما كان يتنكر بثوب شيخ أو قسيس أو بائع تبغ أو جندى والبوليس يعلم بخروجه ويتفقده فلا يعثر عليه ولا يستطيع كشفه. وكان أكثر تخفيه فى الروملى الأناطول وخصوصًا فى (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢،

ص١٣٧) أزمير. وهو أسمر اللون قصير القامة ممتلئ الجسم طلق اللسان قوى الحجة يفوق رحمى بك بحرية الفكر. لم يتزوج وسنه الآن ٣٥ سنة.

٧- أحمد رضا بك: عمره الآن نحو ٤٩ سنة وهو رئيس مجلس المبعوثان وكان فى شبابه مديراً للمعارف العمومية فى ولاية خداوندكار ثم فرَّ منها ومن سائر تركيا على إثر إصلاحات أشار باتخاذها ويمم باريس وتفرغ لدرس الفلسفة واختار تعاليم أوغست كنت (Posivitism) وتعمق فيها واشتدت ثقة أعضاء جمعية الترقى فى الآستانة به فولوه نيابتها فى أوروبا فأنشأ فى باريس جريدة سماها «مشورت» ينشئها بالتركية مع ملحق بالفرنساوية ١٨٩٦ فصار للجمعية من ذلك الحين نائبان أحدهما أحمد رضا بك صاحب مشورت فى باريس والآخر مراد بك صاحب ميزان بمصر. وكان المرحوم خليل غانم (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٣٨) سكرتير لجنة باريس ومن أكبر محررى مشورت الفرنساوية. واشتهر أحمد رضا بك على الخصوص بنزاهته وثباته فقد قاسى مر العذاب وهو فى باريس يشتغل للتعيش بدون الكفاف وأهل المابين يسترضونه بالأموال والرتب وهو يأبى.

٨- محمد عارف بك: أصله من الروملى وهو الآن فى

الرابعة والثلاثين من عمره أسمر اللون ربع القامة ممتلئ الجسم وقد انتخب نائبًا عن الدرملي في مجلس المبعوثان وكان قبل ذلك يشتغل بالمحاماة ويحرر مجلة قانونية شرعية. وكان من أكثر الساعين في نشر مبادئ الحرية في الروملي وهو فقير عازب.

٩ - حبيب بك: هو قائمقام في العسكرية عمره ٤٢ سنة أسمر اللون ربع القامة وكان من المجاهدين في نشر مبادئ الجمعية وتأييدها.

١٠ - الدكتور بهاء شاكر بك: من أهل الأستانة جَميل الصورة ربع القامة أسمر اللون ممتلئ البدن عمره ٣٤ سنة. كان في العصر السابق طبيب البرنس يوسف عز الدين ولي العهد الحالي. فكان البرنس المشار إليه يستخدمه في تنشيط الأحرار وبث أفكاره فيهم ويبذل لهم الأموال على يده.

١١ - إسماعيل جان بلاط: هو شاب في التاسعة والعشرين من عمره وأحد ضباط الجيش العثماني برتبة صاغ قول أغاسي رقيق البدن أشقر اللون خفيف الروح ذكي الفؤاد واسع الاطلاع. استخدمته الجمعية في مهمات ذات بال من جملتها مهمة سار بها مع مصطفى نجيب بك للفتك بناظم بك صهر أنور بك وكان من كبار الجواسيس في عهد عبد الحميد. وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن خواطر نيازي بك وأصيب برصاصة شفي منها.

١٢ - **حسين جاهد بك:** من أهل الآستانة وعمره الآن ٣٢ سنة قضى معظمها فى الدرس والتدريس والتحرير والتحبير. وهو من نواب إستامبول فى مجلس المبعوثان ومحرر جريدة طنين لسان حال جمعية الاتحاد والترقى ويعدُّ أكتب رجال الصحافة التركية وأقدرهم على استنباط المواضيع وتوليد الأفكار وأشدهم لهجة. إذا قرأت ما يكتبه فى طنين توهمت فيه العنف والجفاء لشدة وطأته وقوة عبارته وما يتخلل ذلك من التهديد والوعيد فإذا خاطبته رأيته يكاد يذوب رقة ولطفًا. وهو جميل الصورة أسمر (**الهلال**، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٣٩) اللون حليق اللحية. لا يضارع صديقه جاويداً فى الاقتدار على العمل الطويل إلا هو مع جسارة وقوة عزيمة وإقدام ونشاط. وهو فقير جداً وقد تزوج وله ولدان.

١٣ - **حافظ حقى بك:** قائمقام فى الجندية العثمانية وظيفته ملحق عسكرى أركان حرب فى سفارة فينا. وهو من أوسع الأتراك علمًا ومن أكثرهم ذكاء وجرأة عمره ٣٢ سنة قصير القامة أسمر اللون ممتلئ الجسم فصيح اللهجة.

١٤ - **نائل بك:** ناظر المعارف العمومية من أوسع الأتراك علمًا ومعرفة وهو يرسل لحيته وفيه رغبة فى نشر العلم ويعتقد أن العلم الوسيلة المثلى فى تأييد الدستور فترى من مجمل ما تقدم أن أعضاء هذه الجمعية الظاهرين الآن أكثرهم من أهل الآستانة

وسلانيك وهم أتراك مسلمون إلا واحداً. وأكثرهم من الأدباء والكتاب ورجال الحقوق والاقتصاد وهم طبعًا يحسنون التركية لأنها لغتهم ويحسنون أيضًا (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٠**) الفرنساوية. ولهم اطلاع على الآداب الأوروبية وخصوصًا آداب الفرنساويين وأكثرهم يعرف العربية الفصحى. وأدباء اللسان التركي لا يستغنون عن معرفتها لترقية الإنشاء في لسانهم. ومعظمهم من الشبان تتراوح أعمارهم بين ٣٠ سنة و٤٠ سنة.

أما سائر أعضاء الجمعية فإنهم منتشرون في المملكة العثمانية وأهمهم في سلانيك والآستانة ومركز الجمعية الأكبر في سلانيك. لا يعلم أحد أين يجتمعون. وهؤلاء على الإجمال مثل أكثر أدباء الأتراك من الناشئة الجديدة قد تثقفوا على النسق الحديث وتبحروا بالعلوم الحديثة واختلطوا بالأمم المتمدنة وتفهموا أسباب الارتقاء والتقهقر فضعفت حاسة التعصب الديني في قلوبهم وأصبح مذهبهم الاتحاد. وهم أهل حرية وشجاعة أدبية وصدق طوية لا كذب ولا رياء ولا دعوة باطلة ولا جدال في غير الحق ولا عداء للأجانب. وإنما شيمهم التواضع وصدق النية في خدمة الدولة والأمة. ولا عجب وفيهم نخبة الأدباء والمحامين والأطباء ورجال العلم. وأحرى بأمثال هؤلاء أن (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤١**) ينبذوا التعصب الديني. وإذا جالستهم أو عاشرتهم لا

تجـد فـرقًا بينهم وبين أرقى أهل أوروبا فى شىء ونظراً لتكتم الجمعية فى أعمالها وإخفاء أسماء أعضائها قد ادعاها غير أهلها ورأى الناس من بعض فروعـها بالأطراف ما يخالف ظنهم بها فانتقدوها. وقد تكون براء من ذلك أو أنها تجيزه لحكمة تراها ولا يراها الناس وإن كانت لا تدعى العصمة عن الخطأ.

وللجمعية سطوة يخافها الكبير والصغير وكل مجهول مخيف ونصير الحق أعداؤه كثيرون ولذلك فإن أعضاءها المعروفين بالآستانة فى خطر على حياتهم لا يخرج أحدهم إلا مسلحًا بالمسدسات تحت أثوابه ولا ينام أو يمشى إلا على حذر. وهى صاحبة السيطرة الفعلية الآن على الوزارة ومجلس المبعوثان تنفذ آراءها وأغراضها بواسطة أعضائها ومنهم جماعة فى مجلس المبعوثان. وقد أخذت على ١٦٠ عضواً من أعضاء المجلس عهداً مؤيداً باليمين بصيغة خصوصية أن يوافقوها فى مساعيها العائدة على حفظ الدستور وتأييده والتأليف بين العناصر. وقد علمت مما تقدم أن من أعضائها ثلاثة وزراء ومنهم جماعة من أصحاب الوظائف الأخرى ناهيك بمن انتظم فى سلكها من ضباط الجيش. وهم ساعدها الأقوى وسيفها القاطع وقضاؤها المبرم. وأما ما تناقلته الجرائد بالأمس عن كف أيدى الجيش عن المداخلة فى السياسة فيراد به أن لا يتصدى الضباط لشؤون الحكومة أو

يتعرضوا لأعمال الولاة وغيرهم من موظفيها في أثناء تأدية وظائفهم. لكنهم ما زالوا أعضاء عاملين في الجمعية يحضرون اجتماعاتها ويقولون بقولها وينصرونها عند الحاجة.

على أن هذا ليس وحده سبب ما لها من الرهبة في قلوب رجال الدولة حتى من أعضائها ولكن هناك سببًا آخر لعله أهمها، نعني فتكها بمن يحيد عن الخطة المرسومة لحفظ الدستور وتأييده كما كانت تفتك بمن تخافه على نفسها من رجال عبد الحميد. وقد ذكرنا في مكان آخر فتكها بناظم بك صهر أنور بك وبشمسي باشا وغيرهما. وهي تفعل ذلك سرًا على يد بعض أعضائها الجسورين الذين يعبر عنهم بالفدائيين لأنهم يفتدون الدستور بأرواحهم. فإذا آنست بأحد رجال الدولة أو غيرهم انحرافًا وخافت منه على الدستور مع اليأس من إصلاحه أو إرجاعه قررت في اجتماعها السرّي قتله لا تبالي كان من أعضائها أو غيرهم. فيتبرع أحد الفدائيين بقتله على الأسلوب الذي يختاره.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص ١٤٢)

مجلس المبعوثان

هو القوة الدستورية الكبرى لأنه مؤلف من نواب الأمة فهو المسيطر على أعمال الحكومة. ويتألف من ٢٦٠ عضوًا يقسمون بالنظر إلى الأجناس على هذه الصورة:

أعضاء	عدد	
أتراك	١١٩	عضواً كلهم مسلمون
عرب	٧٢	كلهم مسلمون إلا واحداً مسيحياً (البستانى)
يونان	٢٣	كلهم مسيحيون أرثوذكسيون
البانيون	١٥	كلهم مسلمون
أرمن	١٠	كلهم مسيحيون غريغوريون
أكراد	٨	كلهم مسلمون
إسبانيول	٤	كلهم يهود
بلغار	٤	كلهم مسيحيون أرثوذكس
صرب	٣	كلهم مسيحيون أرثوذكس
فلاخ	٢	كلهم مسيحيون أرثوذكس
الجملة	٢٦٠	

وأما النسبة من حيث الأديان فعلى هذه الصورة

مسلمون ٢١٤

مسيحيون ٤٢ كلهم روم أرثوذكس وأرمن إلا واحداً كاثوليكياً (البستانى)

يهود ٤

وقد ترددنا إليه مراراً وتعرفنا إلى خيرة أعضائه من أبناء

العرب وهمنا الوقوف على حقيقته لاعتقادنا أنه محط آمال الأمة في ما ترجوه من الإصلاح. فرأينا العمل جاريًا فيه بنشاط وهمة. يقضي أعضاؤه معظم النهار مجتمعين يتباحثون ويتداولون. ورغم ما اعترضهم من المشاكل في السنة الماضية وهي الأولى من سني الدستور العثماني قد أنجزوا أعمالاً لا يتأتى لغيرهم إنجازها في مثل هذه الأحوال. ومجلس الأمة في الدول الأخرى لا ينتظر منه عملٌ كبير في السنة الأولى لأنه لا يكاد يفرغ من تنظيم داخليته. أما مجلسنا (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٣) فقد أتم النظر في ٥٣ مشروعًا من ٧٣ أي أنه عرض عليه ٧٣ مشروعًا درس ٥٣ منها وقرر اللازم بشأنها وأكثرها مشاريع مهمة في جملتها الميزانية وهي وحدها يستغرق النظر فيها بضعة أشهر لأنها أول الميزانيات. ويروون عن مجلس المبعوثان الأول في أيام عبد الحميد أنهم عرضوا فيه ١٨ مشروعًا لم يقرر منها إلا مشروع واحد. ولو راجعت سجلات مجالس الدول الأخرى لما وجدت بينها مجلسًا عمل في سنته الأولى مثل عمل مجلسنا.

على أننا لا نُنكِرُ ما ينتقده الواقف على دخائل الأمور من اختلاف القلوب بين النواب باختلاف عناصرهم. والأكثر ناقمون على الأتراك من أعضائه بدعوى أنهم مستأثرون بالنفوذ لا يمضون إلا ما يريدونه. وقد سمعنا هذه الشكوى من بعض النواب

أبناء العرب حتى توسمنا في أحدهم الرغبة في الاستعفاء لأنه لا يرى فائدة من وجوده إذا كان صوته لا يسمع. وبعد التحرى تبين لنا صدقه من الجهة التى هو ناظر فيها وذلك أن ابن العرب أو غيره من نواب العناصر الأخرى قد يقترح اقتراحاً فلا يجد من يعضده أو أنه لا يستطيع تزييده بالحجج فيسقط فيغضب. ولكن البحث في هذا المجلس حرٌ والإقرار لا يكون إلا بالأكثرية. والعرب أكثر سائر العناصر بعد الأتراك فإذا اقترح أحدهم اقتراحاً ولم يجد من يعضده من زملائه العرب فالذنب ذنبهم. وإذا كان الاقتراح نفسه ضعيفاً فسقوطه طبيعى لأن الغرض من أعمال المجلس النظر في مصلحة الأمة العثمانية بقطع النظر عن العناصر والمذاهب.

لا خلاف فى أن النفوذ الحقيقى فى مجلس المبعوثان لجمعية الاتحاد والترقى ورأيها هو السائر وإرادتها هى النافذة ومنها عدد كبير من أعضاء المجلس تشكلت منهم لجنة تعرف بلجنة الاتحاد والترقى أكثرها من الأتراك. وقد أيدت هذا النفوذ عند افتتاح المجلس بأنها استحلفت ١٦٠ عضواً منهم يميناً تقضى بمناصرتها والأخذ بآرائها كما تقدم. فلا عجب إذا كان المجلس طوع إرادتها أو صدى أفكارها، ولا ضرر من ذلك لأنها أشد العثمانيين غيرة على الدستور وتفانياً فى نصرته فأصبح الرأى

الغالب فى مجلس المبعوثان لهذه الجمعية أو للأتراك. فاستدلت سائر العناصر من ذلك أن الأتراك إنما يفعلون ذلك استئثاراً بالسلطة تعصباً للأتراك على غيرهم. فنشأ سوءُ التفاهم بين الأتراك وسائر العناصر.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٤) والحقيقة أن بعض الأعضاء وخصوصاً أبناء العرب حديثو عهد فى النيابة لم يألفوا المناظرات السياسية فإذا اقترحوا اقتراحاً لم يجابوا عليه عَدُّوا ذلك حطة بمقامهم أو استبداداً من زملائهم. فيتذمرون وينسبون ذلك إلى تعصب الأتراك عليهم. وإذا لحظ التركى تذمرهم توهم سوء القصد فيهم. والبعض الآخر توسموا فى النيابة جر المغانم لأنفسهم فأخذوا منذ توسدهم منصتها يطلبون المناصب لهم أو لذويهم فلما لم يجدوا ما أملوا غضبوا وقالوا: **«إن الحكومة لا تسند الوظائف لأبناء العرب تعصباً للجنس»** نعم إن العرب لم ينالوا من المناصب ما يستحق الذكر بالنسبة إلى عددهم ولكننا لا نعتقد أنهم حرموا منها لتعصب الأتراك أو جمعية الاتحاد والترقى على العرب، لأن هذه الجمعية ـ على ما ظهر منها إلى اليوم ـ من أبعد الجماعات عن التعصب وإنما هى تتعصب للدستور وتحارب كل ما تظنه يقف فى سبيله. فلا تختار للوظائف إلا الأكفاء لا تراعى فى ذلك خليلاً، ولا ينبغى لنا أن نتجاهل عن حقيقة مقدرتنا

على الأعمال السياسية بالقياس على الأتراك فإن هؤلاء أكثر بلاءً لها وأوسع اختبارًا فيها بعد أن تعودوها أجيالاً متوالية وهم أصحاب الدولة. وقد نسى العرب السياسة لطول التقاعد عنها. فضلاً عن أن اختلاط أحرار الأتراك بأهل أوربا فى أثناء جهادهم كان أكثر من اختلاط أحرار العرب.

على أننا نعرف بين النواب العرب جماعة من أهل الحكمة والرأى والإنصاف لم تفتهم هذه الحقيقة فكانوا وسيلة التقارب بين العنصرين. ولم تنقض السنة الأولى حتى زاد التفاهم بين النواب فتقدم كل من العناصر خطوة نحو صاحبه. والظاهر أنهم تقدموا خطوة أخرى فى هذا العام بدليل أنهم انتخبوا صديقنا سليمان افندى البستانى نائب بيروت وكيلاً لرئيس مجلس المبعوثان. وهو العربى المسيحى الوحيد فى ذلك المجلس فدل انتخابه على بعد القوم عن التعصب الجنسى والدينى معًا. وصرنا نرجو أن يزول سوء التفاهم بالكلية ويعمل النواب يدًا واحدة لغرض واحد هو تأييد الدستور. وإذا لم يفعلوا فالعاقبة وبيلة لا سمح الله لأن حسن التفاهم بين النواب يتوقف عليه الائتلاف بين العناصر فى سائر أطراف المملكة. وعلى هذا الائتلاف يتوقف بقاء الدولة وعلى الانقسام يتوقف خرابها، وليس بين الحالين وسطٌ. لأن الدولة العثمانية إذا حافظت (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٥)

على الدستور عاشت وضارعت أرقى الدول المتمدنة وإذا عجزت عن حفظه تمزقت وذهبت نهبًا مقسمًا. فليتكاتف النواب على إزالة العقبات القائمة فى طريق الدستور ولا بد من تبادل حسن الظن فيما بينهم ولو بالإغضاء عما يظهر على غير المرام - فإن اتهامك صاحبك بسيئة يريدها بك يهوّن عليه ارتكاب تلك السيئة - ولا يتفق اثنان إلا كان أحدهما مغلوبًا ويغلب أن يكون أعقلهما.

فنحن فى حاجة إلى نبذ التنافس والانقسام حتى فى الأحزاب السياسية مع كثرتها فى برلمانات أوروبا وهم يجدون فيها فائدة لهم فى تمحيص الآراء، وأما نحن فالأحزاب المذكورة لا تفيدنا الآن وقد تضرنا لأنها تشغلنا عن الاتفاق فى الأمور الأساسية اللازمة لتأييد دستورنا. دعونا من البحث فى المركزية واللامركزية إن أمامنا عقبات لم تكن لدساتير الأمم الأخرى لأن أحوالنا تختلف عن أحوالهم فطريقنا فى تأييده غير طريقهم. وإذا جاز لنا إبداء رأينا فى حالنا الحاضرة نقدم الكلام فى العقبات التى نخافها على الدستور والوسائل المثلى لملافاتها فنقول:

العقبات في طريق الدستور

١ - اختلاف العناصر

ليس فى الممالك المعاصرة فى مشرق الأرض ومغربها مملكة تحوى من العناصر المختلفة ما تحويه المملكة العثمانية. فهى تتألف -

من بضعة عشر عنصراً يختلفون في لغاتهم وعاداتهم وآدابهم وأديانهم. وأهم هذه العناصر الأتراك والعرب واليونان والألبان والأرمن والأكراد والبلغار والصرب والفلاخ. وأكثرهم أهل تاريخ ومجد قديم وفيهم نزوع إلى الاستقلال بتذكر سابق سؤددهم. ويغلب في بقايا الدول الكبرى التفاخر بأسلافها أكثر من تفاخر أسلافها بمجدهم، كأبناء الأسر الكبرى لا يفتخر بشرف الأسرة منهم إلا الضعيف الذي ليس له من عمله ما يفتخر به.

وأكثر الأمم العثمانية افتخاراً بسالف المجد العرب فإنهم أبناء أمة نشرت الإسلام وقلبت التاريخ وأنشأت تمدنًا غيّر وجه البسيطة. وهم مع ذلك أكثر العثمانيين عددًا، وفي أهل الجزيرة منهم جنوحٌ إلى الخيال الشعري قد يرون الأمور خلاف (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٦) ما هي ويتوهمون في أنفسهم المقدرة على كل شيء وربما تذكروا سابق مجدهم يوم التفاخر بالنسب إذ كانوا يسمون غير العرب موالي. وأن الأتراك حكموهم ظلمًا في الدور السابق وقد آن وقت الاستقلال. فيدلون بعروبتهم وإسلامهم ويطلبون فوق ما يحق لهم وربما أغراهم البعض على التحدث بالخلافة وهل تجوز لغير العربي أو لا تجوز. وإذا لم يتحدثوا فهم متهمون بالجنوح إلى الاستقلال كما أشاعت الصحف بالأمس عن أحد ملوك جزيرة العرب أنه كاتب زملائه رؤساء

القبائل بالاتحاد للاستقلال ولم يفلح. فهذه الشائعة وإن كانت كاذبة فإنها تبعث على الحذر وسوء الظن وتشوش على الدولة أعمالها.

واعتبر ذلك باليونان فإنهم من بقايا دولة الروم أصحاب القسطنطينية ويفاخرون العالم بفلاسفتهم وعلمائهم وخطبائهم فقد أنشأوا تمدنًا خاصًا بهم منذ ثلاثين قرنًا وسنوا لأهل الأجيال التالية سنة مشوا عليها وعنهم أخذ الرومان والفرس والعرب عوامل المدنية والعلم والفلسفة. فهؤلاء ما زالوا منذ غلبهم الأتراك وهم يجنحون إلى الاستقلال فلما نالوه أخذوا يتطاولون بأعناقهم نحو القسطنطينية يرجون استرجاعها بما أصاب الدولة العثمانية في القرون الأخيرة من الضعف حتى كادت تنحل أو تتطاير شعاعًا أو تتفتت قطعًا ينال كل دولة من جيرانها قطعة، فكانت أبصارهم شاخصة إلى الآستانة بلد قسطنطين وكانوا يجاهرون بذلك على منابرهم. ومن لطيف ما يروى من هذا القبيل أن ولي عهد اليونان سئل في حفلة الامتحان الكبرى بالمدرسة التي كان يتخرج فيها عن حدود مملكة اليونان فذكر حدودها من الشرق والغرب والجنوب ولم يذكر حدودها الشمالية، فسأله الأستاذ عن سبب إغفاله الحد الشمالي فقال «لأنه غير معروف» يشير إلى الأمل في امتداده إلى الآستانة أو ما وراءها. فالروم الداخلون في رعاية الدولة العثمانية

هم من أولئك اليونان أصحاب هذا المجد القديم وحكمهم من حيث جسم المملكة العثمانية مثل حكم العرب.

والألبان أهل تاريخ وفيهم نزوع إلى الاستقلال ونبغ منهم قواد اشتهروا بالشجاعة والنجدة. دخلوا فى حوزة الدولة العثمانية سنة ١٤٧٨ قهراً وما زالوا من ذلك الحين يتذمرون ويتمردون فيكلفونها تجنيد الجند لقمع عصيانهم حتى لقد كان خيراً لها (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٧) لو تخلت عنهم. على أنهم تمكنوا من الاستقلال مدة فى أول القرن التاسع عشر على يد قائدهم الشهير على باشا تبه دلنلى ثم عادوا إلى حكم الدولة صاغرين وفى قلوبهم رغبة فى الاستقلال وقد جاهروا به بعد ظهور الدستور.

والأرمن إذا لم يفاخروا بمجدهم القديم، إذ لم يكن لهم دولة كبرى ولا تمدن خاص، فهم يفاخرون أهل الدستور بأنهم أول من سفكت دماؤهم فى سبيله وأنشأوا جمعياتهم السرية جمعوا فيها الأموال لمحاربة الدور الماضى قبل إنشاء جمعية الاتحاد والترقى وقد ذبح منهم فى هذا السبيل مئات الألوف.

واعتبر ذلك فى الصرب والبلغار والفلاخ، ولكل منهم دولة جديدة حية فيما أيسر عليهم من الدخول فى سلطان أبناء جنسهم ولغتهم ودينهم، فالخوف على الدستور العثمانى ليس من تعدد

العناصر فى المملكة العثمانية فإن فى مملكة النمسا أجناساً كثيرة وإنما الخوف من اختلاف أغراضها ومن التحدث بسابق مجدها فيصعب إذلالها بالقوة أو جمع كلمتها بالحسنى. فهى لا يهمها إذا انحل عقد الدولة إذ ربما عاد ذلك إلى استقلالها، أو دخولها فى سلطة دولة من مذهبها أو لسانها.

فأكثر الأمم العثمانية رغبة فى بقاء هذه الدولة الأتراك لأنهم يشعرون أنها دولتهم وفى بقائها بقاء مجدهم. فهم حريصون على الاحتفاظ بها جهد طاقتهم ولذلك رأيناهم شديدى الغيرة على الدستور وربما أغضبوا سائر العناصر ضناً به ورغبة فى استبقائه لأن فى بقائه بقاءهم.

وقد جرأ العناصر الأخرى على التطلع إلى الاستقلال ما صرح به البرنس صباح الدين جهاراً من ميله إلى الاستقلال الإدارى «اللامركزية» بين الولايات وهو رأى خطير كان ينبغى حفظه فى طى الكتمان حتى ترسخ قدم الدولة فى الحكم الدستورى وتتفرغ من مشاكلها الخارجية والداخلية، لا أن يقوله والدولة لا تزال ناهضة من تحت أثقال الاستبداد أجيالاً متوالية وقد نخر الفساد عظمها وليس فيها عضو سليم يستطيع البقاء منفرداً وإنما هى تتساند فى سيرها وتتعاون فى قيامها وقعودها. فكيف تتفرق تلك الأعضاء وتعيش مستقلة؟ فهى إلى التعاون

والتكاتف أحوج ريثما يشتد ساعدها. فإذا رأت بعد ذلك أن تتفرع بالاستقلال الإدارى فهى وشأنها.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٨)

٢ - اختلاف المذاهب الدينية

فى المملكة العثمانية مذاهب متعددة فمن رعاياها المسلم السنى والشيعى والوهابى ثم المسيحى على اختلاف الطوائف من الأرثوذكسى والنسطورى والمارونى والكاثوليكى واللاتينى واليعقوبى والإنجيلى. غير أهل الأديان الأخرى كاليهود والدروز والنصيرية وغيرهم، ولكن اختلاف المذاهب لم يكن ليخشى منه لو لم يفرق عبد الحميد بين القلوب بسياسة التقسيم كما بينا ذلك فى ترجمة حاله بالسنة الماضية. فإن سياسته الخرقاء اقتضت التفريق بين المذاهب وخصوصاً بين المسلمين والمسيحيين فأصبحت كل طائفة تنظر إلى أهل الطائفة الأخرى نظر العدو إلى عدوه.

وكانت الحكومة تنتصر للمسلمين فاضطر النصارى إلى الاحتماء بالدول الأخرى وانقسموا بالحماية فرقًا دينية حسب مذاهب الدول التى حمتهم وأصبح لكل فرقة من النصارى دولة تدافع عن حقوقها فالكاثوليك والموارنة تحميهم فرنسا، والروم الأرثوذكس تحميهم روسيا، والبروتستانت تحميهم إنكلترا أو أميركا عند مسيس الحاجة. وقد دخل بعضهم فى رعوية تلك الدول

فصاروا يعدون من رعاياها.

فتحوَّلت قلوب المسيحيين بذلك عن دولتهم، وأصبحوا يعدُّون أنفسهم غرباء فيها ويودون التخلص منها والدخول في حوزة سواها من الدول النصرانية. وقد جاءهم الدستور العثماني وهم لم يتعودوا الاجتماع فيما بينهم فكيف يجتمعون مع الطوائف الأخرى، وزِدْ على ذلك أن بعضهم لم يشعروا حتى الآن أن الدولة دولتهم وأنهم مطالبون بالدفاع عنها والسعي في استبقائها. وإذا أصيبت الدولة بسوء قلما يشعرون بالإصابة وإذا شعروا بها فكاللطمة على الجلد. وأما التركي فيشعر بها في قلبه، وربما توهم بعض غلاة التعصب من المسيحيين أن ذهاب الدولة لا يهمهم فيلتجئون إلى إحدى الدول النصرانية. وهذا سبب نفورهم حتى الآن من الجندية، وسمعنا أحد كبار النصارى الذين يحبون الدستور وقد شبَّ على الحرية من صغره لما وثب الارتجاعيون بأهل الدستور في ١٣ أبريل الماضي يقول: **«إن بقاء الدولة العثمانية بعد الدستور أصبح يهمنا لكن إذا غلب الارتجاعيون فلا يضرنا ذلك ونحن خارجها»** لأنه يقيم بمصر ولو لم يكن فيها فإنه يلجأ إليها أو إلى غيرها.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٤٩) وهو قول يدلُّ على ما تأصل في عروق بعض المسيحيين من الاحتماء بالأجانب

واعتبار أنفسهم غرباء عن الدولة العثمانية. فهؤلاء لم يدركوا معنى الجامعة العثمانية أو لم يصدقوا أن المسلمين نزعوا الضغائن من قلوبهم كما لم يصدق العرب المسلمون إخلاص الأتراك فى تنازلهم عن امتيازهم. فما زالوا يخافونهم على الاستئثار بالسيادة ويتهمونهم بالتعصب لجنسهم. فاعتبر أسباب التفريق بين العناصر والمذاهب فإنها من أكبر العقبات فى طريق الدستور العثمانى.

٣ - بقايا الدور الماضي

لم يخلع عبد الحميد عن العرش العثمانى إلا بعد أن أفسد أخلاق الأمة العثمانية بسوء سياسته لأن الناس معرضون للرذيلة بضعف طبيعتهم فكيف إذا شجعهم عليها ملكهم أو إمامهم وجعل الثروة والجاه جزاء للخيانة والغدر. جعل الجاسوسية من أوسع أبواب الرزق وحمل الناس على قتل الناس إغراء بالمال أو الجاه. فَفَسَدَتْ أحكام الدولة وتصدر فيها أهل التملق. وأُسندت المناصب إلى الذين ينفذون إرادته. وفيهم جماعة كبيرة من المغلوبين على أمرهم ساروا مع التيار التماساً للرزق، غير الذين شجعوا عبد الحميد على التوسع فى الشر.

قبض الدستوريون على أَزِمَّةِ الدولة وهم لا يريدون بأحدٍ سوءاً لكنهم اضطروا بعد ١٣ أبريل إلى إعلان الحكم العرفى ومحاكمة الجانين فقتلوا جماعة ونفوا آخرين. وفى جملة المحكوم

عليهم جماعة من كبار رجال الدولة فى الدور الماضى كانوا أصحاب الحول والطول فيها. يهابهم الناس ويتزلفون إليهم طمعًا فى خدمة أو رزق أو يتملقونهم فرارًا من الأذى فأصبحوا بعد الحكم العرفى مبعدين أذلاء. فهؤلاء مهما أحسنا الظن بهم وتخيلنا التعقل وحسن النية فيهم لا نشك فى أنهم إذا لم يستطيعوا سعيًا فى إفساد أمر الدستور فإنهم يعينون على إفساده أو يفرحون بسقوطه. وهم جماعة كبيرة ولكل منهم أعوان وأتباع ذهب رزقهم بذهاب الدولة فهم يتمنون رجوعها من صميم أفئدتهم. فوجود هؤلاء غاضبين من جملة العقبات فى سبيل الدستور. وخصوصًا إذا بالغ رجاله فى إحسان الظن ولم يدققوا المراقبة.

ويدخل فى بقايا الدور الماضى بعض أعيان البلاد الذين كانوا يستفيدون من (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٠) فساد الأحكام ويستبدون بالضعفاء من الفلاحين وغيرهم وقد وضعوا أيديهم على أطيان ليست لهم وشاركوا ولاة السوء بابتزاز الأموال وسلب الحقوق. فلما جاء الدستور بالحرية والمساواة والعدالة ذهب نفوذهم وأصبحوا فى خطر على أموالهم وأطيانهم بين يدى القضاء. فهم طبعًا ناقمون على الدستور.

٤ - المعزولون

كان فى الدولة العثمانية كثير من المناصب التى أوجدتها

سياسة عبد الحميد وليس لأصحابها عمل غير الاستيلاء على رواتبهم والبقاء في الآستانة إلا حذراً من شرهم أو أملاً في استخدامهم في أهوائه. وألف لذلك دوائر خاصة تظهر لأول وهلة من أهم الدوائر كدائرة شورى الدولة ومجلس المعارف والجمعية الرسومية ومجلس البلدية. غير من رقاهم في الرتب العسكرية كالمشيرين والفرقاء والياوران ورجال المابين وغيرهم. وما هم بالحقيقة[1] إلا خدمة أغراضه فبمجرد خلعه أصبح هؤلاء لا عمل لهم. فعزلوا وهم يعدون بالمئات وفيهم جماعة من الأذكياء أهل المطامع. وقد تعودوا الدسائس والمفاسد من أسلوب الحكم الماضي.

ولما اهتمت الحكومة في وضع الميزانية الجديدة وجدت أنها في غنى عن ألوف من مستخدميها في الآستانة والولايات غير الذين تريد إبدالهم لأنهم من بقايا الدور الماضي، لا نعلم عدد الذين سيعزلون ولكنهم كثيرون. فقد قال لنا جاويد بك ناظر المالية نفسه : إن الذين تستغني عنهم نظارة المالية وحدها يزيد عددهم على سبعمائة. فقس عليها سائر النظارات والولايات في الأطراف فربما بلغ عدد المعزولون عشرة آلاف نفس وأكثر هؤلاء لا رزق لهم من غير الخدمة.

(١) في الاصل : بالحقيقية

وقد ظهر لنا مما دار بيننا وبين جاويد بك بهذا الشأن أن الحكومة عازمة على بذل الجهد في تخفيف وطأة الضيق عن المعزولين بقدر الإمكان، ولا نظنها تقدر أن تخفف عنهم كثيراً، فهذه الألوف من الناس إنما نكبوا من الدستور فلا غرو إذا نقموا على أصحابه.

وقد انقطعت أرزاق عائلات كثيرة كانت تتعيش من المابين وأهله وهم من العامة كانت تحمل إليهم أطباق الطعام مجانًا أو يشترونها بأثمان بخسة. ولما ضيق على المابين وانحصرت مطابخهُ وموائده، جاع كثيرون ممن لا يفهمون معنى الدستور.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥١)

٥ - الضباط الذين انحطت رتبهم

لما أخذت الحكومة العثمانية تنظر في تنظيم شئونها وجدت كثيرين من ضباط الجيش ترقوا بغير استحقاق وإنما رقاهم عبد الحميد لأغراض له بقطع النظر عن قواعد الترقي المسنونة في النظام العسكري، فقررت تنزيل رتب كثيرين منهم طبقًا لذلك النظام بعد ملاحظة مدة خدمة كل منهم وسنه، فأصاب ذلك التعديل جماعة من كبار الضباط وفيهم من كان مشيراً فأصبح أميرالاى أو كان فريقًا فرجع لواءً وهكذا.

وتنزيل الرتبة العسكرية يقتضي تنزيل راتبها فالفريق الذي

كان راتبه عشرة آلاف غرش[1] في الشهر لما صار أميرالاي صار ٢٫٥٠٠ غرش فبعد أن كان ينفق على اقتناء المركبات والفرش الثمين أصبح مضطراً إلى الاقتصار على الضروري. وقد رقوا كثيرين من الضباط الصغار لأنهم حرموا من الترقي في زمن عبد الحميد وهم يستحقونه.

وفي الرتب العسكرية اعتبارات كثيرة يثقل بها هذا التغيير كالتفاوت بين أصحاب الرتب بالعلامات والتقدم في المسير أو السلام أو غير ذلك. وكلها توغر الصدور وتثير النقمة، فهي من جملة العقبات.

٦ - الجهل

الجهل أكبر أدوائنا بل هو علة العلل في تقهقرنا. لأن الأمة العثمانية على إجمالها لم تتهيأ للدستور ولكنها نالته بفضل طائفة الأحرار وهم طبقة العلماء والأدباء والعقلاء الذين تثقفوا بالتمدن الحديث وفهموا حقائق الأمور فنبذوا التعصب الديني والجنسي والتفتوا إلى المصلحة العامة وأيدهم أهل المدن المرتقية، وأما الأمة على إجمالها فلا تزال غارقة في الجهل وهو علة ما شكوناه من تعصبها الجنسي والديني، ولا نعني بالعلم مجرد حفظ العلوم

---

(١) لغة في القرش عند من يقلبون القاف غيناً .

والآداب كالشعر والنحو والحساب وإنما نريد به ترقية شعور الناس بالتربية الصحيحة التي تعلم الإنسان ما له وما عليه. وهي ضعيفة في بلادنا وخصوصاً في الداخلية فإن الجهل هناك هو علة المذابح التي تتألم منها الإنسانية. أيقدم الإنسان على قتل أخيه بمجرد كونه يعبد الله على أسلوب غير أسلوبه إلا وهو جاهل أعمى؟

فالجهل علة انقسامنا والباعث الأكبر على تشتت شملنا. اعتبر ذلك في ما ظهر من الفرق في استقبال الدستور بين البلاد العثمانية. فقد رأينا أكثر البلاد تعلماً أكثرها فرحاً بالدستور وأثبتها قدماً فيه. هذه الآستانة وسلانيك وبيروت فإنها أكثر المدائن (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٢) العثمانية تعلقاً بالدستور ودفاعاً عنه لأنها أرقاها بالعلم والتربية. واعتبر حال أهل القرى فإن أكثرهم لم يفهموا معنى الحرية أو الدستور، وفيهم من يعتقد هذا النوع من الحكومة مخالفاً للدين. وإن كان لا يفهم معنى ذلك أو لا يقدر أن يبرهنهُ ولكنه يقوله انصياعاً لبعض المفسدين الناقمين ممن تقدمت الإشارة إليهم إذ يأتيه من حيث يشعر ويتأثر وهو الدين فيغريه على أهل الدستور بالكذب والحيلة. فإذا كان مسلماً أكد له أن الدستور يساوي المسيحي واليهودي بالمسلم وهذا يخالف الشرع الإسلامي. وإذا كان مسيحياً ضرب لها على

وتر الجنس فإذا كان عربياً قال لهُ لا إن أصحاب هذا الدستور أتراك وهم يظهرون التوحيد بين العناصر ريثما تتمكن قدمهم فى الدولة فيستأثرون بالسيادة لأنفسهم. أو يقول له إن هذا الدستور حركة إسلامية يراد بها تأييد الجامعة الإسلامية وهى ضد النصرانية وقس على ذلك. فيصدق العامة هذه الأقوال ويداخل قلوبهم غلٌّ على الدستور وأهله وهل من سبب لذلك غير الجهل؟ نعوذ بالله منه.

٧ ـ فقر الدولة بالمال والرجال

ظهرت الميزانية الأولى بالأمس وقد نقص دخلها عن خرجها نحو أربعة ملايين جنيه ستستدينها الدولة وستوالى هذا النقص عدة أعوام ريثما تنتظم شئونها وتظهر ثمار الإصلاح فيها. إن بلاد الدولة غنية وفيها موارد كثيرة وإنما تحتاج إلى من يستدرُّها وقد تهافت أصحاب الأموال على الباب العالى منذ إعلان الدستور يطلبون الرخص لإنشاء المشاريع الصناعية أو الزراعية أو الاقتصادية، وبلغت الرخص التى أعطتها الحكومة إلى الآن لأجل استخراج المعادن من باطن الأرض نحو ٣٠ رخصة. غير الرخص لمد السكك الحديدية أو التليفون أو الرى أو غير ذلك مما لا تزال المخابرة جارية فيه. ولا بد من إتمامه عاجلاً أو آجلاً فتزيد الحركة المالية فى المملكة العثمانية وتتألف الشركات وترتفع أثمان

الأرضين وتحدث نهضة مالية مثل التى حدثت بمصر منذ بضع سنين لكن هذه الأثمار المرجوة لا يتيسر الوصول إليها إلا بعد نشر الإصلاح واستتباب الأمن وتوفر الحقوق لأصحابها بحيث يأمن كل إنسان على ماله وأهله ونفسه وهى العقبة الكئود فى طريق ناظر الداخلية (طلعت بك) فقد علمنا أنه حالما عهدت النظارة إليه وهو راجع من مهمته فى لندن كان أول فكر خطر له أن يعهد بحكومة الولايات إلى ولاة (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٣) ومتصرفين أكفاء ينظمون شؤونها وينشرون العدل بين أهلها ويبثون روح الإصلاح فيها لكنه ما لبث أن عزم على إخراج ذلك إلى حيز العمل حتى تبينت له الصعوبة الكبرى فى الوصول إلى المطلوب إلا بمرور السنين والصبر الطويل، وذلك أنه لم يجد بين يديه الرجال الأكفاء من الأحرار ليبدلهم من العمال السابقين.

إن الولاة ومن يلحقهم من الحكام فى أطراف المملكة يعدون بالألوف وكلهم كانوا فى مراكزهم من زمن عبد الحميد وأكثرهم من الطرز القديم الذين أفسدهم رجال العهد الماضى. فإذا أرادت الحكومة إبدالهم لا تجد بين الشبان الأحرار عدداً يكفى للقيام بذلك العمل. والموجودون يندر فيهم أهل الكفاءة للحكومة لقلة الاختبار أو إذا وجد الكفء استقل الراتب بالنسبة إلى حاجياته.

فالدولة فقيرة بالمال والرجال معًا ولا بدَّ لها من استبقاء بعض رجال العهد الماضي ريثما تنشأ طبقة من الأحرار الأكفاء.

ويقال نحو ذلك في سائر الوظائف من الوزارة فما دون. فهي تشترط في العمال المطلوبين أن تكون فيهم النزاهة والإخلاص للدستور فضلاً عن الكفاءة وهؤلاء قليلون أو أنها لم توفق إلى معرفة الأكفاء منهم وهي تبحث وتنتقي وإذا وجدت الكفء وتأكدت صدق نيته عهدت إليه بالمنصب لا تبالي أن يكون تركيًا أو عربيًا أو ألبانيًا أو كرديًا وقد ردَّت كثيرين من طلاب المناصب لعد م لياقتهم أو لأنها لم تتفق معهم على الشروط وكان بينهم جماعة من غير الأتراك فاتخذت العناصر الأخرى ذلك ذريعة للطعن في الأتراك (أصحاب الحل والعقد) واتهامهم بالتعصب لجنسهم على سائر الأجناس.

٨ ـ سوء التفاهم بين الترك والعرب

خصصنا العرب في هذا البحث دون سواهم من العناصر الأخرى لأن الأمر يعنينا أكثر مما يعني سوانا. ولأن الاختلاف بين هذين العنصرين أهم من الاختلاف بين سائر العناصر وإذا تفاهم الترك والعرب وتعاونوا لا يبالون بمن خالفهم من الأمم الأخرى. على أن هذه العناصر إذا تحققت اتحاد العرب والترك لا تجسر على الخلاف. فسوء التفاهم بين هذين العنصرين من أكبر العقبات

فى طريق الدولة العثمانية وقد اختلف الناس فى سببه، وأسبابه كثيرة ترجع إلى التباعد والإصغاء إلى المفسدين فالأتراك هم أهل الدولة ورجال الحكومة من عهد عثمان الأول ولا يزالون إلى الآن لا يرتزقون بغير الخدمة الأميرية، مضى عليهم عدة أجيال وهم أهل السيادة (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٤**) يخافهم العربى والأرمنى والرومى والألبانى ولا يذعن الرعايا للحاكم العثمانى إلا إذا كان تركيًا لقوة بطشه وشدة وطأته حتى أصبح لفظ تركى فى بعض البلاد مرادفًا للفظ الحاكم فالسودانيون يريدون بالأتراك أهل الوجاهة والسيادة. ولما رأوا الإنكليز لأول مرة وحاربوهم سموهم الأتراك.

ما زال ذلك شأن الأتراك مع سواهم حتى أخذت الدولة فى التسوية بين رعاياها فى أواسط القرن الماضى فنشر السلطان عبد المجيد خط كلخانه القاضى بالتسوية بين المذاهب والعناصر ولكن العادة تغلبت فلا المسلمون أو الأتراك أذعنوا لتلك التسوية ولا رعاياهم أدركوا حقهم فيها ولا طالبوا بها لتغلب الجهل والجبن على طباعهم. وكان الشرق قد هب من رقدته وأخذ فى اقتباس عوامل التمدن الحديث فنبغ الأدباء والشعراء ورجال السياسة والحكمة من الأتراك وأكثرهم اطلعوا على آداب الإفرنج وخالطوهم فى بلادهم وعلموا أسباب تقدمهم ورأوا دولتهم آخذة فى التقهقر

وعلموا أنها لا تنهض إلا بنقلها من الحكم الاستبدادى إلى الدستورى والتسوية بين الرعايا فى الحقوق والواجبات وجمع كلمة العناصر المختلفة باسم العثمانيين. فأخذوا يبثون هذه الروح فى الأمة فلم تختمر إلا فى آخر حكم عبد العزيز فخلعوه وولّوا مراداً وهو دستورى فلم يطل حكمه فولوا عبد الحميد مكانه على أن يؤيد الدستور فلم يفعل بل ناهضهم وحاربهم بالتفريق والتجسس والفتك على ما فصلناه فى ترجمة حاله.

وكانت نقمته موجهة إلى الأتراك بنوع خاص فكان فى جملة مساعيه ضدهم أنه استعان عليهم بالعرب واختلق الجامعة العربية وقرب إليه جماعة من العرب جعل الحل والعقد إليهم فأوغر صدور الأتراك عليهم. ثم حولها إلى الجامعة الإسلامية فسعى فى جمع كلمة المسلمين تحت خلافته إلى الهند والصين وآل ذلك إلى التباغض بين المسلمين وغيرهم فى المملكة العثمانية. والأتراك الأحرار يجاهدون فى طلب الدستور ينفقون فى سبيله الأموال والأرواح وأخذ يناصرهم جماعة من أدباء العرب. فلما تأتى لهم نيله فى أواسط العام الماضى نادوا بالوحدة العثمانية وجاهروا بالتنازل عن امتيازاتهم لاعتقادهم أنهم لا يفلحون إلا بذلك. وتقربوا على الخصوص إلى العرب وقد غضوا عمن أخذ منهم بيد عبد الحميد لعلمهم أن آخرين منهم نصروهم فى جهادهم على

الحكومة الظالمة.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٥) أعلن الدستور وتصافح العربي والتركي والأرمني والرومي وغيرهم وتعانق الشيخ والقسيس وعمَّ الفرح كل عثماني إلا أنصار العهد الماضي لأن الدستور أسقطهم وأضاع نفوذهم وأصبحوا في خطر على حياتهم، والإنسان يضحي كل شيء في سبيل حياته أو كرامته. فأخذوا يسعون في التفريق بين العناصر والمذاهب يغرون كل قوم أو عنصر على تشكيل الجمعيات القومية. وربما كان العرب أسبق الجميع إلى الاغترار فأنشأوا جمعية الإخاء العربي وقام عربي في باريس دعا السوريين إلى الاستقلال الإداري عملاً برأي صباح الدين ولا تزال جريدة نهضة العرب تصدر في باريس تطالب بحقوق العرب وتبين فضل العرب على سواهم.

وجعل الساعون من الجهة الأخرى يعظمون هذا الأمر على الأتراك ويوغرون صدورهم على العرب فتغيرت القلوب وأصبحت كل طائفة تفسر أعمال الطائفة الأخرى بسوء القصد. وأساء الأتراك الظن في العرب لِما رأوه من تباعدهم وظهر ذلك في بعض إجراءات الحكومة وأصبحت تصدق الوشاية بهم وتصغي إلى الدسيسة فغضب العرب لذلك لأنهم يعتقدون إخلاصهم للدستور وأكثرهم مخلصون له ولكنهم تعجلوا الانتفاع به ولم يصبروا.

فلما اجتمع النواب من أطراف المملكة في العام الماضي كان سوء التفاهم قد بدأ بين العرب والترك وكل منهما عاتبٌ على صاحبه على تفاوت في الاعتقاد. فكان نواب العرب في ذلك ثلاث درجات بعضهم سيء الظن بالأتراك يعتقد أنهم يظهرون المساواة ويضمرون الاستئثار. والبعض الآخر يعتقد سوء التفاهم متبادلاً ولكنه يرى الأتراك أولى بإزالتـه وعليهم أن يبدأوا هم بالتقرب والمحاسنة. والبعض الآخر وهم الأقلية كانوا يعتقدون الخطأ بجانب العرب ويحسنون الظن في الأتراك فتقربوا منهم وكانوا واسطة الاتصال بين الطائفتين.

والواقع أن الأمة العربية وسائر العناصر العثمانية إذا كانت غير راضية عن الأتراك فلأنها لم تتحقق صدق نيتهم في تنازلهم عن امتيازهم ولا يلبثون أن يتحققوه حتى يصيروا أكثر تعلقًا بالدستور وأشد تمسكًا به من الأتراك أنفسهم لأنه رفع شأنهم وحفظ حقوقهم وأمنهم على أرواحهم وأموالهم. ولو فرضنا المستحيل وأن الأتراك يريدون الاستئثار بالسيادة دون سواهم فيكفينا الخروج من الظلم إلى العدل.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٦)

مسألة الخلافة العربية

ومما أوغر صدور الأتراك على العرب اتهامهم بالسعي في

إنشاء خلافة عربية وهى أُضْحُوكَةٌ قديمة العهد أحياها بعض المرتزقين بالدسائس فى زمن عبد الحميد لاستدرار أمواله، وكانوا يصنعون المنشورات السرية باسم الأحرار العثمانيين أو تركيا الفتاة بلا توقيع يطعنون فيها على خلافة آل عثمان ويدعون المسلمين إلى خلافة عربية. ويبعثون بنسخ من تلك المنشورات مع تقارير يرفعونها إلى المابين يزعمون أنهم اكتشفوا جمعية سرية تسعى فى هذا السبيل. فيرسل إليهم المابين الأموال للمكافأة أو لمواصلة السعى، وكانت تأتينا منشورات أولئك الدساسين فنضرب بها عرض الحائط أمامنا لعلمنا بأغراض أصحابها. ولكن بعض الجرائد كانت تذكرها على سبيل الاستغراب.

ولما ذهب الاستبداد وأخرج أهله من ديارهم هاربين أو مطرودين أصبح همهم الانتقام من أهل الدستور فأخذوا يختلقون الإشاعات للتفريق بين العرب والترك لعلمهم أنهم إذا استطاعوا ذلك فقد عرقلوا مساعى الدولة وبينوا للملأ أن حكومتهم كانت أفضل من هذه. أو أنهم أقدر على العمل من هؤلاء الشبان المتهورين. وكان فى جملة مساعيهم التحدث بالخلافة العربية فأشاعوا عنها الإشاعات الكاذبة. وأغرب تلك الإشاعات ما تداولته الجرائد بالأمس من أن فى نية ابن صباح صاحب الكويت وابن فيصل أمير الوهابيين وغيرهم من أمراء العرب أن يزوروا مكة

والمدينة فى هذا الحج ويقابلوا هناك سمو الخديو ويتآمرون على نزع الخلافة من الأتراك وإرجاعها إلى العرب.

وهى إشاعة كذبها ظاهر لأول وهلة لأن أولئك الأمراء إذا فرضنا اتحادهم لمبايعة خليفة عربى إنما تكون حجتهم إنكار الخلافة على غير العرب اعتماداً على الحديث المشهور «الإمامة فى قريش» فلمن يعترفون بالقرشية ليبايعوه؟ وهل يتنازلون لأحدهم بهذا الشرف العظيم ويخضعون له وهم مشهورون بالانقسام والتنافس؟ وإذا قيل أنهم يبايعون سمو الخديو لأنهُ أوسع ملكًا وأرفع منزلة فهو غير عربى، وإذا فرضنا أنه اكتسب العروبة بالتوليد فما هو قرشى ـ ناهيك بما يكذب هذه الإشاعة من الاعتبارات السياسية الأخرى فضلاً عن أن حكمة سمو الأمير تقتضى رفضها بتاتًا ـ لا نزعم استحالة من يقول بالخلافة العربية من العرب فإن الناس لا يخلون من ضعاف الرأى ولكننا على يقين أنهم إذا قالوا بها فلا يلقون مليبًا.

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٧) بهذه الإشاعات وأمثالها يسعى أهل الدسائس فى التفريق وإيغار الصدور بين الترك والعرب فأصبح كل من الفريقين يسيءُ الظن بصاحبه فإذا نقلت الحكومة بعض الضباط العرب مثلاً من الشام أو العراق إلى الآستانة قالوا إنها فعلت ذلك خوفًا من العرب، وإذا أرسلت وفداً

من التلامذة للدرس فى أوروبا وكان أكثرهم من الأتراك قالوا إنها تفضل الأتراك على العرب، وعند التحرى لا تجد لها ذنبًا . والذى علمناه بالاختبار أن الأتراك الأحرار يعلمون علم اليقين أن الدولة لا تقوم إلا بتوحيد عناصرها وهذا ما نادوا به فى سرهم وجهرهم ولا يزالون يفعلون ذلك. وإذا تباطأوا فى إسناد الوظائف إلى بعض العرب فليس لأنهم عرب ولكن لأسباب أخرى يراد من ورائها المصلحة العامة. وإلا فالأتراك أصحاب هذه الدولة يعدون العرب إخوانهم ويعولون عليهم فى تأييد دولتهم ولم نجد فى أعمالهم عند التحقيق ما يخالف ذلك بل نراهم يهتمون بالعرب ومصالحهم ويعدونهم أهم العناصر العثمانية. ولما اجتمعنا بفخامة الصدر الأعظم فى الصيف الماضى كان معظم حديثه معنا عن العثمانيين بمصر والسوريين فى أميركا وأظهر لنا رغبته فى رجوع السوريين من ديار هجرتهم إلى بلادهم وأثنى على نشاطهم وذكائهم.

فسوء ظننا فى الأتراك في غير محله فعلى نوابنا العقلاء بيان الحقيقة حتى لا يقف هذا وأمثاله فى سبيل التآلف للعمل معًا فى مصلحة الدستور، وبنتظر من رجال الدستور الأحرار أن يفتحوا صدورهم للعرب ويراعوا جانبهم فإنهم أقوى ساعد لهم فى عملهم المجيد، فالتباعد بين العرب والترك من أعظم عقبات الدستور.

كيف نحفظ الدستور

لنا في حكمة رجال الحل والعقد ودهائهم ما يغني عن الإرشاد أو النصيحة في الوسائل المؤدية إلى حفظ الدستور ولكننا نقول كلمة على سبيل الذكرى، تقسم تلك الوسائل إلى إجراءات وقتية مستعجلة يجب المبادرة إليها حالاً وإلى قواعد ثابتة ينبغي الجرى عليها دائمًا:

الوسائل المستعجلة

أول هذه الوسائل أن يسعى النواب في إزالة سوء التفاهم بين العناصر والمذاهب أي أن يتفاهموا فيما بينهم ويتفقوا بالحسنى والبرهان وعلى اتفاقهم يتوقف اتفاق الذين (**الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٨**) أنابوهم وهم رعايا الدولة العثمانية كافة على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم. فعلى مجلس المبعوثان واجب مقدس هو أهم واجباتهم لأنه أساسيٌّ في تأييد الدستور للأسباب التي قدمناها. فإذا فعلوا ذلك وهم فاعلون إن شاء الله، يبقى على الحكومة تتمة العمل.

وأهم الوسائل المستعجلة على ما نرى هي:

أولا - الحكم العرفي

لما أعلن الدستور في ٢٤ يوليو في السنة الماضية أعلنت معه الحرية الشخصية وأطلقت حرية الصحافة والخطابة والكتابة.

وصفح أصحابه عما مضى وأضربوا عما قاسوه فى جهادهم من المحن والشدائد كالقتل والنفى وتشبهوا بالفلاسفة فعذروا ضعف الطبيعة البشرية فلم ينتقموا ولا فتكوا ولا أرادوا بأحد سوءاً ولكن ناموس الاجتماع غلب على ما أرادوه فتمكن أهل الاستبداد من الوثوب بأهل الدستور ثم رجعوا خاسرين. فعلم الدستوريون أنهم أرادوا عملاً يخالف قواعد الاجتماع وأن الدولة لا بدٌ لها فى أول الانقلاب من الشدة فى تطهير الأمة من زعماء العهد الماضى فأعلنوا الحكم العرفى وأخذوا فى محاكمة المتهمين وقيدوا المطبوعات بقانون يوقف الكُتَّاب عند حدهم.

وقد رأينا بعض أرباب الأقلام ينتقدون الحكم العَرفى أو يستطيلون بقاءه وفيهم من يبنى انتقاده على القواعد الفلسفية النظرية كقولهم «الحرية والسيف لا يتفقان أو الدستور والاستبداد لا يجتمعان» أى كيف تكون الحكومة دستورية ويكون حكمها عرفياً - وهو اعتراض وجيه فى نظر الفلاسفة وعلماء الكلام وأما فى نظر أهل السياسة وعلماء الاجتماع فهو سفسطة أو مغالطة - لأن السيف لا بد منه لحفظ الدستور وتقييد الأقلام ضرورى فى أول الأمر وفى دولة مثل دولتنا تولى عامتها الجهل وتضاربت فيها الأغراض لاختلاف العناصر والمذاهب. فلا يوقف الناس عند حدهم غير الخوف من السيف - وشأننا فى دولتنا ودستورنا شأن محموم

استشار طبيباً فنظر إلى ظاهر المرض وعمل بالتقاليد الطبية فوصف الكينا لأنها تقاوم الحمى فلم تفده لأن الحمى فى هذا المريض عرض ولا بد من معالجة السبب الأصلى فاستشار طبيباً آخر فحص المريض فوجد سبب الحمى خراجاً فى الأحشاء فحكم بشقه فذهبت الحمى وشفى المريض.

ولو تأتى لك أن تطلع على ما يجول فى خواطر أصحاب الأغراض من دعاة (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٥٩) التفريق الذين ذهب الدستور بنفوذهم فسعوا فى الناس فساداً حتى أوغروا صدور العرب على الأتراك وهاجوا غضب الأتراك على العرب وغيرهم - لو اطلعت على ما يخطر فى أذهانهم لتحققت أن الحكم العرفى لا يستغنى عنه فى حفظ هذا الدستور لأن أسباب الفساد كالدمل يجب استئصالها بالسلاح.

كيف ترفع السيف وتطلق الحرية وبين العثمانيين من يجاهر على صفحات الجرائد أنه لا يعرف غير عبد الحميد خليفة وأنت تعلم أن بيعة السلطان محمد الخامس قانونية شرعية. كيف تطلق حرية القول لهؤلاء وقد رأينا نتيجة ذلك الإطلاق فى أول الدستور إذ لم تمض بضعة أشهر حتى وثب الجهال بأهله. كيف يبطل الحكم العرفى من بلاد لا يزال فيها من يسمى أحرار الأتراك خوارج وأن عبد الحميد كان باذلاً جهده فى ترقية شئون الدولة

وهم شوشوا عمله بتمردهم وخروجهم نحن نعتقد يقينًا أن الدستور لم يبق إلى اليوم إلا بالحكم العرفى ولولاه لتمزقت المملكة العثمانية إربًا وتفرقت أيدى سبا، إن الأمة الجاهلة إذا بليت بأهل الدسائس لا يحفظ دستورها بغير الإرهاب. فإذا كنا مع سطوة الحكومة بالحكم العُرْفى ورهبة جمعية الاتحاد والترقى فوقها لا نزال نرى فى العثمانيين من يحاول هدم الدستور فى ظل الدستور بالمغالطة والسفسطة وفيهم من يجسر على إنكار بيعة السلطان الدستورى فكيف لو أُطلقت الحرية وألقى الحبل على الغارب؟

فالحكم العرفى لا بد منه فى حفظ الدستور العثمانى حتى يرسخ وتتمكن قواعده ويذهب بقايا أهل الفساد وتتآلف القلوب. وفى اعتقادنا أن الدستور العثمانى ينبغى أن يختلف عن دساتير الدول الأخرى ما اختلفت أحوالنا عن أحوالهم - ينبغى أن يكيف بحيث يتغلب على تفرق العناصر والمذاهب والمشارب بأن يمازجه شىء من الرهبة أو نحوها حسب الأحوال - أما الدستور الحر المطلق كما نراهُ فى الدول المرتقية فلا نستحقهُ إلا بعد زوال الأسباب التى قدمناها.

ثانيًا - مراقبة حركات الارتجاعيين

من أهم شروط الانقلاب السياسى أن تتطهر الدولة من نصراء العهد السابق بالقتل أو النفى أو الحجر أو بوسائل أخرى

تتكفل بغلّ أيديهم عن الأذى. لأن تلك البقية المغلوبة على أمرها يندر أن تخلص النية فى الطاعة فتتربص للوثوب أو تسعى فى إلقاء (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٦٠) الفتن. وقد جرى أهل الدستور العثمانى بعد ١٣ أبريل الماضى على هذه القاعدة بواسطة الحكم العرفى وجعلت معوَّلها على النفى. وكان النفى فى الزمن القديم كالقتل لضعف المواصلات وقلة وسائل المخابرة. أما الآن فالنفى لا يمنع أصحابه من مخابرة أحزابهم ونشر مبادئهم ودس الدسائس بالمخابرات البريدية أو على صفحات الجرائد وإنشاء الجمعيات السرية للوثوب عند الحاجة. وقد أصبح الاجتماع السرى داءً من أدواء الشرق، لا سيما بعد أن نجحت جمعية الاتحاد والترقى فى عملها فكثرت الجمعيات السرية ولا مراقب عليها بحجة الحرية الشخصية. ولكننا نخاف أن يتخذها بعضهم وسيلة فيبثون دسائسهم فى العساكر وهم سيف الدولة لكنهم من العامة يغويهم التحريض باسم الدين أو الجنس كما حصل فى حادثة ١٣ أبريل. فعلى الحكومة العاقلة مراقبة حركات أولئك الارتجاعيين. وقد يعترض بعض أصحاب الأوهام الفلسفية كما اعترضوا على الحكم العرفى فيعدون هذه المراقبة تجسساً فيقولون «التجسس من بقايا زمن عبد الحميد فكيف يتفق مع الحرية والدستور» والجواب أننا إنما نتجسس على الذين نشأوا

فى الجاسوسية خوفاً من دسائسهم. وإذا فعل أهل الدستور العثمانى ذلك فما هم أول من فعله وهو من القواعد المتبعة فى أوائل الانقلاب. فالفرنساويون الأحرار مع إمعانهم بالفتك والقتل على التهمة فى أثناء انقلابهم ألفوا جمعية سموها «لجنة النجاة أو الأمان» لمراقبة بقايا العهد الماضى لكنهم تطرقوا فى الاتهام وأساءوا الاستعمال وركبوا فى عملهم شططاً لا يجوز للعثمانيين ركوبه. وإنما نريد أن لا يغلب على حكومتنا حسن الظن بالقوم فتتركهم ريثما يدبرون ما يدبرونه. وقد يكون حسن ظنها فى محله لكن الحذر واجب قبل فوات الوقت وضياع الفرصة. والضرر إذا وقع هذه المرة كان فيه القضاء على الدولة وأهلها لا يستفيد منه الارتجاعيون ولا الأحرار.

الوسائل الدائمة

أما الوسائل الدائمة لحفظ الدستور فهى كثيرة يعرفها أرباب الدستور فى كل أمة وأحرارنا أعلم الناس بذلك لكننا نذكر بعض الوسائل التى يقتضيها حال الأمة العثمانية مما بيناه فى ما تقدم من حيث اختلاف العناصر والمذاهب وهو الفرق الأكبر بيننا وبين سائر الأمم، فالوسائل الفعالة لملافاة ذلك:

(الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٦١)

أولاً - توحيد اللغة الرسمية

لا يخفى أن اللغة عنوان الأمة فإذا قلنا الأمة الفرنساوية فإننا نتصور أمة تتكلم لغة واحدة هى اللغة الفرنساوية وإذا قلنا الأمة الإنكليزية نعنى أمة تجمعها اللغة الإنكليزية فاللغة أول جوامع الأمة فإذا قلنا الأمة العثمانية وجب أن يكون المراد الأمة التى نتكلم اللغة العثمانية. ولو حتمت الدولة العثمانية فى إبان سطوتها أن تعمم لغتها بين رعاياها لكنا اليوم أتراكًا وذهب الباعث على التفريق الجنسي. لأن العناصر التى تتألف منها الأمة العثمانية إنما نسبت إلى هذا العنصر أو ذاك باعتبار لغتها. فالعرب سموا عربًا لأن العربية لسانهم وقس عليهم سائر العناصر. على أن العرب مثلاً ليسو جميعًا من نسل العرب الأصليين وفيهم المولودون من أصول سريانية وتركية وروميـة وقبطية وغيرها ولكنهم تكلموا اللغة العربية فلو عمم الأتراك لسانهم فى إبان دولتهم كما فعل العرب بلسانهم لكنا فى غنى عن هذا التعب فى جمع كلمة العناصر ولكنهم لم يفعلوا لأنهم لم يكونوا يهتمون لرعاياهم بل كانوا يترفعون عنهم ويملكونهم بالقوة ويعدون من لا يعرف التركية لا يخاف الله. ولا يبالون بأمر الجامعة العثمانية ولا التسوية بين الرعايا. بل كانوا يجعلون اللغة التركية فاصلاً بين الحاكم والمحكوم أو هى شعار السيادة. فلما أعلن

الدستور كان من مقتضيات القانون الأساسى توحيد العناصر العثمانية ليكون العثمانيون أمة واحدة تشارك الحكومة فى أعمالها واللغة أكبر وسائل التوحيد. فقررت الحكومة جعل اللغة التركية رسمية لا تقبل المخاطبة إلا بها لأن اللغة تجمع الطوائف والعناصر وتحسن التفاهم بينهم فيزول سوء الظن.

فصادف هذا الإقرار استحسان الشعوب العثمانية لأن أكثر هذه الشعوب تتكلم اللغة التركية فضلاً عن لغتها إلا العرب فإن عارفى اللسان التركى بينهم قليلون فشق هذا الإقرار على بعضهم لأنهم توهموا فيه ضياع اللغة العربية قياساً على ضياع اللغات التى كانت فى الشام ومصر والعراق قبل الإسلام وهى القبطية والسريانية والعبرانية والرومية وذهبت جنسيات أهلها فصاروا عرباً يتكلمون العربية.

وهو اعتراض جدير بالاعتبار ويحق للعرب أن يضنوا بلغتهم دون سائر الأمم لأنها لغة المسلمين فى أربعة أقطار المسكونة وما من موحد إلا وهو يعرف اللغة العربية. ناهيك بما فيها من العلوم والآداب والفنون فإنها بحر واسع وخصوصاً فى العلوم الإسلامية كالفقه (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٦٢) والحديث والتفسير وغيرها مما لا يستغنى عنه مسلم، هذه مكاتب الآستانة بلغ عدد ما فيها من الكتب نيفًا وسبعين ألف مجلد وجدنا نحو

ثمانين فى المائة منها كتبًا عربية. ولذلك فالدول الإسلامية التى ظهرت فى أثناء التمدن الإسلامى كانت تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية. هكذا فعل السلاجقة الأتراك والأيوبيون الأكراد والسلاطين المماليك الأتراك والشراكسة فإنهم كانوا يصدرون أوامرهم ويتخاطبون ويحاكمون باللغة العربية وكانت أيضًا لغة العلم فى المدارس ولغة الصلاة فى المساجد.

ولذلك اقترح بعضهم أن يقتدى العثمانيون بالدول التركية التى تقدمتهم فيجعلون اللسان العربى لسان الدولة الرسمى، يا حبذا ذلك ولكن إذا جاز لنا هذا الاقتراح فهو يجوز لسوانا من أهل اللغات الأخرى كالأرمن والروم والألبان والبلغار وغيرهم ولا يحتج بأن اللغة العربية لغة الدين الإسلامى فإن القانون الأساسى لا يميز دينًا عن سواه.

بقى النظر فى هل جعل اللغة التركية رسمية يضيع اللغات الأخرى من المملكة العثمانية؟ والجواب على ذلك أن شيوعها بتوالى الأجيال قد يضيع كل اللغات المتداولة فى هذه المملكة إلا العربية لأنها لغة الدين والعلم الإسلامى فهى باقية ما بقى الإسلام. حتى لغات المسلمين (غير العربية) فى الممالك الأخرى قد تضيع بمقتضيات السياسة وتبقى اللغة العربية وحدها. فاللغة الأوردية (الهندستانية) مثلاً وهى لغة مسلمى الهند قد يخطر لإنكلترا

إماتتها بجعل اللغة الإنكليزية لغة العلم والسياسة هناك فتضيع اللغة الأوردية بتوالى الأدهار وتبقى اللغة العربية عندهم كما هى الآن وقس على ذلك سائر الأمم.

فاللغة العربية لا يخشى عليها الموت من تعميم اللغة التركية وخصوصاً لأن التركية نفسها أكثر ألفاظها عربية، ولكن بقاء اللغة العربية «غير مائتة» لا يرضى أبناءها فهم يريدون بقاءها «حية» وحياتها الآن قائمة بكونها لغة التكلم ولغة العلم ولغة الدين. أما السياسة أى المخاطبات الرسمية فالمقرر فى نظام الحكومة العثمانية قبل الآن أن تكون فى اللغة التركية. فإذا اقتصر قرارها على ذلك، أى إذا انحصر تعميم اللغة التركية فى المخاطبات الرسمية فاللغة العربية تبقى حية بالعلم والدين والتكلم وتحصل الفائدة المطلوبة من تعميم اللسان التركى. وأما إذا تجاوزت إلى ما وراء ذلك فالمسألة فيها نظر.

نحن نوافق الحكومة على تعميم اللغة التركية وأن يكون تعليمها إجبارياً فى المدارس (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٦٣) بحيث لا يعطى التلامذة شهادة العلم ما لم يحسنوا هذه اللغة جيداً كما يحسنون لغتهم وكما يتعلمون اللغات الأجنبية اليوم. فإذا اقتصرت على ذلك نالت مرادها ولم تصب العرب بلسانهم. لكنها إذا قررت أن تكون اللغة التركية لغة العلم فى

المدارس أى أن يتلقى التلامذة العلوم بها كان ذلك ضربة قوية على اللسان العربى، وتكون عاقبته مثل عاقبة سائر اللغات الدينية القديمة التى لم تبق إلا فى الكنائس أو على ألسنة بعض العامة. وهناك خطوة أخرى تقضى على اللغة قضاءً مبرماً نعنى جعلها لغة القضاء مع إجبار العامة على التكلم بها إذا دعوا إلى المحاكمة أو تأدية الشهادة، فقل عند ذلك على العرب والعربية السلام.

فالمرجو من أحرارنا الذين لا نشك فى حسن قصدهم أن يلتفتوا إلى هذه المسألة بعين الإنصاف. فنحن نرى تعميم اللغة التركية واجباً لتوحيد الأمة العثمانية ولكن يكفى من القلادة ما يحيط بالعنق فإذا جعلوا تعليم اللغة التركية وآدابها إجبارياً فى المدارس بحيث لا ينال الشهادة إلا من أتقنها تعلماً وإنشاءً وتركوا لكل أمة أن تتلقى العلوم والآداب فى لغتها حسب استحسانها كان عملهم هذا أقرب إلى ما يرجى منهم وأدعى إلى حفظ كرامة الآخرين ولم يَفُتْهُم ما أرادوه من تعميم لسانهم. وإذا فعلوا ذلك فقد فعله النمساويون من قبلهم والشعب النمساوى مؤَلف من تسع أمم لكل منها لسان خاص ولهم نواب فى البرلمان فراعت الدولة حقوق هذه الأمم وأجازت المداولة بثمانية من تلك الألسنة فى برلمانها لمن لا يعرف النمساوية وأغفلت التاسع لأن أصحابه جهلاء. وإذا كان غرضهم توحيد اللغة والجنس معاً بحيث يصير

العثمانيون عنصراً واحداً فليس من الحكمة الشروع بذلك الآن.

ثانياً - تعميم التعليم

لا نريد تعداد فوائد العلم فى ترقية شئون الأمة فإن ذلك من قبيل تحصيل الحاصل وقد أخذت الحكومة الدستورية فى تنشيط العلم. ولكننا ننظر فيه من حيث حال المملكة العثمانية على الخصوص وما تمتاز به عن سواها من بواعث التفريق. فالمطلوب جمع هذه العناصر وتوحيدها وأول ما يكون ذلك فى المدارس. فإذا شب التركى والعربى والمسلم والمسيحى فى مدرسة واحدة وصف واحد يقرأون كتاباً واحداً ويتلقنون أدباً واحداً يأتلفون ويتحدون. ويجب ترقية التعليم وتعميمه، أما ترقيته فلكى يفهم الشبان حقيقة الوجود وتتسع صدورهم ويذهب التعصب الدينى من قلوبهم فيبثون ذلك بين (الهلال، ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، ج٢، ص١٦٤) أهلهم وذويهم، ولا يذهب التعصب إلا بتوسيع المعرفة وترقية الأفكار وكسر قيود التقاليد. بدليل أنك تجد أقل العثمانيين تباغضاً أكثرهم ارتقاء فى أفكارهم وتصوراتهم.

وأما تعميم التعليم فواجب لاستنارة الشعب فيتعود العامة قراءة الصحف والكتب ويطلعون على شىء من أحوال الأمم فيذهب كره الأديان الأخرى أو الأمم الأخرى من قلوبهم. وترق عواطفهم ويستنكرون ذبح جيرانهم أو رفقائهم إذا كانوا من دين آخر أو

جنس آخر كما حصل فى أماكن مختلفة من المملكة العثمانية وأقربها عهداً منا حوادث أطنه.

ثالثاً - تجنيد غير المسلمين

مهما قيل فى صعوبة التجنيد على المسيحيين اليوم فهو فى محله لكنهم بوغتوا بالدستور وشروطه وهم لم يألفوا الجندية وهى فى بلادنا ثقيلة حتى على المسلمين الذين ألفوها وسبب ثقلها على الناس ما اشتهر من فساد الحكم السابق وضعف حال الحكومة عن رفع شأن الجندى وإكفائه بما يحتاج إليه من الكساء والطعام ونحو ذلك. وهذا لا بد من تغييره فى ظل الدستور ولا يمضى كثير حتى يهون التجنيد على المسيحيين وللحكومة الرأى فى الانتظار ريثما يألف المسيحيون ذلك أو تباشره الآن. وإنما المراد أن تجنيد غير المسلمين فى الجندية العثمانية لا مندوحة عنه لتوحيد الأمة العثمانية إذ يجتمع المسلم والمسيحى واليهودى وغيرهم فى فرقة واحدة يتعاشرون ويتمازجون ويتعاونون على السراء والضراء فتتقارب قلوبهم ويشعر كل منهم أن الدولة دولته والحكومة حكومته له سيف فى جندها كما له صوت فى مجلس نوابها فيشق عليه أن يلحقها أذى فيحارب عنها ويناضل عن حقوقها.

أما ما يهون التجنيد على المسيحيين فهو اختلاطهم فى المدارس مع المسلمين وخصوصاً فى المدارس الحربية فإنهم

يتآلفون وتتحد قلوبهم، وعشرة المدرسة من أقوى روابط الصداقة. فعلى زعماء النصرانية تهوين التجنيد على الشبان وعلى الحكومة تسهيل ذلك بما تبديه من حسن المعاملة.

الخلاصة: وخلاصة القول أن فى طريق الدستور العثمانى عقبات وعرة إذا تمكن الأحرار من التغلب عليها وتأييد الحكومة الدستورية عددنا ذلك من قبل المعجزات. لأن كل عقبة منها تكفى وحدها للوقوف فى سبيل العمل فكيف باجتماعها جميعًا؟ وأكبر تلك العقبات التنافر بين العناصر فإذا اتحدت تغلبت على كل عقبة.

فالقوة الغالبة الآن فى أيدى الأتراك وهم يقولون لنا أنهم إخواننا وهذا القول الأساسى يؤكد لنا المساواة بيننا وبينهم. وإنما نخطئ بتعجل تلك المساواة في كل شيء نطلب أن يولونا الوزارة والولاية والقضاء وغيرها ولو فرضنا أن استعدادنا الكافى لهذه المناصب فلم يئن لنا أن نستبطئ حصولنا عليها . ورجال الدستور فى شاغل عن تفريق المناصب بتأييد الحكومة ولو أردنا إكراههم على كل شىء نريده لم نجد سبيلاً إلى ذلك لأنهم القابضون على أزمة الأمور فما علينا إلا التخلية بينهم وبين العمل. ومتى استقرت الدولة وتوطدت دعائم الدستور فالقانون الأساسى ينيل كل عنصر حقه فإذا ظهر لنا إجْحَافٌ حق لنا المطالبة كما يحق لكل فرد من أفراد العثمانيين. وأما سوء الظن اليوم وتغيير القلوب فإنه يبعث على إبطاء النجاح إن لم يدع إلى انحلال الدولة والعياذ بالله .

* * * *

(الهلال، ١٩١٠م/١٣٢٨هـ، ج٥، ص٢٨٥)

الحكم العرفي والعرب
في الدولة العثمانية والدستورية

كتب إلينا بعض الأصدقاء يعاتبنا لما جاء فى مقالتنا «الحالة السياسية فى الآستانة» فى الهلال الثالث من هذه السنة من استحسان بقاء الحكم العرفى طويلاً إلى أن قال: «كيف يتحد الدستور مع الحكم العرفى؟ أما استدلالكم بما جرى فى فرنسا أو غيرها فلا يطابق حالنا لأن الارتجاعيين عندهم ظلوا يناوئون الأحرار وما برحت الحرب قائمة بين الطائفتين. أما العثمانيون فإنهم مستقرون هادئون ليس فيهم من يجرد سيفًا أو يدعو إلى ثورة ولا سيما العرب فإنهم أقرب إلى الطاعة من سائر العناصر».

نعم إن العرب من أقرب الأمم إلى الإذعان إذا تركوا لأنفسهم لأن مصلحتهم ومصلحة الدولة يقضيان عليهم بالسكينة وهذا هو رأى العقلاء منهم. ولكن ما قولكم بضعاف الرأى الذين لم يبق فيهم من مفاخر العرب إلا بلاغة القول نظمًا أو نثرًا وهم طائفة من الكتاب والشعراء الذين يرمون الكلام علّى عواهنه. إذا استلطفوا نكتة حماسية أو فخرية نظموها وبعثوا بها إلى الصحف أو نشروها على حدة. واللوم فى ذلك على الناشرين لأنهم يذيعون تلك الأقوال فيحملون رجال الأمر والنهى فى الدولة على سوء الظن

فى العرب، ولو نبذتها تلك الصحف لظلت فى صدور أصحابها مثل كثير من الأفكار السقيمة التى تخطر ببال بعض المتهوسين الذين لا ينظرون إلى الحالة الحاضرة إلا من حيث مصلحتهم الشخصية فإذا لم ينالوا مرادهم غضبوا ونقموا وطعنوا على الدستور وأهله - فهؤلاء لا يرهبهم غير الحكم العرفى فيقتصرون عند ذلك على التهامس فيما بينهم - وتلك إحدى حسنات هذا الحكم.

وقد أحسنت الحكومة المصرية بمراعاة جانب الحكومة العثمانية فى حرمان صاحب (الهلال، ١٩١٠م/١٣٢٨هـ، ج٥، ص٢٨٦) سريستى من نشر جريدته برخصة منها. لكنه نشرها بدون رخصة باسم أحد الأجانب ولا نعلم إذا كانت دولة ذلك الأجنبى تساعده على نشرها مع ما نعلمه من مجاملة الدول المتمدنة لأهل الدستور العثمانى، على أن هذه الجريدة تركية اللغة أو فرنساويتها فلا تأثير لها على العرب، ولكننا نعتب على الصحف العربية الكبرى التى تنشر أقوال أولئك المتطرفين كقصيدة نشرها المؤيد من نظم معروف الرصافى يهدد بها الأتراك بقيام العرب إذا هم لم يساووهم فى كل الأمور كبيرها وصغيرها. وقد ضمنها ما شاءت بلاغة الشعر من الفخر والحماس كأنه النابغة فى سوق عكاظ أو سديف فى مجلس السفاح يحرضه على قتل بنى أمية. ونحن على يقين أن مئات من أمثال هذه القصيدة لا تحرك فى

العرب ساكنًا يخشى منه. ولكن نشرها فى جريدة عربية كبرى يبعث على زيادة التباعد بين العرب والترك وإطالة زمن الحكم الاستبدادى. أما الحكومة الدستورية فهى أرسخ قدمًا من أن تنالها أقوال الشعراء بسوءٍ وإنما هى تضر الأمة التى تقال عنها ـ تضرُّ العرب.

مضى الزمن الذى كانت قصائده تقيم وتقعد وانقضت الدولة التى كانت تقدم الشعراء وتخافهم وتحسب لأقوالهم حسابًا بل هى التى كانت تجعل لأقوال الشعراء شأنًا لأنهم كانوا يعبرون عن إرادة الخليفة. وقد يكون هو الذى يحرض الشاعر على إنشاده. أما من كان يقول غير ما يعنيه ذلك الخليفة فلم يكن مصيره إلا إلى السجن أو القتل ـ فشعراؤنا أصلحهم الله يتشبهون بالأخطل وجرير فى نظم الحماسة والفخر ولكن ليس لهم عبد الملك ولا الوليد يسمع ويعمل. وإنما هم يجرون البلاء على الأمة التى ينتسبون إليها وقد فاتهم أننا فى عصر غير ذاك ـ نحن فى عصر الدستور لا تقوم لنا قائمة بغير الاتحاد والإغضاء عن النعرة الجنسية والعصبية اللغوية التى لا يفيدنا تعلقنا بها بل هو يضرنا فيجب علينا الإغضاء عنها مؤقتًا حتى يستقيم أمر هذه الدولة وترسخ قدمها ثم لا يعدم أحد حقه.

اتقوا الله يا قوم فى دولة بعثت بعد الممات ونهضت تتوكأ

وتتساند ويكاد العجز يقعدها. أسعفوها خذوا بيدها حتى تسترد قواها ثم ينال كل منكم حقه. وإلا فإن سقوطها هذه المرة لا يعقبه قيام أبد الدهر ـ لا يظن الارتجاعيون أو من يقول قولهم أنهم إذا استطاعوا قلب الدستور تعود الدولة لهم ولسلطانهم. ولا يظن العرب أو غيرهم من العناصر ممن ينازع الأتراك على السيادة أنهم إذا فازوا تصير الدولة إليهم فيستأثرون بخيراتها. إن الحكومة إذا غُلبت على أمرها كان في غلبها تمزيق الدولة كل ممزق لا ينالها هؤلاء ولا هؤلاء بل هي تذهب طعمة للأجانب. فعلى الكتاب الذين يهمهم بقاؤها أن يضعوا هذه النتيجة نصب أعينهم. فكل من يخطر له مناهضة رجال الدستور إنما هو يسعى في دمار الدولة ومحوها (الهلال، ١٩١٠م/١٣٢٨هـ، ج٥، ص٢٨٧) من الوجود ـ وهو عاجز عن ذلك بإذن الله وإليك البيان:

ليس الذين نسمع أصواتهم في انتقاد الحالة الحاضرة من العرب إلا بعض الكتاب أو الشعراء وهؤلاء لا ينوبون عن الأمة ولا عن بعضها. وبعضهم لا ينوبون حتى عن أنفسهم أي أنهم لا يعبرون عن إحساسهم بل يقولون ما يقولونه جرًا لمغنم أو انتقامًا من بعض رجال النفوذ لحزازات شخصية. ولذلك فنحن لا نخاف أن تؤدي أقوالهم إلى ثورة لأن العرب الذين يعنونهم بأقوالهم والذين يهددون الدولة بقيامهم كقول الرصافي في قصيدته المشار

إليها يخاطب الأتراك رجال الدستور:

تعالوا إلى أمر نساويه بيننا ... وبينكم فى الحل منه وفى الدق

فإن يفعلوا هذا فيا مرحباً بهم ... وإلا فيا سحق المعاند من سحق

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا ... وشيب وشبان على ضمر بلق

بكل ابن حرب كلما شد هزها ... بعزم من السيف المهند مشتق

تراه إذا ما عبس الموت وجهه ... بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق

من العرب مطبوع الطباع على العلى ... بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق

إن أولئك العرب أعقل من أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ثم هم لا علم لهم بما يقوله هذا الشاعر أو غيره ولا يعرفون من هم. إن شعراءنا يقلدون شعراء العرب بالحماسة والفخر ولكن ليس لهم ما لهؤلاء من النفوذ. كان الشاعر فى الدولة العربية إذا قال قصيدة إنما ينوب عن قبيلة أو دولة ولا يقول متحمساً أو مفتخراً إلا وهو يعلم أن قبيلته وحلفاءها يعنون ما يقوله. ويغلب أن يحرضوه على قول يقوله فى قبيلة أخرى يفتح به باب النزال. فالشاعر عندهم لسان حال القبيلة أو الدولة كالصحف الرسمية فى أيامنا.

أما شعراؤنا فإنما يعبر كل منهم عن رأيه الخصوصى وإذا تحمس أو افتخر فإنما يفتخر برمم بالية وإذا استحث فهو يستحث أقواماً لا يعرفونه ولا يقرأون أقواله وأكثرهم ينكرون عليه تهوره. فالصياح الذى نسمعه أحياناً ضد أهل الدستور ما هو إلا صياح

صحافة أو شعر لا علاقة له بالأمة وليست هى مسئولة عنه ولا مطالبة بتبعته ولا ضرر منه على الدستور وإنما الضرر يقع على الأمة العربية التى ينتسبون إليها إذ يزداد سوءُ الظن بها ويزيد التباعد بينها وبين العناصر الأخرى.

وقد يعترض بعضهم بأن الأحرار لا ينبغى لهم أن يصغوا لأقوال أُولئك الأفراد ويأخذوا الأمة العربية بذنبهم. ونحن نقول ذلك أيضًا ولعل الأحرار والعقلاء لا تخفى عليهم هذه الحقيقة ولكن قلوبهم تنفر وما هم مكلفون بالتكهن أو البحث عن كل ما يقرأونه أو يسمعونه (**الهلال**، ١٩١٠م/١٣٢٨هـ، ج٥، ص٢٨٨) ولكن اللوم فى ذلك على الصحف التى تنشر تلك الأقوال. وهى لا تستطيع نشرها فى الآستانة وغيرها من الممالك العثمانية لأنها مقيدة بقانون المطبوعات. ولا هى تنشر فى أوربا إلا بلغات أصحابها فلا تأثير لها فى نفوس العرب ولا يلتفت إليها. وإنما الضرر من نشرها فى العربية ولا يتأتى ذلك إلا فى مصر. فأعداءُ الدستور لا يجدون وسيلة لنشر أقوالهم بين العرب إلا فى الصحف المصرية. وقد كان الأحرار فى العهد الماضى يبثون آراءهم فيها. ولمصر فضل كبير فى بث روح الحرية بين العثمانيين للمطالبة بالدستور فلا يليق بها أن يكون بين أصحابها الآن من يعكس تلك الآية.

فإذا كنا ونحن تحت الحكم العرفى والسيف مسلول فوق

الرقاب وفينا من يجسر على نظم القصائد المهيجة وفي صحفنا من ينشرها احتماءً بالبعد عن العاصمة. فكيف إذا أطلقت الحرية ورفع السيف؟ إن الحكم العرفي لا يخلو من الاستبداد ولكن لا غنى عنه في المحافظة على الحرية والدستور ولولاه لم تبق الدولة العثمانية إلى اليوم ولذلك قلنا بمد أجله حتى تتحد العناصر ويذهب الخوف من دسائس الذين أضرهم الدستور. وهؤلاء إذا كنا لا نقرأ أقوالهم الآن في الصحف ولا نسمعها على المنابر فلأنهم يخافون العقاب ولكنهم لا يدخرون وسعًا في دس الدسائس وبث بذور الشقاق. ولذلك حرضنا الحكومة على مراقبتهم واقتصاص آثارهم.

دع العرب والتفت إلى سواهم من الأمم العثمانية فإن بين كتابهم من هم أشدُّ وطأة على الدولة من كتاب العرب ولكنهم مع ذلك لا يعبرون إلا عن أفكارهم الخصوصية أو أفكار الذين ينفقون على صحفهم ولا خوف منهم الآن والحكم العرفي يهدد حياتهم ولولاه لم يعدموا من يأخذ مأخذهم من المرتزقين بالفساد والدسائس فيقومون لمحاربة الدستور باسم الحرية وتحت ظل الدفاع عن الدستور كما فعلوا قبل حادثة ١٣ أبريل فيؤول الأمر إلى ثورة هائلة، وليس عهدنا بتلك الحادثة ببعيد. وقد سلمت فيها الجرة ولكنها لا تسلم كل مرة.

على أن الحكم العرفي لا يمنع الصحف ولا غيرها من انتقاد أعمال الحكومة وتقديم النصائح بالحسنى كما ينتقد الأخ أخاه في مصلحة هما مشتركان فيها فيتباحثان ويتجادلان حتى يغلب الصواب على الخطأ كما يحصل في كل الأمم المتمدنة ولكننا لا نرى في صحف أولئك المعارضين (وهي قليلة بحمد الله) إلا الطعن على جمعية الاتحاد والترقي والتهكم بأعضائها واتهامهم بكل رذيلة ويكفي للباحث العاقل أن يقرأ عدداً من تلك الجرائد فيتبين له جليًا أن الكاتب إنما يتحامل للانتقام ويرمي الكلام جزافًا لا يقدر العواقب. (الهلال، ١٩١٠م/١٣٢٨هـ، ج٥، ص٢٨٩) فأقواله لا يلتفت إليها وهي لا تلذ إلا للغاضبين على الدستور كما يلذ الحك في الجرب.

فالحكم العرفي لازم الآن لبقاء الدولة العثمانية ولا يزال لازمًا حتى ينقضي الجيل الذي تشرَّب سمَّ حكومة عبد الحميد وينشأ جيل جديد تثقف بالدستور وتعلم الاتحاد والاجتماع ونبذ التعصب الديني أو الجنسي. ولا يتم ذلك إلا بالتعليم والتربية لترقية نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم والحكومة عاملة على ذلك جهد طاقتها. ولكن جمعية الاتحاد والترقي خافت أن يطول انتظاره ريثما يشب الجيل الجديد فأخذت تسعى من تلقاء نفسها في تهذيب الشبان بالمواضيع الاجتماعية والاقتصادية والأدبية وأخذت تبث ذلك في

الأمة بواسطة فروعها فى الأطراف بإنشاء المدارس الليلية للتعليم مجانًا.

هذه جميعة الاتحاد والترقى التى يطلب أعداءُ الدستور كفَّ يدها عن العمل وهى تتفانى فى خدمة مصلحة الدولة. إنها لم تكتف بأعمالها فى الحكومة حتى أخذت على عاتقها تهذيب الشبيبة تتعجل بذلك ترقية الأمة حتى تدرك معنى الاجتماع واتحاد الكلمة فتزول المنافسة بين العناصر. وهى أكبر عقبة فى سبيل الدستور. فعلى العقلاء من الأمة العربية أن يتركوا أصحاب هذا الدستور يعملون كما يشاءون لا سيما وهم إلى الآن لم يرتكبوا خطأً يؤاخذون عليه ولا ظهر من أعمالهم إلا ما يدل على تفانيهم فى نصرة الدستور. ولا ندعى العصمة لهم ولا هم يدعونها لأنفسهم ولكننا نعتقد أن المهمة التى قاموا بها لا يتيسر لسواهم من رجال السياسة فى أرقى ممالك العالم الإتيان بأحسن منها. فعلى المعارضين إذا كان لديهم نصيحة أو رأى أن يعرضوه بالحسنى ويباحثوا فيه مباحثة الأخ المخلص. وليدعوا النعرة الجنسية جانبًا حتى تستقر الأمور وترسخ قدم الدولة فى الدستور وعند ذلك ينال كل عنصر حقه على مقتضى القانون الأساسى وهو يساوى العثمانيين فى الحقوق والواجبات لا فرق فيه بين العربى والتركى والرومى والأرمنى.

والواجب الأول على كُتَّاب الأمة وشعرائها وخطبائها أن

ينشروا هذه الروح فى الناس ويحذروهم من أهل الدسائس حتى يحسنوا الظن فى جمعية الاتحاد والترقى. ولا يضرها أن يسيئوا الظن بها بل هم يسيئون إلى أنفسهم للأسباب التى قدمناها . فعلى الصحف العربية واجب مقدس نحو الأمة والدولة إذا غفلت عنه أو عملت بخلافه فإنها تُسىء إلى كليهما وهى المطالبة شرعًا وعرفًا بالتوفيق بين العناصر المختلفة. ولا يجوز سكوتها وتسليمها للأقدار ولا أن تقول لا يعنينى بل يجب عليها أن تجاهر بالحق وتستحث الأمة على الاتفاق والإذعان وهى فاعلة إن شاء الله .

* * * *

معجم ما ورد فى الرحلة

الآيات المذكورة في الرحلة

١ - ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

٢ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]

٣ - ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى...﴾ [التوبة: ١٠٨].

٤ - ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧].

٥ - ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾: يذكر المؤلف الآية على النحو التالي:
﴿وَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وصحتها: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

٦ - ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

٧ - ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣].

٨ - ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

٩ - ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

١٠ - ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

[الجن: ١٨].

١١ - ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج: ٢٩].

١٢ - ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ [البقرة: ١٤٤].

١٣ - ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠].

❁ **قول مأثور:** لا إله إلا الله الملك الحق المبين،

محمد رسول الله صادق الوعد الأمين» .

بعض الأماكن الواردة في الرحلة

١ - أورشليم: أورشليم هي بالضم ثم السكون وكسر الراء، وهو المسمى العبرى لمدينة القدس إلا أنهم يسكّنون اللام، وحكى أورسليم بالسين المهملة، وروى أوريشلوم وأوريشلم، وأورى سلِم بكسر اللام.
انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (١/١٣١).

٢ - إمبراطورية: سمى جرجي زيدان الدولة العثمانية بالمملكة العثمانية، (١٠٤، ١٤٠، ١٤٧، ١٥٢) ورد تعليق لمحمد مقصود أوغلو حول لفظة إمبراطورية يقول: لم يكن النظام العثمانى إمبراطورياً ولم يسمه العثمانيون هكذا.
للمزيد راجع كتابه: Osmanli Tarihi 1299-1922, Istanbul 1999, p. 225.

٣ - بيت لحم: بلد قرب البيت المقدس، المشهور أن عيسى - عليه السلام - وُلِد به. انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (١/٢٣٨).

٤ - بيت المقدس: سيطر عليه االصليبيون فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م/٢٣ شعبان ٤٩٠هـ بعد أن ارتكبوا فيها مذبحة بين سكان المدينة، الأمر الذى جعل المدينة خاوية. انظر: ابن القلانسى، تاريخ

دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣م، ص١٢٢؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٦٦م (١٠/١٠).

٥ - الجامعة الإسلامية: تعود فكرة إنشائها إلى السلطان عبد الحميد الثانى ومن المنادين إليها الشيخ أبو الهدى الصيادى وعبد الرحمن الكواكبى، والجدير بالذكر أن الدكتور أحمد الشوابكة وهو الآن (٢٠٠٣) عميد كلية المجتمع الإسلامى فى جامعة الزرقاء بالأردن، كتب بالعربية عن الجامعة الإسلامية. وإن نامق كمال هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية أول من عبر عنها فى أعماله وقد سبق فى هذا جمال الدين الأفغانى (محمد حرب).

٦ - جرجر: تلفظ كركر أو (Gargar) وتتميز بحصانتها ومراعيها. انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (١/٢٣٤، ٢٦٩).

٧ - عينتاب: وردت فى جورجى زيدان بغير ذلك، والراجح أنها خطأ مطبعى وأنه يقصد عينتاب وهى قلعة حصينة تقع فى آسيا الصغرى. انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (٢/٩٧٧). بالإضافة إلى ذلك إنها مدينة عينتاب التركية التى أبلت بلاءً حسنًا فى حرب الاستقلال التركية حتى لقبت الغازى. (محمد حرب).

٨ ـ القسطنطينيّة: كان اسمها بيزنطة فنزلها قسطنطين الأكبر وبنى عليها سورًا وسماها استنبول وصارت دار ملك الروم إلى الآن واسمها استنبول وهى عظيمة ولها خليج على البحر وأبوابٌ كثيرة نحو مائة منها باب الذهب وهو حديد مموه بالذهب.

انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (١٠٩٢/٣) وتعرف بأسماء متعددة منها الآستانة ودار السعادة، ودار الإسلام واسلامبول والبلدة الطيبة وموقعها عالميًا مهم فهى تقع بين قارتين أوروبا وآسيا وهى حاضرة الدولة العثمانية وعاصمة الخلافة وصف نابليون بونابرت موقعها عندما قال: لو كان العالم كله دولة واحدة لكانت استانبول عاصمته (محمد حرب).

٩ ـ المابين: Mabeyn أى الذى بين كذا وكذا واصطلاحًا تاريخيًا: هو مكتب فى القصر السلطانى العثمانى المختص بالشئون السياسية والإدارية وهو واسطة الصلة بين السلطان والحكومة العثمانية. أنشأ فى عهد السلطان عبد المجيد بعد إعلان حركة التنظيمات أى إعادة تنظيم الدولة على أسس أوروبية بناءً على ضغط القوى الدولية الأوروبية على الدولة، والتى أعلنت (أى التنظيمات) عام ١٨٣٩م. كان يرأس هذا المكتب مشير المابين

أى ضابط عثمانى برتبة المشير، وله معاونون كل واحد منهم يحمل رتبة اللواء، أما الموظف المسئول عن علاقة هذا المكتب بالسلطان فيحمل رتبة باشكاتب المابين الهمايونى وأصبح حامل هذه الرتبة وزيراً فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، الموسوعة التركية الميسرة (٧٣٢/١) مع تعليقات من محمد حرب.

١٠ ـ الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ١٣ ميلاً، اشتق اسم النصارى منها لأن المسيح سكنها فنسب إليها. انظر: البغدادى، مراصد الإطلاع (١١٣٤/٣).

* * *

الأعــلام

١ ـ أحمد جودت باشا (١٨٢٢م ـ ١٨٩٥م) من دعاة الأصالة الإسلامية، عمل مؤرخاً رسمياً للدولة العثمانية، ودرس أحوال الدولة ورأى أنها يمكن أن تستفيد من نظم الإسلام وليس من أوروبا. ويقترن اسمه باسم مجلة الأحكام العدلية. أحمد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، ص ٤٢ ـ ٤٣.

٢ ـ اركاديوس: ولد سنة ٣٧٧م وأول أباطرة بيزنطة خلال الفترة ٣٩٥ ـ ٤٠٨م. انظر: جوزيف نسيم، الدولة البيزنطية، ص٦٥.

٣ ـ الأرمن: اختلفت الدراسات الحديثة حول أصولهم العرقية أجمعت أنهم من الشعوب الهندوأوروبية التى وصلت آسيا الصغرى وأرمينيا، حيث بدأت عشائر الأرمن بالانتشار فى أرمينيا، فأطلقت على المنطقة اسم ارمينيا. مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٢م، ص٩٨ ـ ١١٢؛ إستارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، دار الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١م، ص٤٦.

٤ ـ الأتراك الأحرار: وصف يطلقه جرجى زيدان على الشبيبة التركية ذات الثقافة الفرنسية الثورية والذين تبلور تطورهم من جمعية العثمانيين الجدد وتركيا الفتاة إلى جمعية الاتحاد والترقى.

٥ ـ الفرق بين الأتراك والعثمانيين: الأتراك لفظة أطلقت على العرق التركى، أما العثمانيون فهم مجموع سكان الدولة العثمانية وفيهم من أهل الأديان المسلم والمسيحى واليهودى، وفيهم من الأجناس العربى والكردى والتركى، وكان لفظ تركى فى عهد الدولة العثمانية سُبّة وبعد ظهور الثورة الفرنسية اكتسبت لفظة «تركى» بين المثقفين العثمانيين بشكل خاص صفة التمجيد، محمد حرب (الرحلة ص٨٨).

٦ ـ الإنكشارية: يعنى تجنيد الشبان من أسرى الحرب، وتربيتهم

تربية عثمانية بحيث لا يعرفون أبًا إلا السلطان ولا حرفة سوى الجهاد.أوجد هذا النظام السلطان أورخان بن عثمان وتكتب يكى چرى (بمعنى الجيش الجديد) ثم حُرِّفت فصارت الانكشارية. للمزيد انظر: حبيب السيوفى، الإنكشارية فى الدولة العثمانية، ص٣ ـ ١١.

٧ ـ الكسيس (١٠٩١ ـ ١١١٨م) أحد أباطرة بيزنطة الذين سعوا لإصلاحها من أباطرة الأسرة الكومنينية. جوزيف نسيم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٠٧ ـ ٢١٠.

A.A Vasiliev, A History of the By Zantine Empire, Vol. 1. pp. 213-215.

٨ ـ الانقلاب العثماني: هو انقلاب عسكرى قامت به جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد الثاني وعزلته، والجدير بالذكر أن جرجي زيدان ألف أحد أعماله المشهورة بعنوان الانقلاب العثماني. حسان حلاق، دور اليهود والقوى الدولية فى خلع السلطان عبد الحميد عن العرش ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م، بيروت، ص٧٣.

٩ ـ تحوتمس: لم يشر جرجي زيدان أى تحوتمس فهناك تحوتمس الأول ١٥٥٧ ـ ١٥٠١ق.م، وتحوتمس الثانى وتحوتمس الثالث ١٥٠١ ـ ٢٢٦١٤٤٧ق.م وكلهم من الأسرة

الثامنة عشرة التى حكمت مصر من ١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ق.م. انظر: أحمد أمين سليم، فى تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر ـ سوريا، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٩م، ص١٤١ ـ ١٥٤.

١٠ـ ثيودوسيوس: أول أباطرة أسرة ثيودوسيوس حكم ٣٧٩ ـ ٣٩٥م وسمى بالكبير وقد استفاد من القوط. وفى عهده قسمت الإمبراطورية البيزنطية إلى قسمين، حيث قسمها هو بين ولديه هونوريوس وأركاديوس. جوزيف نسيم، الإمبراطورية البيزنطية، ص٦٤ ـ ٦٥.

١١ـ جلال الدين الرومى: من الشعراء الصوفية الكبار ولد فى بلخ ٦٠٤هـ/١٢٠٧م وتوفى فى قونيا ٦٧٢هـ/١٢٧٣م وله المثنوى الذى ترجمه باقتدار إلى اللغة العربية الدكتور شتا، ونشرته الدولة فى مصر تقديراً لهذه الترجمة التى أغنت بالفعل المكتبة العربية رحم الله الدكتور شتا الذى لم يلق فى مصر تقديراً يتوافق مع علمه وخدمته للعلم وللدراسات الشرقية لولا وزارة الثقافة فى مصر وطبعها. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة جلال الدين الرومى، (٦١/٧).

١٢ـ حادثة ١٣ مارس ردة فعل عنيفة فى استامبول ضد الاتحاديين طالب بها الشعب بطرد أحمد رضا من رئاسة

الجمعية فاستقالت الحكومة واستعاد السلطان عبد الحميد سلطاته وعين إسماعيل كمال فى رئاسة الجمعية ثم تجمع كبار الضباط وأقسموا على حفظ القانون والنظام وسموا أنفسهم جيش الحركة وغادروا استانبول وخلعوا السلطان عن عرشه فى ٢٧ إبريل ١٩٠٩م. Maksudoglu, Osmanli Tarihi, p. 235.

١٣ـ خير الدين بربروسا (١٤٧٣ ـ ١٥٤٦م) هو الريس خضر من رؤساء البحر العثمانيين وأحد ثلاثة أخوة اشتهروا فى التاريخ العثمانى إسحق وأوروخ الذى يسميّه الجزائريون عروج كان قرصانًا بمعنى المدافع عن المهاجرين المسلمين واليهود، الذين هربوا فرارًا بأرواحهم من محنة الأندلس، أنقذ خير الدين قلعة الجزائر من الأسبان ١٥١٦م وعمل فى خدمة السلطان سليم فمنحه لقب أمير الأمراء. للمزيد انظر: الموسوعة العربية الميسرة (١/١٤٩، ٢/١٤٨) مع تعليقات محمد حرب.

١٤ـ رحمى بك الماسونى: هنا تشبيه غريب ينبع من فرط حماس جرجى زيدان لجمعية الاتحاد والترقى، يشبّه انتساب رحمى بك الماسونى وأحد أعضاء جمعية الإتحاد بانتساب أبو بكر الصديق للصحابة.

١٥ـ شيخ الإسلام: تعنى كلمة شيخ، شيخ القبيلة أو سيد القوم ورد هذا اللقب فى قانون محمد الثانى وشيخ الإسلام هو رئيس العلماء ومؤسس منصب شيخ الإسلام مراد الثانى. أكرم كيدوا، مؤسسة شيخ الإسلام، ترجمة هاشم الأيوبى، ط١، طرابلس ١٩٩٢م، ص٢٤، ٣١).

١٦ـ ضيا باشا (١٨٢٥ ـ ١٨٨٠م): من الشعراء والأدباء الأتراك كان متصرفًا على قبرص وكان عضواً فى جمعية تركيا الفتاة، عبّر عن آرائه الإصلاحية من خلال رسالة ثورية سماها (رؤيا) وكان قد هرب سنة ١٨٦٩م إلى أوروبا، وترجم كتبًا من الفرنسية إلى التركية ثم عاد إلى استامبول فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى. انظر: أحمد الشوابكه، حركة الجامعة، ص٣٩ ـ ٤٠.

١٧ـ سياسة عبد الحميد: يصف جرجى سياسة عبد الحميد الثانى بأنها «خرقاء» ولم تكن سياسة عبد الحميد فى نظر كثيرين خرقاء بل بشهادة جمال الدين الأفغانى على العكس كانت حكيمة بقدرة السلطان على التعامل مع الشعوب الخاضعة له، ومع الدول الاستعمارية الكبرى فى عهده، وكان السلطان على اتصال مع أهل الفكر المصريين والقادة السياسيين وحاول السلطان الحفاظ على الوحدة الإسلامية، لقد رأى

السلطان عبد الحميد أن الحرية التى يطالب بها الاتحاديون هى سلاح مدمر للدولة أعطى لمن لا يعرف استخدامه فقال: «إن إعطاء الحرية هو مثل إعطاء بندقية لرجل لا يعرف استخدامها» وأثبتت الأحداث حكمته بخاصة مع فلسطين.

Maksudoglu, Osmanli Tarihi, p. 231, 234.

ومذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب.

١٨- الجاسوسية: اتهام جرجى زيدان للسلطان عبد الحميد بالتعامل بالجاسوسية، أمر صحيح والجاسوسية التى يعنيها هى جهاز التشكيلات المخصوصة، وهى المخابرات العثمانية، وهى إحدى المنظمات الرسمية فى الدولة وكل العالم الحديث وقتها كان يعمل بها.

١٩- الأرمن: اتهام جرجى زيدان السلطان عبد الحميد أنه كبت الأرمن: لم تشر المصادر التركية، والدراسات التركية والدراسات التركية الحديثة، إلى كبت الأرمن، فلقد حظى الأرمن بمكانة مميزة فى الدولة العثمانية، لكن التحريض من الروس والإنجليز للأرمن ضد السلطان عبد الحميد، جعلهم يؤسسون العديد من المنظمات والجمعيات للعمل ضد دولتهم العثمانية، ومع ذلك استجاب السلطان عبد الحميد لمطالبهم، ولما شاهد السلطان أعمالهم ضد المسلمين فى الآستانة

وساسون رفض مطالب الأرمن، وقام هؤلاء بعمل عصابات مسلحة وانضموا إلى جمعية تركيا الفتاة المعارض الرئيسى للسلطان وإدارته وأصبحوا يعملون ضد السلطان ودبر الأرمن أول مؤامرة لاغتيال السلطان عبد الحميد. انظر: .Halacoglu, facts. P. 28-29

٢٠- أفكار السلطان عبد الحميد: يشبّه جرجى زيدان أفكار السلطان عبد الحميد بالسمّ، وهو كلام مبالغ فيه كثيراً، فأفكار الرجل عبارة عن تجميع المسلمين ليس على أساس دولة واحدة كما يظن بعض مؤرخينا العرب، وإنما على أساس وحدة الشعور. تعليق محمد حرب.

٢١- أخلاق عبد الحميد: يتهم جرجى زيدان السلطان عبد الحميد بأنه شوّه أخلاق العثمانيين، مع أن المصادر الأوروبية حتى التى هاجمت السلطان وكذلك المصادر العثمانية لكبار المنقلبين على السلطان لم يذكروا أخلاقياته إلا بالخير. تعليق: محمد حرب.

٢٢- عبد الحميد والجيش: اتهام جرجى زيدان السلطان عبد الحميد بظلم الجيش، لم يكن حقيقة وإنما كان من رأى السلطان أنه ينبغي على العسكر عدم تدخلهم فى السياسة. انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، إعداد: محمد حرب.

٢٣ـ اتهام: اتهام السلطان عبد الحميد بتوليته المناصب لمن ليس أهلاً لها، وليس لأصحابها سوى الاستيلاء على الرواتب، غير صحيح تاريخياً وهى تهمة أسندها بعض ضباط جمعية الاتحاد والترقي للسلطان. بالطبع كان هناك من لم يحسن العمل بمنصبه لكن القاعدة غير ذلك، وإنما إسناد المناصب - كتهمة - أنه أسند للعرب مناصب هامة فى الدولة. تعليق: محمد حرب.

٢٤ـ السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) خلف والده السلطان محمود وكان فى الثامنة عشرة من عمره، فى عهده كلف هذا السلطان الشاب، الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا ليقرأ الخط الهمايونى أعلن فيه التنظيمات، وكانت أكثر الإصلاحات الإدارية سذاجة والتى ضمنت حياة وممتلكات كل شخص داخل الدولة بغض النظر عن دينه وطائفته، ثم حدثت حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) مع الروس وبعدها أصدر فرمان الإصلاحات ١٨٥٦م ومع ذلك لم يكن المسلمون راضين عن أداء السلطان عبد المجيد وحكومته، حيث عاش موظفو الحكومة حياة ترف أدت إلى محاولة إسقاطها من قبل جمعية سرية، ولكنها أحبطت ثم توفى السلطان سنة ١٨٦١م. انظر: Maksudoglu, Os-

.manli Tarihi, pp. 212-214.

٢٥ـ العثمانيون: يتهم جرجى زيدان العثمانيين أنهم ليسوا أهل حضارة، وأنهم مقلدون مقتبسون ولم يحسّنوا ولم يدخلوا جديداً، وأنهم ورثوا الحضارة عن السلاجقة ولم يضيفوا شيئًا. ومن الصعب مؤاخذة جرجى على هذا الرأى، فهو ليس مؤرخًا بالمعنى الأكاديمى ومن ناحية أخرى أن هذا الرأى نشر حتى فى كتب الأكاديميين العرب، وهو غير صحيح، نعم إن العثمانيين ينتمون ـ كالعرب ـ إلى مجتمع البداوة لكن دخول الشعبين فى الإسلام الذى ورث هو أيضًا كثيرًا من مفاهيم وأشكال الحضارة من كل الشعوب والبلدان التى فتحها وانصهرت كلها فى بوتقة الحضارة الإسلامية، كذلك فعل العثمانيون، أخذوا من الحضارات المسلمة وغير المسلمة السابقة عليهم من سلاجقة ومماليك وغيرها، لكنهم نقلوا معهم عندما توطنوا فى الأناضول ـ حضارة الأتراك ـ من آسيا الوسطى وتقاليدهم التى أثرت حتى فى المفهوم الحضارى العثمانى فيما بعد، تعليق من: الدكتور محمد حرب.

٢٦ـ أصل العثمانيين يرجع إلى الأوغوز الذين استوطنوا آسيا الوسطى قبل هجرتهم إلى الأناضول ٤هـ/١٠م، انظر:

محمد ابن أبى السرور البكرى الصديقى (ت ٩٩٨ - ١٠٧١هـ/١٥٨٩ - ١٦٦١م) تقديم وتحقيق وتعليق: ليلى الصباغ، دار العشائر دبى، ص٨. تعليق: محمد حرب.

٢٧- عاشق باشا (١٢٧٢ - ١٣٣٢م) شاعر عثمانى قديم، متصوف، قدّم أجمل نماذج للشعر العثمانى التصوفى فى عصره تأثر بالشاعر المشهور يونس أمره. له ديوان بعنوان «ديوان عاشق باشا»، دائرة المعارف التركية الميسرة، إستانبول ص١٠١، ١٩٦٨.

٢٨- فضولى (١٤٨٠/١٥٦٦) وهو محمد فضولى شاعر عثمانى يُعد أمير الشعر التركى القديم. نظم بالتركية باللهجة الآذرية (من أذربيجان) ويعرف أيضًا باسم فضولى البغدادى أكبر شعراء الأدب العثمانى فى القرن السادس عشر الميلادى، أثر فى كل أدباء العثمانية فى عهد الأدب العثمانى القديم، من عشيرة بيات من أتراك الأوغوز. ولد فى كربلاء فى العراق عاش طيلة حياته بين كربلاء وبغداد والحله، شيعى حروفى. له ديوانه كما أن له ديوان شعر باللغة العربية حققه زميل عزيز فى جامعة ارضروم كما أن له ديوانًا باللغة الفارسية أيضًا، له ملحمته الشعرية ليلى والمجنون. عرف فى اللغة العربية بعد أن درسه أستاذنا

الجليل الدكتور حسين مجيب المصرى بتقديم أطروحته للدكتوراه بعنوان فضولى البغدادى، أمير الشعر التركى القديم، الموسوعة التركية الميسرة ٤٠٨/٤٠٩، ٢/١. محمد حرب.

٢٩- قتلمش: لم يشر جرجى زيدان إلى اسمه كاملاً هل هو سليمان بن قتلمش الذى حكم (٤٧٠ - ٤٧٩هـ/١٠٧٦ - ١٠٨٦) ولقد تم الإطلاع على نصوص ابن الأثير حول سليمان بن قتلمش إذا كان جرجى زيدان يقصده هو فعلاً أم قتلمش آخر، ولم يشر ابن الأثير إلى ثمة معرفة له بعلم النجوم. انظر: بوزورث، الأسرات، ص١٨٥.

٣٠- قسطنطين الكبير: حكم الإمبراطورية البيزنطية (٣٠٥ - ٣٣٧م) ونسبةً إليه سميت مدينة القسطنطينية، أصدر قوانين تستهدف مساعدة الفقراء والمنكوبين، وفرض عقوبات مشددة على جريمة الاغتصاب وأصدر قانونًا بحسن معاملة المساجين وقوانين أخرى تنم عن احترامه للبشرية، وكان يهدف إلى تنشيط الحالة الاقتصادية فى الإمبراطورية وتوفير أسباب القوة لها فأدخل عدة إصلاحات عسكرية وفى عهده عقد أول مجمع مسكونى فى نيقيه سنة ٣٢٥م اعتنق فيه رعاياه المسيحية بدلاً من الوثنية. انظر: جوزيف نسيم،

الدولة البيزنطية، ص٥٧ ـ ٥٨.

٣١ـ كسرى وشيرين: كتبها جرجى خطأ فهو لم يكن متخصصاً فى الأدب العثمانى، والصحيح «خسرو وشيرين» وهى قصة حب فارسية ونسج على منوالها شعراء عثمانيون كلاسيكيون وفى العصر الحديث نسج على منوالها الشاعر التركى الماركسى ناظم حكمت مسرحية (خسرو وشيرين) وترجمها إلى العربية الدكتور أكمل الدين إحسان، ونشرتها وزارة الثقافة المصرية، وأكمل الدين هو ابن الشيخ الجليل إحسان عبد العزيز أستاذ الأدب العثمانى فى كلية الآداب جامعة عين شمس فى الستينيات من القرن الماضى. محمد حرب.

٣٢ـ كمال باشا زاده (١٤٦٨ ـ ١٥٣٤م) عالم عثمانى يجلّه العثمانيون، كمال باشا زاده لقبه أما اسمه فهو شمس الدين أحمد اشترك مع السلطان سليم الأول فى حملته على مصر، عمل على تطبيق القوانين العثمانية فى مصر، وأصبح شيخ الإسلام فى الديار العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى، كان عالمًا متعدد الجبهات كتب أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة فى الفقه ونحو اللغة العربية، له تاريخ مشهور من عشرة مجلدات بعنوان «تاريخ آل عثمان» له مرثية

مشهورة فى الشعر العثمانى فى رثاء السلطان سليم الأول. الموسوعة التركية الميسرة (٢/٦٣٠)، ترجم تاريخ ابن تغرى بردى إلى اللغة التركية العثمانية لكى يطلع سلطان عصره سليم الأول على تاريخ مصر، فى مكتبة السليمانية فى استانبول أجزاء من هذه الترجمة، وللدكتور التركى أحمد اوغور دراساته القيمة عن كمال باشا زاده. تعليق: محمد حرب.

٣٣- مارسيان: آخر إمبراطور من أسرة ثيودوسيوس حكم الإمبراطورية الرومانية من (٤٥٠ - ٤٥٧م) وورد اسمه مارشيان. انظر: جوزيف نسيم، الدولة البيزنطية. (الرحلة، ص٢٦).

٣٤- مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م): تولى الحكم صغيراً، استعاد بغداد من الاحتلال الإيرانى سنة ١٦٣٨م وتوصل إلى اتفاقية سلام قصر شيرين مع إيران ثم عاد إلى استامبول فى ١٦٣٩م انظر: Maksudoglu, Osmanli Tarihi, p. 161-163.

٣٥- مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٥): من الولاة العثمانيين الذين أداروا ولايات عثمانية وأدخل فيها الإصلاحات العمرانية، وكان قد تولى منصب الصدارة العظمى سنة ١٨٧٢م لأول

مرة فى عهد السلطان عبد العزيز ثم تولاه للمرة الثانية سنة ١٨٧٦م فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، وكان من الداعين إلى الاقتباس من الغرب فى الدولة العثمانية، وهو من اقترح على السلطان عبد الحميد أن يقبل الشباب غير المسلمين فى كلية الحرب ورفض السلطان. انظر: أحمد الشوابكة، الجامعة الإسلامية، مكتبة المنار، الزرقاء ١٩٨٤م، ص٣٥، Maksudoglu, Osmanli Tarihi, p. 225.

٣٦ـ السلطان محمد الخامس: رشاد (١٩٠٩ ـ ١٩٨١م): ابن عبد المجيد، أصبح سلطاناً فى ٧ أبريل ١٩٠٩م اندلعت ثورة فى ألبانيا سنة ١٩١٠م، وثورة فى قوصوه ١٩١١م أنهاها السلطان سنة ١٩١٢م وفى عهده احتلت إيطاليا ليبيا، قامت الحرب البلقانية، والحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) توفى السلطان ٢٨ يونيو ١٩١٨م. انظر: Maksudoglu, Osmanli Tarihi, pp. 236-241.

٣٧ـ المنظمات الأرمنية: للأرمن عدة منظمات منها «الصليب الأسود» سنة ١٨٧٨م فى تركيا، وفى عام ١٨٨١م تم إنشاء جمعية «المدافعين عن أرض الوطن»، وفى عام ١٨٨٧ تأسس حزب يسارى هدفه تأكيد حق الأرمن فى الأناضول وليتحقق

ذلك يلزم عدة وسائل منها الدعاية والعمل المسلح ضد الدولة وتنظيم حركات العمال والفلاحين، وأسست جمعيات الأنجلو ـ أرمنيـــة. انظر: Yusuf Halacoglu, Facts The Relocation of Armenians (1914-1918), Ankara 2002, p. 23, 24, 26.

٣٨ـ المعمارسنان: (١٤٨٩ ـ ١٥٨٨م): أشـهر معمارى مسلم، يقارنه الأوروبيون بمايكل أنجلو، كل فى ميدانه. اشترك فى جيش السلطان سليم الأول فى معركة جالديران ضد الجيش الصفوى (الإيرانى) وفى معركة مرج دابق ضد الجيش المملوكى (التركى) كان رئيس المعماريين فى الدولة العثمانية وعمره لم يتجاوز الثامنة والأربعين. من آثاره: الجسور وقناطر المياه والمساجد والجوامع والحمامات والمقابر. وله أعماله المعمارية فى البلدان العربية فى سوريا والمدينة المنورة ومكة المكرمة وغيرها وأشهر أعماله جامع السليمية فى أدرنه قمة الفن المعمارى فى تاريخ الإسلام حتى الآن. انظر: محمد حرب، العثمانيون فى التاريخ والحضارة. وكذلك: أكمل الدين إحسان اوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة.

٣٩ـ محمود شوكت باشا: قائد جيش حركة تركيا الفتاة، المسمى

جيش الحركة شركسى الأصل عربي المنبت ولد فى بغداد سنة ١٨٥٦م أو ١٨٥٨م وتعلم فيها ودخل المدرسة الحربية فى استانبول بعد انتقاله إليها، وتدرّج إلى أن أصبح فى رتبة فريق أول فى الجيش العثماني، وكان دوره فى عزل السلطان عبد الحميد كبيراً فقد طوّقت قواته قصر يلدز. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (١٧٤/٧)، محمود شوكت، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى سنة ١٨٢٥م، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨م.

٤٠ـ المثقفون العرب: يتهم جرجي زيدان الشعراء والكتاب العرب بضعف الرأى وأنهم ليس لهم إلا الكلام وينشرون نكتا حماسية. جاء هذا لحماس المؤلف لأفكار جمعية الاتحاد التى تتواءم مع أفكار المؤلف نفسه فى الأخذ عن النظم الأوروبية، والجدير بالذكر أن بعض أهل وأقارب جرجي عابوا عليه تحمسه للاتحاد والترقى بل وسفره إلى الآستانة (استانبول) وتأييده لهم. تعليق: محمد حرب.

٤١ـ نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨): لُقب بشاعر الحرية وهو عضو جمعية تركيا الفتاة، نادى بتطبيق النظم الغربية فى الدولة العثمانية، ودعا إلى اتفاق المسلمين وكان قد هرب مع ضيا

باشا إلى أوروبا واشترك فى إدارة جريدة حريت فى لندن ١٨٦٨ وعاد إلى استانبول وأصدر جريدة عبرت، وأدار مسرحيته الوطن أو (سلستره)، وكانت أول مرة يسمع العثمانيون كلمة وطن فالعالم عندهم: دار حرب ودار سلام. (محمد حرب)، أحمد الشوابكة، حركة الجامعة، ص٤٠ ـ ٤١.

٤٢ـ نديم (١٦٨١ ـ ١٧٣٠): أحد أعمدة الشعر العثمانى القديم، كان عالمًا فى الشريعة الإسلامية ومتمتعًا بحماية السلطان أحمد الثالث وصدره الأعظم، الداماد شهيد على باشا. مات نديم أثناء الثورة فى استانبول عام ١٧٣٠م. انظر: الموسوعة التركية الميسرة (٨٣٥/١) مع تعليقات من: محمد حرب.

٤٣ـ النساطرة ينسبون إلى المهارطق نسطور والذى ولد فى الشام وظهر زمن المأمون، وفى عام ٤٢٨م انتخب بطريرك القسطنطينية، وكان يقول بأن الله واحد ذو ثلاث أقانيم: الوجود والعلم والحياة، وللمسيح طبيعتان. انظر: الشهرستانى، الملل والنحل، إعداد: عبد اللطيف محمد، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٧، الفيترى، تاريخ بيت المقدس، ص١٩٩ هامش(١).

٤٤ ـ Posivitism وردت عند جرجى هكذا، والأصح -positi

vism ومعناها الوضعية، وهى فلسفة وضعها أوغست كنت تعنى
بالظواهر. منير البعلبكى، المورد، دار العلم للملايين، بيروت
١٩٩٩م، ص٧١٠.

٤٥ـ نظرة زيدان للاتحاديين أن جمعيتهم «التى يطلب أعداء الدستور كف يدها عن العمل، وهى تتفانى فى خدمة مصلحة الدولة. أنها لن تكتف بأعمالها فى الحكومة حتى أخذت على عاتقها تهذيب الشبيبة...».

٤٦ـ يازجى أوغلوا (؟ ـ ١٤٥١م) وتكتب أيضًا «يازيجى اوغلو» شاعر متصوف مشهور بين الأتراك بعمله الشعرى «المحمدية» متأثرًا بالمتصوف العثمانى الكبير حاجى بايرام ولى، انظر: الموسوعة التركية الميسرة (١/١٢٠١)، وانظر أيضًا: كتاب الدكتور حسين مجيب المصرى تاريخ الأدب التركى، القاهرة ١٩٥٣م، وهو أول وأفضل كتاب فى تاريخ الأدب التركى فى اللغة العربية. نشرته حديثًا فى طبعة جديدة الدار الثقافية للنشر.

٤٧ـ اليعاقبة: ينسبون إلى يعقوب البرادعى، وهو راهب فى القسطنطينية نصّب أسقفًا سنة ٥٤١م، وهم من أتباع المذهب المونوفيزتى القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وكان اليعاقبة محرومين كنسيًا لوقت طويل، وقد طردوا من

الكنيسة اليونانية، وأقاموا فى أجزاء كبيرة من آسيا والشرق الأوسط، ثم انتشروا فى مصر وأثيوبيا والبلاد الممتدة من الهند. انظر: فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨م، ص٤١٢ ـ ٤١٣، القيشرى، تاريخ بيت المقدس، ص١٥٥ هامش (٩).

* * *

قائمة المصادر والمراجع الخاصة

بمعجـــم ما ورد فـــى الرحلـــة

قائمة المصادر والمراجع
الخاصة بمعجم ما ورد في الرحلة

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر العربية:

١ - ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٦٦م.

٢ - البغدادى، صفى الدين عبد المؤمن، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على البخارى، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.

٣ - الشهرستانى، الملل والنحل، إعداد: عبد اللطيف محمد، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٧م.

٤ - ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣م.

٥ - ميخائيل السورى، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٩٩٥، (١٠٧/٥).

٦ - يعقوب الفترى، تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوى، دار الشروق، عمان ١٩٩٧م.

ثالثًا: المراجع:

١ - أحمد أمين سليم، تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر سورية،

دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٩م.
٢ ـ أكرم اكيدو، مؤسسة شيخ الإسلام، ترجمة هاشم الأيوبى، جروس برس، طرابلس ١٩٩٢م.
٣ ـ استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، دار الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١م.
٤ ـ أحمد الشوابكة، الجامعة الإسلامية، مكتبة المنار، الزرقاء ١٩٨٤م.
٥ ـ جرجى زيدان، مصر العثمانية أو تاريخ مصر فى عهد الدولة العثمانية، تحقيق ودراسة وتعليق الدكتور محمد حرب، مركز بحوث آسيا، ٢٠٠١م.
٦ ـ جوزيف نسيم، الدولة البيزنطية ٢٨٤ ـ ١٤٥٣م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٤م.
٧ ـ حسان حلاق، دور اليهود والقوى الدولية فى خلع السلطان عبد الحميد ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩، الدار الجامعية، بيروت (د : ت).
٨ ـ حسين مجيب المصرى، تاريخ الأدب التركى، القاهرة ١٩٥٣م. ط. أخرى القاهرة ٢٠٠٠.
٩ ـ سعيد برجاوى، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسى والعسكرى، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣م.

١٠ ـ علی الصلابی، السلطان محمد الفاتح وعوامل النهوض فی عصره، دار البیاض، بیروت ٢٠٠١م.

١١ـ فیلیب حتی، تاریخ سوریة ولبنان وفلسطین، ترجمة: جورج حداد وعبد الکریم رافق، بیروت ١٩٥٨م.

١٢ـ کلینوردا بوزورث، الأسرات الحاکمة فی التاریخ الإسلامی، ترجمة: حسین اللبودی ومراجعة سلیمان العسکری، الکویت ١٩٩٥م.

١٣ـ محمد حرب، مذکرات السلطان عبد الحمید، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م.

١٤ـ مروان المدور، الأرمن عبر التاریخ، دار مکتبة الحیاة، بیروت، ١٩٨٢م.

١٥ـ محمود شوکت، التشکیلات والأزیاء العسکریة منذ بدایة تشکیل الجیش العثمانی حتی سنة ١٨٢٥م، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

رابعًا: دوائر المعارف:

١ ـ دائرة المعارف الترکیة المیسرة، استانبول، ١٩٦٨م.

٢ ـ دائرة المعارف العربیة المیسرة.

٣ ـ دائرة المعارف الإسلامیة، یصدرها أحمد الشنتناوی وآخرون، مراجعة محمد علام، مادة جلال الدین الرومی، مجلد ٧.

٤ ـ المنير البعلبكي، المورد، بيروت، ١٩٩٩م.
٥ ـ خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت.

خامسًا: المراجع الأجنبية:

١ ـ Maksudoglu, Osmanli Tarihi, Istanbul. 1999.
٢ ـ Yusuf Halacoglu, facts The Relocation of Armenians 1914-1918, Ankara 2002.
٣ ـ Vasiliev, History of The Bizantine Empire, London 1952.

* * *

الفهرس

كتاب الهلال

القادم:

كشف خفايا
المخطوطات الألفية

د. يوسف زيدان

يصدر ٥ أكتوبر
٢٠٠٤

أحدث إصدارات كتب الهلال عامى ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
فى الرواية العربية	فاروق عبد القادر	سبتمبر	٢٠٠٣
عجائب المخلوقات	د. عبد المحسن صالح	أكتوبر	٢٠٠٣
يوميات طبيب وهموم أستاذ جامعى	د. نبيل عطا الله	نوفمبر	٢٠٠٣
على بهجت أول أثرى مصرى	د. أنور لوقا	ديسمبر	٢٠٠٣
قصة حياة عادية الجزء الثانى	د. يحيى الجمل	يناير	٢٠٠٤
طه حسين وثائق أدبية	نبيل فرج	فبراير	٢٠٠٤
مصر المستقبل المياه - الطاقة - الصحراء	د. رشدى سعيد	مارس	٢٠٠٤
مستقبليات	د. جلال أمين	ابريل	٢٠٠٤
عشر سنوات غيرت العالم	د. محمود سليمان	مايو	٢٠٠٤
نحو خريطة جديدة لمصر	د. محمد رياض	يونيه	٢٠٠٤
عن الكاريكاتير والأغانى والإذاعة	د. على الراعى	يوليه	٢٠٠٤
سعد زغلول فى الأدب المصرى	مصطفى بيومى	أغسطس	٢٠٠٤

رقم الايداع
١٣٦٠٨ / ٢٠٠٤
I. S. B. N.
977-07-1089-X

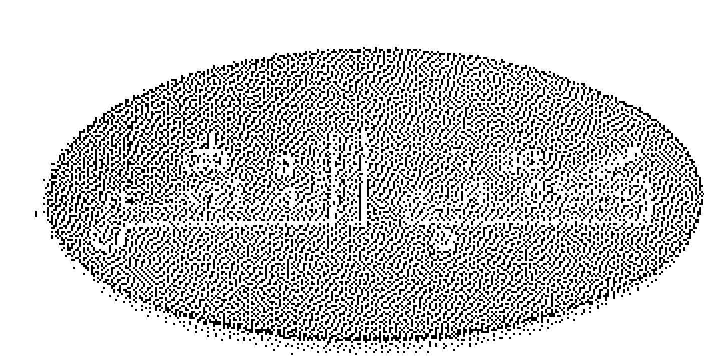
هذا الكتاب

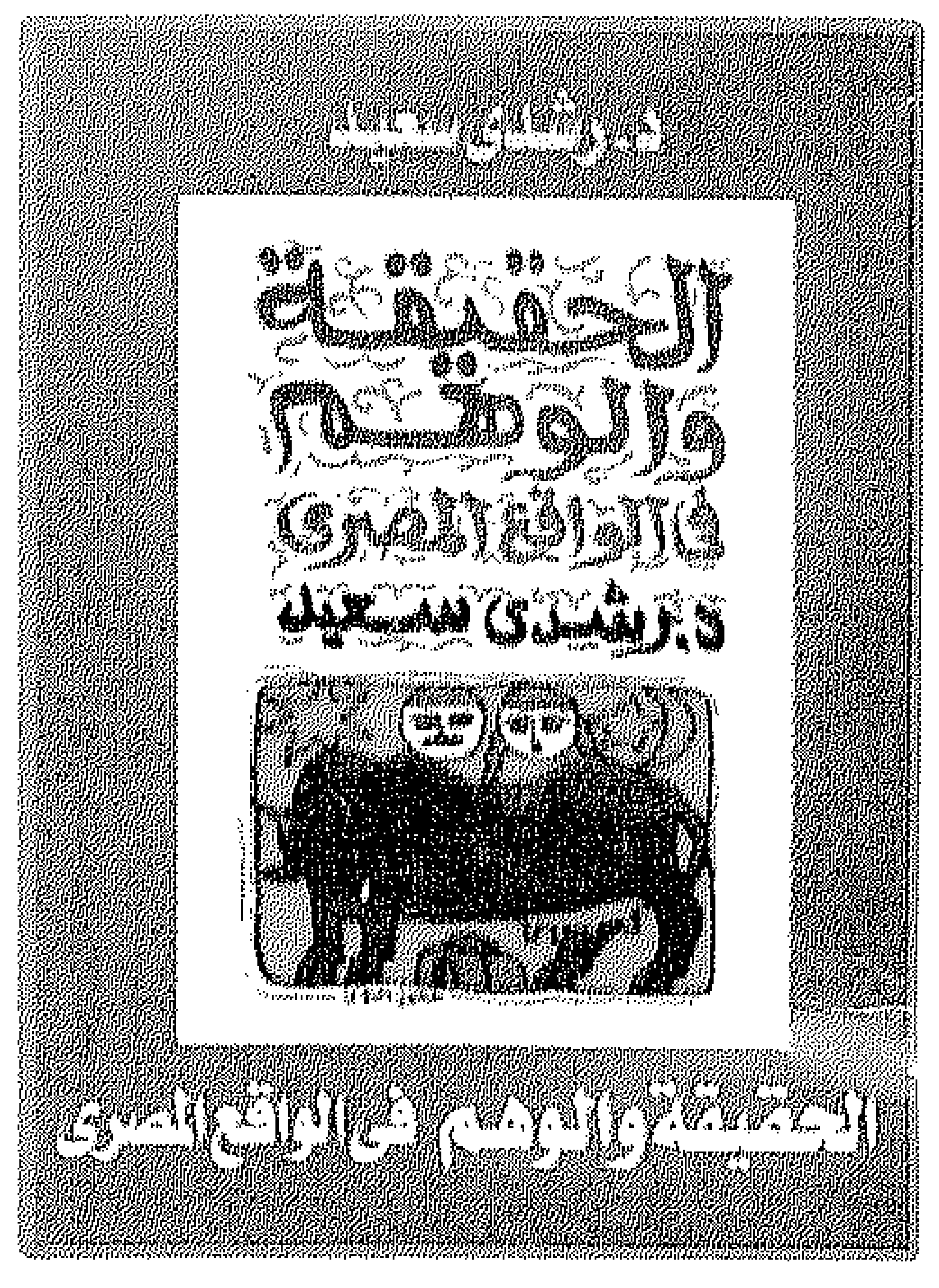
يضم هذا الكتاب رحلة جرجى زيدان إلى الأستانة عام ١٩٠٩م وهى ثرية بالعلوم الاجتماعية والتاريخية والأثرية والسياسية والفكرية على المستويين العربى والتركى .

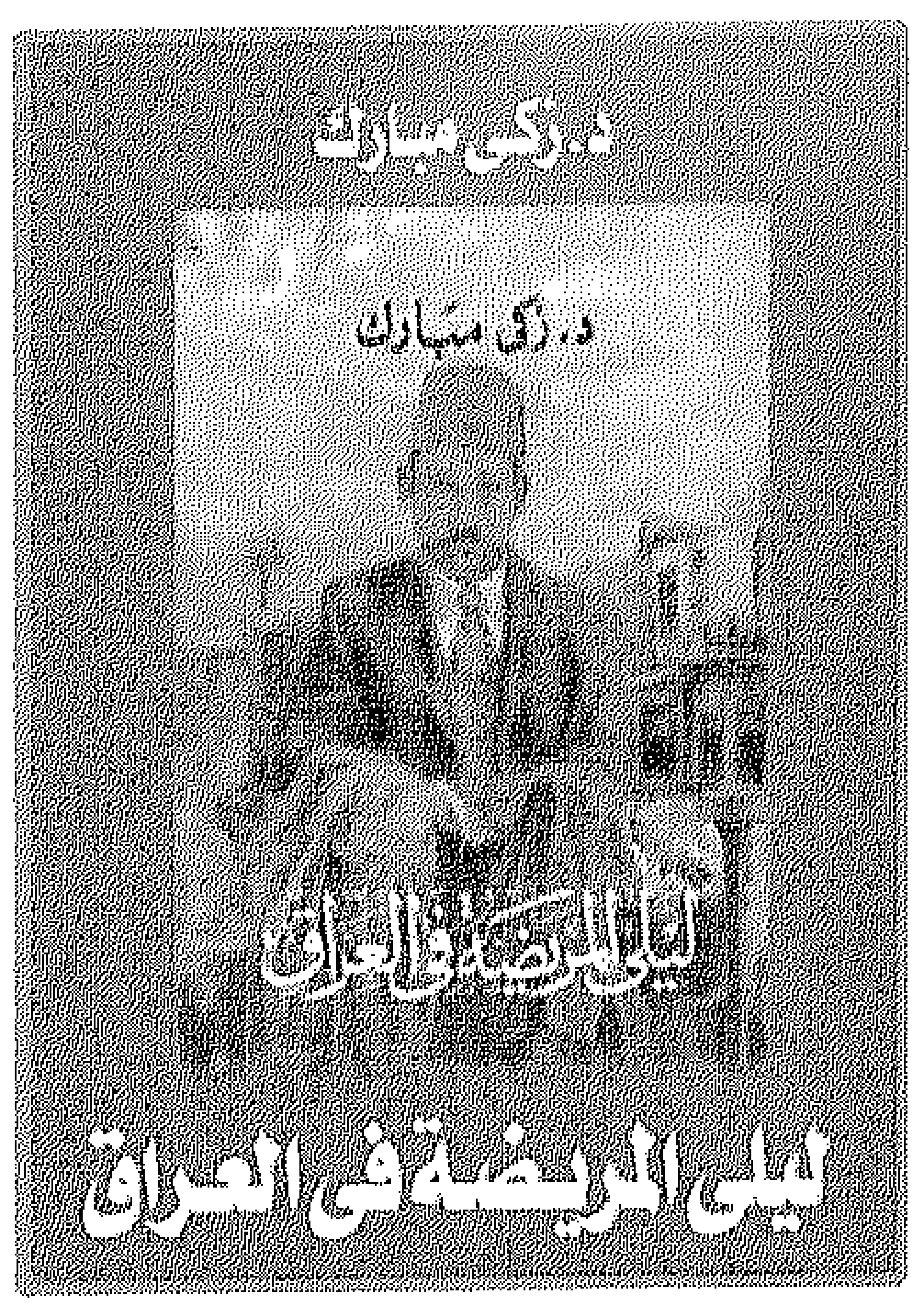
وقد نشرها جرجى زيدان فى مجلته الرائدة الهلال على حلقات وأقام بتجميعها وتنظيمها والتعليق عليها د. محمد حرب المتخصص فى الدراسات التركية .

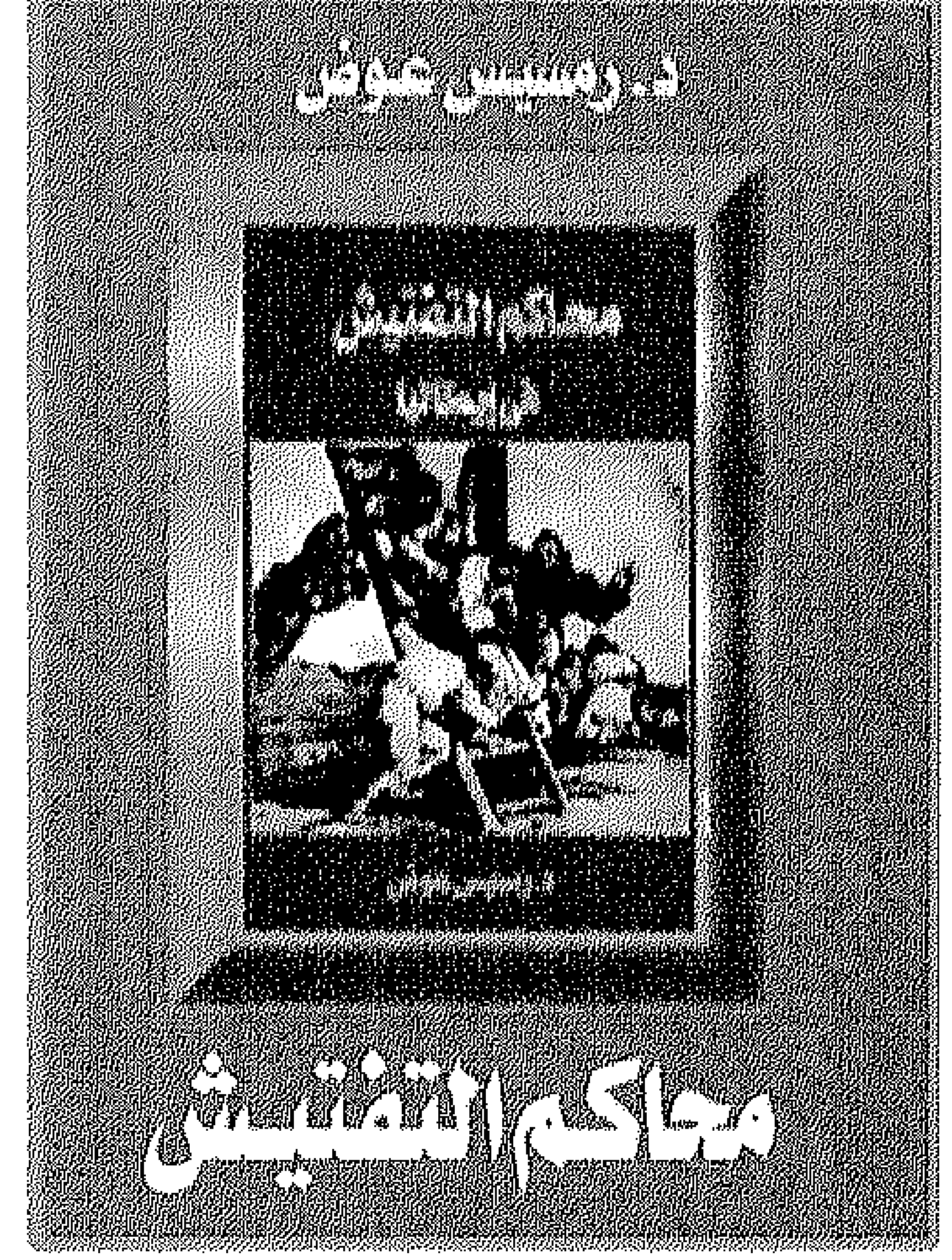
والكتاب زاد ثقافى ثرى لكل قارئ عربى ولذلك فهو دراسة موجهة إلى كل محب للغة العربية والدراسات العربية والتركية ولدراسة الفكر العربى والتركى والتاريخ والمجتمع فى أواخر العهد العثمانى .

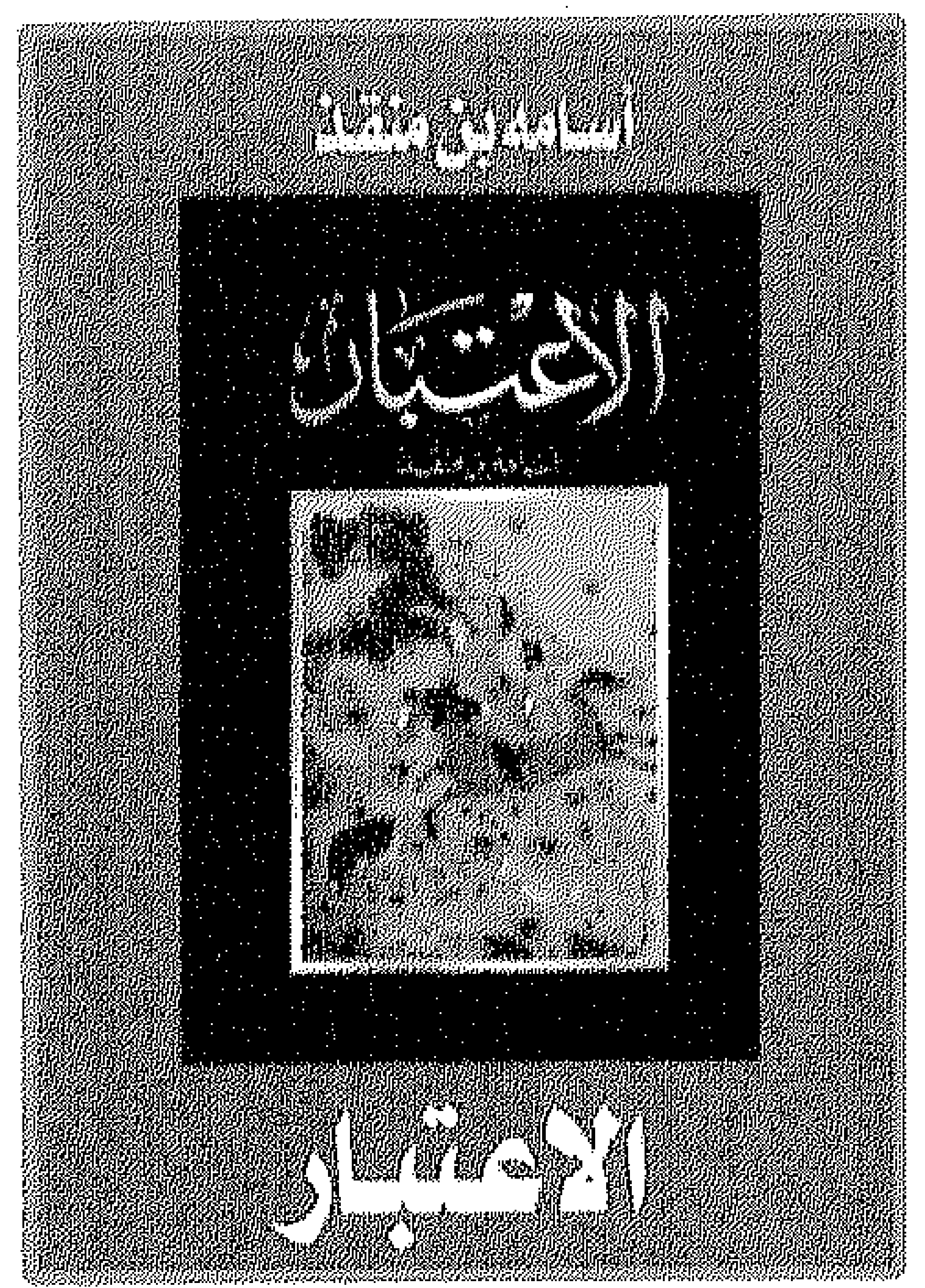
وجرجى زيدان مثقف عربى وكاتب وروائى وصحفى ورحالة ومفكر ومبدع ولذلك كانت له آراؤه الحرة الجريئة التى كلفته الكثير ولكنه كان حرا فى التعبير عن فكره عن طريق الإعلام الذى امتلكه باقتدار وخاصة مجلة الهلال وهى المجلة الثقافية الأولى فى الوطن العربى ، وهو رمز من رموز التنوير العربى على النمط الغربى مثله فى ذلك مثل الرواد العرب الذين نادوا بالتغيير فى نمط الحياة العربية والنظرة العربية للأمور .. بعد أن علموا الغرب وتطوره والحاجة إلى التغيير على شاكلته وأهم ما كان ينادى به أنه لا خوف من الغرب طالما أننا نتغير مع الاحتفاظ بعروبتنا وثقافتنا العربية وكان رأيه ورأى الكثيرين من رواد التنوير انه لا سبيل إلى رقى العرب الا بتبنى الأساليب الغربية حتى الثقافية منها ، فلا يغير العرب فى - رأيهم - اقتباسهم من الثقافة الغربية ولذلك تعرض ذلك الجيل للهجوم خاصة جرجى زيدان صاحب تلك الرحلة الثرية التى ستمتع القارئ العربى فى كل مكان ..




د. رشدى سعيد
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى
د. رشدى سعيد
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

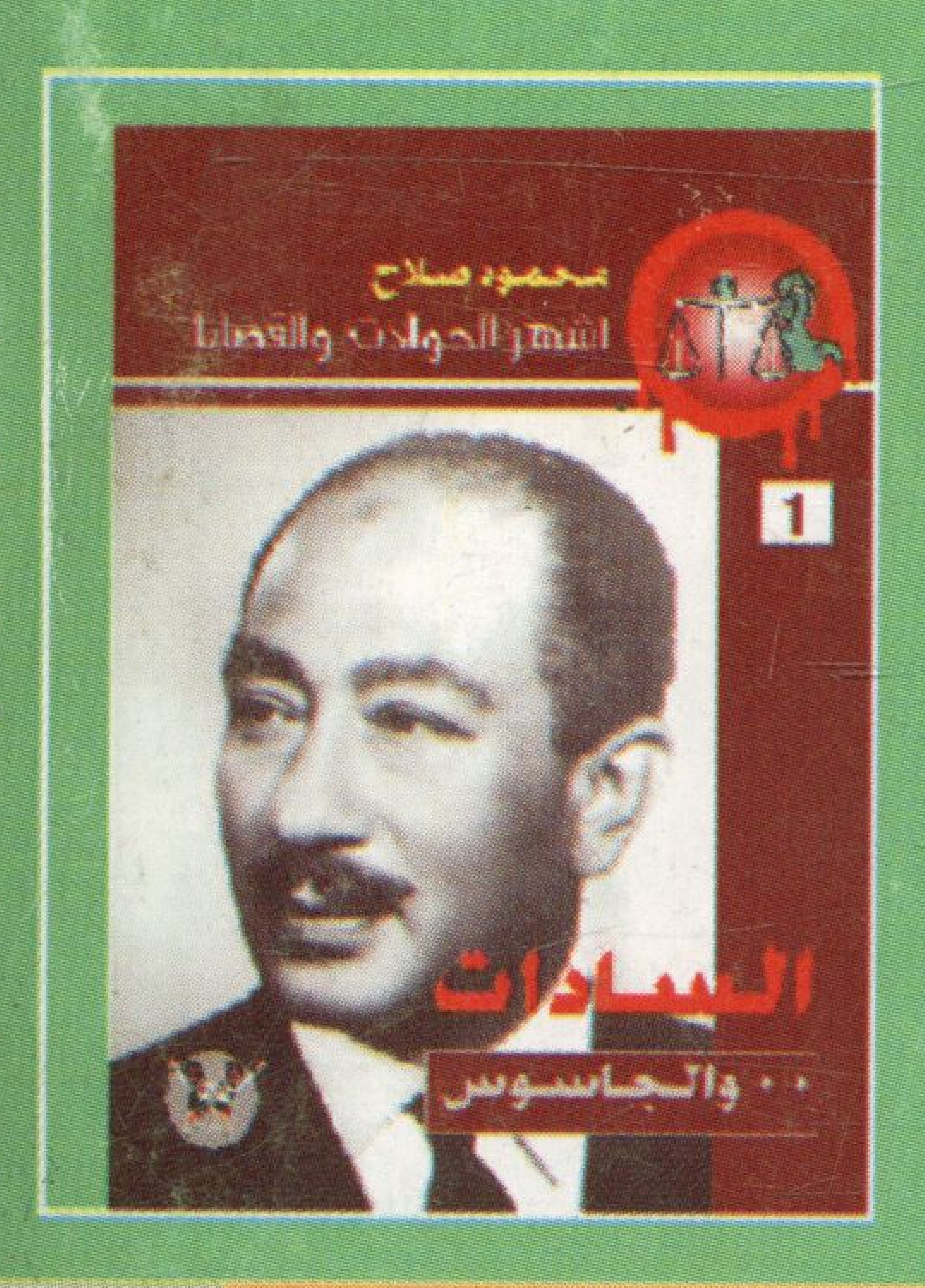

د. زكى مبارك
د. زكى مبارك
ليلى المريضة فى العراق
ليلى المريضة فى العراق


د. رمسيس عوض
محاكم التفتيش
محاكم التفتيش


أسامة بن منقذ
الاعتبار
الاعتبار

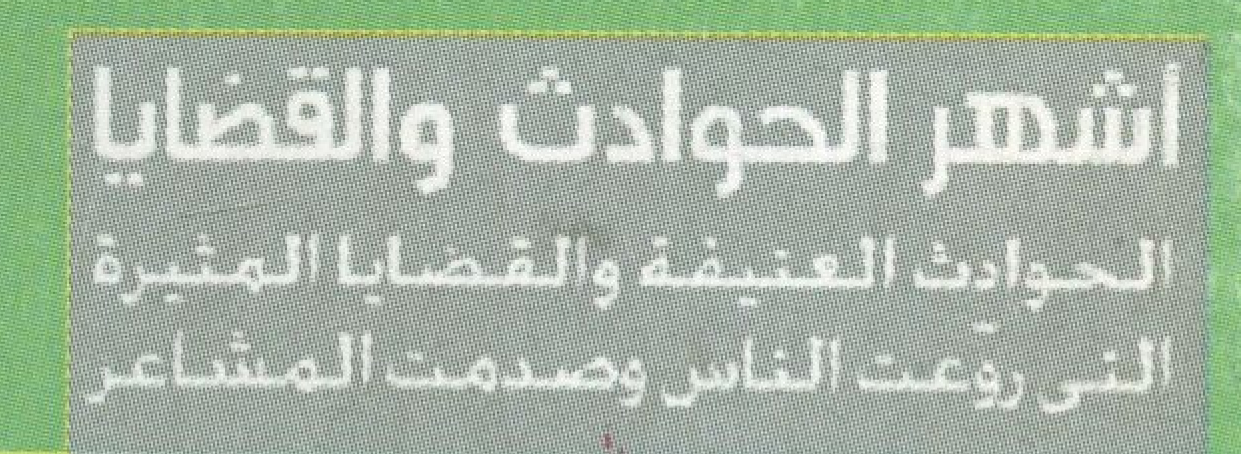












طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المد... الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شار... روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .